روايات
عالمية
للفتيان

اطفال القطار

تأليف: إي. نسبيت



ترجمة مجيد ياسين

اطفال القطار

فريق التوثيق الألكتروني

فريق التوثيق الألكتروني

ترجمة مجيد ياسين

اطفال القطار

ترجمة مجيد ياسين

الطبعة الاولى ١٩٨٨

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام. دار ثقافة الاطفال

العراق. بغداد. ص. ب. ٨٠٤١

روايات عالمية للفتيان

تصدر عن النشر في دار ثقافة الاطفال

المدير العام رئيس مجلس الادارة فاروق سلوم

سكرتير تحرير السلسلة فاروق يوسف

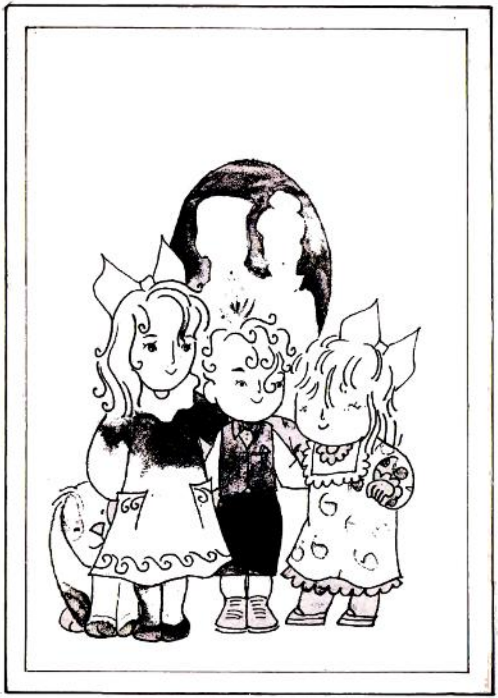
اطفال القطار

الفصل الاول

بداية الاشياء

أولاً – هم ليسوا اطفال قطارات. لاأعني بهذا أنهم لم يفكروا بالقطار الا كوسيلة توصلهم الى محلات (ماسكلين وكوك) ومسرح التّمثيل الصامت وحدائق الحيوان ومتحف الشمع. كانوا أطفال ضاحية اعتياديين يعيشون مع أبيهم وأمهم في فيللا عادية بنيت واجهتها بالآجُرّ الأحمر، لها باب رئيس مزين بالزجاج الملّون وفسحة مرصوفة بحجارة صقيلة تدعى «الصالة»، وحمام بماء حار وبارد وأجراس أبواب كهربائية، ونوافذ فرنسية الطراز وطلاء أبيض يكسو أغلب الجدران، وكل «لوازم البيت العصري المريح» كما يقول سماسرة العقارات.

كانوا ثلاثة، اكبرهم (روبرتا). إن الأمهات لايفضلن إبناً على آخر، بالطبع. ولكن إذا كان لأمّ هؤلاء الاطفال من تفضله على الباقين، فتلك هي روبرتا. يليها بيتر، الذي كان يريد أن يصبح مهندساً عندما يكبر.



وكانت أصغر الثلاثة هي فيليس ذات النوايا الطيبة.

لم تكن الأم تنفق كل وقتها في زيارات ثقيلة لسيدات ثقيلات الظل أو بالجلوس ببلادة في البيت بانتظار زيارة سيدات بليدات. كان لها حضور حيوي في البيت. فكانت مستعدة دوماً لأن تلاعب الاطفال وتقرأ لهم قصصاً وتساعدهم في حل تمارينهم البيتية. وكانت، الى جانب ذلك، تكتب لهم قصصاً في أثناء وجودهم في المدرسة، وتقرأها عليهم بصوت عالٍ بعدما يشربون الشاي(*). وكانت تنظم لهم قطعا شعرية ظريفة في أعياد ميلادهم وفي غيرها من المناسبات الكبيرة، مثل تعميد القطيطات الجديدة أو إعادة تأثيث بيت الدمية أو الشفاء من وعكة صحية.

كان هؤلاء الأطفال الثلاثة المحظوظون يحصلون دائماً على كل مايحتاجونه: ثياب جميلة ومواقد تدفئة لاتخمد النار فيها وغرفة تسلية عامرة بأكوام من اللعب وجدران مغطاة بورق يحمل صور حيوانات وطيور وغيرها. وكانت عندهم مربية باسمة الطلعة وكلب يدعى «جيمس» هو ملكهم الخاص الذي لايشاركهم فيه أحد. وكان لهم أب كامل الصفات والسجايا – لايكذب ولايحتال ولايظلم أحداً ولايرفض ملاعبة الأطفال. فان رفض مرة فلان

(*) شاي العصر – تقليد إنكليزي شائع وعريق.

هناك أسباباً أو أشغالاً ضرورية. وكان يشرح الأسباب للاطفال بطريقة لطيفة ومرحة تجعلهم يقتنعون بأنه لايستطيع مشاركتهم اللعب حينذاك.

ستقول، عزيزي القارئ، إنهم لابد كانوا سعداء. نعم كانوا سعداء، لكنهم لم يعرفوا مقدار سعادتهم الا عندما انتهت أيام العيش النهائي في فيلا (ايدجكومب) وصار عليهم أن يعيشوا حياة مختلفة حقاً.

يومها كان بيتر يحتفل بعيد ميلاده – العاشر. وكانت بين اللعب التي تلقاها كهدايا بالمناسبة، قاطرة بالغة الجمال والدقة. كانت الهدايا الأخرى جميلة ساحرة الا أنها لاتوازي القاطرة في جمالها وسحرها.

ظل سحر القاطرة طاغياً لمدة ثلاثة أيام، ثم إذا بماكنة القاطرة تنفجر وتتعطل. وربما حصل ذلك بسبب من جهل بيتر أو لأن فيليس عبثت بها بحسن نية. وبلغ خوف الكلب جيمس من صوت الانفجار حدا جعله يهرب من البيت طوال ذلك اليوم. وتطايرت مخلوقات سفينة نوح القريبة، المصنوعة من خشب رقيق، ولكن لم يصب أحد بأذى سوى الماكنة الصغيرة المسكينة ومشاعر بيتر. قالوا إنه بكى حزنا عليها – ولكن الأولاد ابناء العاشرة لايبكون بالطبع مهما كانت المآسي التي قد تمر في سمائهم فظيعة. فقال ان عينيه كانتا حمراوين من شدة

البرد. وقد تبين أن ماقاله بيتر صحيح ولو أنه لم يكن يعرف. ذلك أنه لزم الفراش في اليوم التالي. وإذ بدأت أمه تخاف أن يكون قد أصيب بالحصبة، هبّ من رُقاده فجأة واستوى جالساً في فراشه وقال:

– أكره الحساء. أكره ماء الشعير. أكره الخبز والحليب. أريد أن أنهض وآكل وجبة حقيقية.

فسألته أمه:

– ماذا تحب؟

قال بيتر بلهفة:

– فطيرة بلحم الحمام. فطيرة لحم حمام كبيرة. كبيرة جدا.

فأمرت أمه الطباخة بعمل فطيرة لحم حمام كبيرة. وعُملت الفطيرة. وعندما عُملت وُضعت في الفرن. وعندما نضجت أكل بيتر قليلا منها. وبعدها خفّت حدة الزكام.

وكتبت أُمه قطعة شعرية لتسليته في اثناء تحضير الفطيرة، بدأتها عن بيتر، الولد السيْ الحظ ولكن المحبوب، ثم مضت تقول:

كانت ماكنةٌ يحبها
من كل قلبه وروحه
واذا كان يتمنى شيئا في حياته
فهو ان تبقى سالمة.

في احد الايام –
استعدوا ، ايها الاصدقاء
لسماع اسوأ الانباء –
فجأة جُنَّ جنون احد البراغي
ثم انفجر المرجل !
وحمل الماكنة وهو حزين
ومضى بها الى أُمّه
حتى وان لم يستطع ان يفترض
ان أُمّه تقدر على المجيء بواحدة اخرى له
فلم يكن يهتم ، على مايبدو
بأولئك الذين تناثرت اشلاؤهم على السكة
كانت قاطرته اهم بالنسبة اليه
من كل الموجودين
والآن . . ها انتم ترون لماذا
تمرّض عزيزُنا بيتر
وها هو يداوي آلام نفسه
ويقتل حزنه الشديد
بفطيرةٍ محشوة بلحم الحمام
ويلف نفسه ببطانيات دافئة
وينام في فراشه الى وقت متأخر
عازما بذلك على التغلب

على حظه العاثر
فاذا رأيتم عينيه حمراوين
فالذنب في ذلك ذنب الزكام
واذا قدمتم له فطيرة ، فكونوا على ثقة بأنه لن يرفضها
ابدا .

* * * * *

كان الوالد يومئذ غائبا عن البيت في سفرة الى الريف لمدة ثلاثة ايام او اربعة . وقد تركزت كل آمال بيتر في معالجة قاطرته المسكينة على والده ، فالوالد يملك اصابع غاية في المهارة ويستطيع ان يصلح كل شيء . ولطالما لعب دور الطبيب البيطري في معالجة الحصان الخشبي الهزاز . بل لقد انقذ حياة الحصان المسكين ، في احدى المرات ، بعدما تخلى عنه الناس جميعاً واعتبروه حطاما وعجز حتى النجار عن تصليحه . والوالد هو الذي اصلح المهد الصغير الذي تنام فيه الدمية ، حين عجز الكل عن تصليحه . وهو الذي استطاع ، بقليل من الغراء وقطع الخشب الصغيرة ومبراة اقلام ، ان يثبت حيوانات سفينة نوح في اماكنها بقوة ، بل واقوى من السابق .

وبنكران ذات بطولي لزم بيتر الصمت الى ان فرغ والده من تناول عشائه ودخن سيكارة مابعد العشاء . كانت فكرة نكران الذات من اقتراح أُمه ، ولكن بيتر هو

الذي نفذها . وقد تطلبت قدرا كبيرا من الصبر .
اخيرا قالت الأم للأب :
– والآن ، ياعزيزي ، اذا كنت ارتحت واسترخيت فنحن نريد ان نخبرك بحادثة القطار الكبيرة ونسألك النصيحة .
فقال الوالد :
– حسنا ، اطلقوا القنبلة !
عندئذ حكى له بيتر الحكاية المحزنة وقدم اليه مابقي من القاطرة . فتفحصها الوالد بإمعان وغمغم غمغمة مكتومة . فحبس الاطفال أنفاسهم . وسأل بيتر بصوت مضطرب خافت :
– لا أمل ؟
فقال الوالد بمرح :
– أمل ؟ بالاحرى ! بالإطنان . ولكن المسألة تتطلب إشياء اخرى الى جانب الامل . رقيقة من النحاس وبعض اللحام وصماما جديدا . من رأيي ان نؤجل العمل الى يوم ممطر . بعبارة اخرى ، سأتنازل عن عصر يوم السبت وعليكم جميعا ان تعاونوني .
فتساءل بيتر بارتياب :
– هل تستطيع البنات المساعدة في تصليح القاطرات ؟
– يستطعن بالطبع . البنات لسن اقل ذكاء من

الاولاد ، تذكر هذا ! مارأيكِ في ان تكوني سائقة قطار يافيليس ؟
فقالت فيليس بنبرة باردة :
– سيكون وجهي ملطخا بالاوساخ على الدوام ، اليس كذلك؟ ولابد اني سأسبب اضراراً.
وقالت روبرتا :
– كم أحب ذلك. بابا ، هل تعتقد أني اقدر على سياقة قاطرة عندما أكبر؟ أو اصبح وقّادة على الاقل؟
فقال الوالد ، وهو يعالج بعض جوانب القاطرة :
– تقصدين اطفائية. طيب ، اذا كانت هذه هي رغبتك حين تكبرين ، فسأعمل مايمكن لجعلك اطفائية. اذكر أني حين كنت طبيباً....
في تلك اللحظة طُرِقَ الباب الخارجي. فقال الوالد :
– من ، بحق السماء! ادري أن بيت الرجل الانكليزي هو قلعته بالطبع ولكن ليتهم يبنون فيلاّت منفصلة بعضها عن بعض تحيط بها خنادق وعليها جسور متحركة.
ودخلت عليهم روث – خادمة الاستقبال ذات الشعر الاحمر – واعلنت إن رجلين يريدان رؤية سيدها ، وقالت :
– اوصلتهما الى المكتبة ياسيدي.
قالت الام :



– ربما جاءا يطلبان تبرعات لكنيسة أو لصندوق رعاية اطفال الكورس. تخلص منهما بسرعة ياعزيزي. أمر كفيل بإفساد الأمسية. وبعد قليل يذهب الاطفال للنوم.
ولكن يبدو ان الوالد لم يستطع أن يتخلص من الزائرين بسرعة ابداً. قالت روبرتا:
– اتمنّى لو أننا نملك خندقاً عميقاً حول بيتنا وعليه جسر متحرّك، عندئذٍ حين يأتي أناس لانريدهم، نرفع الجسر فلا يقدر أحد على الوصول. اخشى أن ينسى بابا الحديث عن ايام طفولته، اذا طالت الزيارة.
وحاولت الأم تخفيف وطأة الانتظار على الاطفال بأن راحت تحكي لهم حكاية خرافية جديدة عن أميرة خضراء العينين، ولكن صوتها ضاع وسط اصوات الوالد و الزائرين التي كانت تأتي من المكتبة. وكان الوالد يتحدث بصوت عالٍ وبلهجة تختلف عن لهجة رجل يخاطب اناساً يجمعون تبرعات للكنيسة.
ثم دقّ ناقوس المكتبة فأطلق الجميع زفرة ارتياح.
فقالت فيليس:
– سيذهبان الآن. دقّ الناقوس حتى توصلهما الخادمة الى الخارج.
ولكن روث لم توصل احداً الى الباب الخارجي، بل دخلت على الوالدة والأطفال. ولاحظ الصغار ما ارتسم

على وجهها من علائم غريبة. قالت:
– سيدتي، من فضلك. سيدي يريدك أن تذهبي اليه في المكتب. يبدو شاحباً شحوب الموتى، ياسيدتي. أعتقد أنه تلقى انباءً سيئة يستحسن أن تعدي نفسك لتلقي صدمة، ياسيدتي. ربما كانت وفاة واحد من الأهل.. أو إفلاس بنك أو... فقاطعتها الأم بلطف:
–«هذا يكفي ياروث. يمكنك الذهاب»ثم ذهبت الى المكتبة. وكان الجدال حامياً. ثم دقّ الناقوس ثانية. واستوقفت الخادمة روث عربة اجرة. وسمع الأطفال وقع اقدام تبتعد وتنزل درجات الباب الخارجي. ومضت العربة. واغلق الباب الخارجي. ثم عادت الأم وقد ابيضّ وجهها حتى صار في مثل بياض ياقتها وازدادت عيناها اتساعاً ولمعاناً. وبدا فمها مثل خط أحمر باهت ... فيما اخذت شفتاها الرقيقتان شكلاً غير معقول. قالت:
– حان وقت النوم. روث ستضعكم في الفراش، فقالت فيليس:
– ولكنك وعدت بالسماح لنا بالسهرة، هذه الليلة بمناسبة عودة بابا.
فقالت الأم:
– بابا سافر. بعثوا في طلبه لانجاز بعض الاشغال. تعالوا يا أعزائي.. هيا الى الفراش في الحال.

فقبّلوا أمهم وذهبوا، وتأخرت روبرتا عن الأخرين قليلاً لتعانق أمها ثانية وتهمس قائلة:
– لم تكن اخباراً سيئة، ماما. أليس كذلك؟ هل مات أحد – أو....
قالت الأم وهي تكاد تدفع روبرتا بعيدا:
–لم يمت أحد - كلا. لاأستطيع أن أخبرك بشيْ، الليلة، ياقطتي العزيزة.
اذهبي ياعزيزتي، اذهبي الان.
وهكذا ذهبت روبرتا.
ومشطت روث شعر البنتين وساعدتهما على نزع ملابسهما وارتداء ثياب النوم. (كانت الأم هي التي تقوم بهذه المهمة دائما تقريبا). وعندما أطفأت الخادمة مصابيح الغاز وغادرت الغرفة وجدت بيتر ينتظر عند السلم وهو مايزال. بملابسه. سألها:
–أقول، روث، ماذا حدث؟
فردت عليه الخادمة ذات الشعر الاحمر:
–لاتسألني ولاسؤال وأنا لاأقول لك ولاكذبة. ستعرف قريبا.
وصعدت الام الى غرفة الاطفال في وقت متأخر من الليل وقبلت الثلاثة وهم نائمون، وكانت روبرتا الوحيدة التي أيقظتها القبلة، الا أنها لبثت ساكنة في فراشها ولم

تنطق بكلمة. وعندما التقطت أذناها، في الظلمة، صوت نشيج أمها قالت في نفسها: «اذا كانت ماما لاتريدنا أن نعرف أنها تبكي، فلن نعرف مطلقا. هذا كل مافي الامر».

وعندما نزلوا لتناول الفطور صباح اليوم التالي وجدوا أن أمهم قد خرجت.

قالت روث:

–ذهبت الى لندن.

وخرجت تاركة الاطفال يتناولون فطورهم. فقال بيتر وهو يقشر بيضته:

–شيءٌ مريع حصل. روث قالت لي، ليلة أمس اننا سنعرف في القريب العاجل.

فقالت روبرتا بنبرة احتقار:

–سألتها؟

أجاب بيتر غاضبا:

–نعم، فعلت! اذا كنت أنت تقدرين على النوم ولايهمك ان كانت ماما قلقة ام لا، فانا لاأقدر. هذه هي المسألة.

فقالت روبرتا:

–لاأظن أن من الواجب أن نسأل الخدم عن امور لاتخبرنا ماما عنها.

قال بيتر:

–صحيح، آنسة «فضيلة مصطنعة».. ألتي عليها المواعظ.

فقالت فيليس:

–أنا لاأتصنع ولكني أعتقد أن بوبي محقة هذه المرة.

قال بيتر:

–بالطبع. هي دائما محقة، حسب رأيها.

فصرخت روبرتا، وهي تلقي بملعقة البيض:

–آه، ماهكذا! لاتجعلونا نبغض بعضنا بعضا. أنا واثقة ان نكبة رهيبة حدثت. فلاتزيدوا الحالة سوء!

قال بيتر:

–من البادئ؟أخبريني.

فارتبكت روبرتا قليلا ثم أجابت:

–أنا، على ماأظن.. ولكن

فقال بيتر بزهو المنتصر:

–حسنا، إذن.

ولكنه قبل أن يمضي الى المدرسة قرص أخته من رقبتها مداعبا وطلب منها أن لاتبتئس.

عاد الاطفال من المدرسة في الساعة الواحدة، ساعة الغداء، ولكن أمهم لم تكن في البيت. ولم تعد حتى في ساعة تناول الشاي قرب المساء.

وعندما عادت كانت الساعة قد قاربت السابعة وكان باديا عليها المرض والاعياء، حتى الاطفال شعروا بأنهم لايمكن أن يثقلوا عليها بأي سؤال. وألقت بنفسها على كرسي ذي مساند. فبادرت فيليس تفك دبابيس قبعتها، بينما نزعت لها روبرتا قفازها وانزعها بيتر حذاءها وجاءها بالخف المنزلي المخملي الناعم.

وبعدما شربت الام كوبا من الشاي، ورشت روبرتا ماء الكولونيا على رأسها المتعب،

قالت:

–والآن ياأحبائي، أريد أن اخبركم بشيء. الرجلان اللذان جاءا ليلة أمس كانا يحملان أنباء سيئة للغاية. أبوكم سيغيب حينا من الوقت. أنا قلقة جداً وأريد منكم ان تساعدوني ولاتزيدوا في صعوبة الأمور عليَّ.

فرفعت روبرتا يد أمها في ضراعة وقالت:

–نفعل شيئا كهذا!

قالت الام:

–تستطيعون مساعدتي كثيرا عندما تكونون مؤدبين وسعداء ولاتتشاجرون في أثناء غيابي، لاني منذ الآن سأضطر الى التغيب عن البيت كثيرا.

عندها تبادلت روبرتا وبيتر نظرة ندم. وقال الجميع.

–لن نتشاجر. لن نتشاجر أبدا. ونحن نعني مانقول

أيضا.

ومضت الام تقول:

–لاأريد أن تسألوني أي سؤال حول هذه المشكلة أو تسألوا أحدا غيري.

فأحنى بيتر رأسه بإذعان، ساحباً قدميه على السجادة وهو خجلان..قالت له أمّه:

–تعطيني وعداً بأن لاتفعل هذا، أليس كذلك؟

فقال بيتر فجأة:

–نعم، سألتُ روث. أنا متأسف جدا. ولكني سألتُها.

– وماذا قالت؟

– قالت إني سأعرف في المستقبل القريب.

فقالت الأم:

–لامانع من أن تعرف أي شيء عن هذا الموضوع. المسألة تتعلق بالعمل، وأنتم لايمكن أن تفهموا في الأعمال. أتفهمون في الأعمال؟

فقالت روبرتا:

–لا. هل تتعلق المسألة بالحكومة؟ بابا يعمل في دائرة حكومية.

أجابت الأم:

–نعم. الآن حان موعد النوم ياأحبابي. لاتشغلوا بالكم.

كل شيء سينتهي على خير.

فقالت فيليس :

– إذن،لاتشغلي بالك أنت أيضاً ياأماه. وسنكون جميعاً حلوين مثل الذهب.

فتنهدت الأم بارتياح وقبّلتهم.

قال بيتر، وهم يصعدون السلم الى غرفة النوم :

–سنبدأ بالتصرف بصورة جيدة بدءاً من صباح غد.

فقالت روبرتا :

–الأحسن أن نحاول التصرف بصورة صحيحة، لا أنْ نتبادل الشتائم.

فقال بيتر :

–من الذي يشتم؟ بوبي تعرف جيداً حين أقول «غبية» فكأني أقول «بوبي».

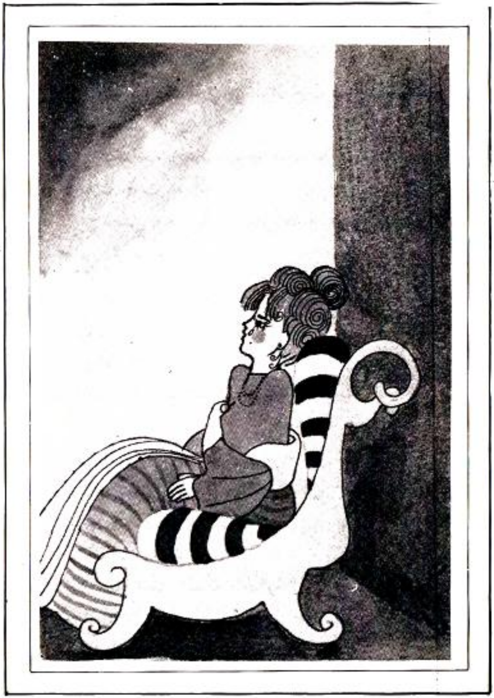
قالت روبرتا :

–يعني!

–لا، أنا لا أقصد ما تفكرين به... أقصد أني، أنها مجرد، ماذا يسميها أبي؟ بذرة تَوَدُّد!

تصبحون على خير.

طوت الفتاتان ثيابهما بعناية زائدة – وكانت هذه الطريقة الوحيدة التي خطرت ببالها للتعبير عن حسن التصرف ـ وقالت فيليس، وهي تعدل صدريتها :



–أقول.. كنت دائماً تقولين إن حياتنا مملة – لاشيء يحدث كما في الكتب. الآن حدث شيء.

فقالت روبرتا :

– أنا ماأردت أن تحدث أشياء تجعل ماما حزينة. كل شيء مخيف تماماً.

ولقد ظل كل شيء مخيفاً تماماً عدة أسابيع، كانت الأم خلالها غائبة عن البيت أكثر الأحيان. وصارت وجبات الطعام سيئة ،الأواني، وسخة. وطُردت خادمةُ المائدة وجاءت (الخالة إيما) في زيارة. كانت الخالة إيما أكبر سناً من أمهم بكثير. وكانت في طريقها الى الخارج للعمل مديرة مدرسة. وكانت طوال الوقت مشغولة بتوضيب حقائب السفر. كانت ثيابها قبيحة حائلة اللون من فرط الاستعمال. . . وكانت تترك الثياب متناثرة هنا وهناك على الدوام، فيما راحت ماكنة الخياطة التي تحملها معها تدور وتئز بلا انقطاع طوال النهار وأغلب ساعات الليل. كانت الخالة إيما تعتقد بأن الأطفال يجب أن يوضعوا في مكانهم المناسب. وكان الاطفال يحملون لها الشعور نفسه بالمقابل ويعتقدون أن مكانها المناسب هو أي مكان بعيد عنهم. إذ كانوا لايتحدثون معها الا قليلاً ويفضلون صحبة الخادمات اللواتي كن لطيفات معهم. فكانت الطباخة تغني لهم أغاني فكاهية، عندما تكون

منشرحة النفس، بينما تروح خادمة المنزل، إذا لم يكدر مزاجها أحد، تقلّد وَقْوَقَة دجاجة توشك أن تبيض، وصوتَ فتح زجاجة شمبانيا ومُواء قطط تتعارك.

لم تقل الخادمتان للأطفال شيئاً عن الأخبار السيئة التي حملها الزائران الى الوالد، لكنهما كانتا تُلَمِّحان باستمرار الى أنهما تعرفان الكثير – وكان ذلك مبعث ازعاج للأطفال.

وفي أحد الأيام نصب بيتر – على سبيل المداعبة – شركاً على باب الحمام للخادمة روث حمراء الشعر، هو عبارة عن دلو مملوء بالماء يندلق عند فتح الباب.

ونجح الشرك أيما نجاح وانصب الماء على الخادمة حالما فتحت الباب فتملكها الهياج وصفعت بيتر على أذنيه وقالت بغضب :

–نهايتك سيئة أيها الشرير الصغير القذر.. يا! إذا لم تحسن تصرفاتك فسوف تكون نهايتك مثل نهاية والدك الغالي! أنا أقول لك بصراحة!

وقصّت روبرتا لأمها ماحدث فطردت روث في اليوم التالي.

ثم جاء يوم عادت فيه الأم الى البيت ومضت تواً الى فراشها وظلت طريحة الفراش يومين. وجاء الطبيب وصار الاطفال يدورون في ارجاء البيت حائرين بائسين وكأن

العالم موشك على الفناء.

وفي صباح أحد الايام نزلت الأم لتناول الفطور وكانت شاحبة اللون وقد علت وجهَها تجاعيدُ لم تكن موجودة من قبل.. حاولت أن تبتسم وقالت:

– والآن ياصغاري، رتبتُ كل شيء. سنترك هذا البيت ونذهب لنعيش في الريف. ياله من بيت أبيض صغير محبوب. أدري أنكم ستحبونه.

أعقب ذلك أسبوع من العمل الدؤوب في توضيب حقائب الثياب وحزم الامتعة والكراسي و المناضد ولفها من فوق بأكياس الخيش (الجنفاص) ومن الاسفل بحزم القش.

وتم رزم كل ما يحتاجه الانسان عند الانتقال الى سكن جديد: أوانٍ من الخزف والفخار وبطانيات وشمعدانات وسجاجيد وهياكل أسِرَّة وقُدور وأواني طبخ وحتى شبابيك للمواقد وقضبان من الحديد لتحريك النار.

وصار البيت مثل مخزن للأثاث. وأعتقد أن الأطفال وجدوا متعة كبيرة في هذه العملية. كانت الأم منهمكة بالعمل، ولكن ليس الى درجة أن لا تتحدث معهم أو تقرأ لهم القصص. بل انها كتبت قطعة شعرية تخفف بها عن فيليس التي كانت تتألم من جرح أصاب يدها في اثناء

رزم الحاجيات.

سألت روبرتا أمها، وهي تشير الى دولاب جميل مزيّن بحراشف سلاحف حمراء وقطع من النحاس الأصفر:

– ألا نأخذ هذا معنا يا أماه؟

فأجابت الأم:

– لا نستطيع أن نأخذ كل شيء.

قالت روبرتا:

– ولكننا أخذنا كل الأشياء القبيحة.

فقالت أمها:

– نأخذ ماهو مفيد. سنضطر الى تمثيل دور الفقراء بعض الوقت، يافُرَيْخَتي.

وحين تمّ حزم الأشياء القبيحة جميعها، وقام بنقلها رجال يرتدون بدلات عمل خضراء داكنة، نامت الفتاتان وأمها والخالة إمّا في الغرفتين الاضافيتين اللتين تحويان اثاثاً أنيقا جميلاً، بينما نام بيتر على اريكة في غرفة الصالون.

قال بيتر، وهو يتمطى بجذل عندما قامت أمه تلفه بالغطاء جيداً:

– أقول.. هذا صوتٌ قُبَّرات. كم أحب الانتقال! ليتنا ننتقل مرة كل شهر.

فضحكت أمه وقالت:
– أنا لا أحب! تصبح على خير ياصغيري.

ولما استدارت لتذهب رأت روبرتا وجهها ولم تغب صورته عن بالها أبداً.

وراحت تناجي نفسها في الفراش: «آه، يا أماه، كم أنت شجاعة! كم أحبك! تخيلي كم أنت شجاعة حين تضحكين وأنت بمثل هذه الحالة!».

في اليوم التالي مُلئت صناديق أخرى بالمواد وصناديق وصناديق. وفي عصر اليوم استقلّوا عربة الى المحطة.

هناك ودعتهم الخالة إيما. وشعروا أنهم قد تخلصوا منها وفرحوا لذلك. وهمست فيليس:
– ولكن، آه، كان الله في عون الاطفال الأجانب المساكين الذين ستتولى تربيتهم. لا أقبل أن أكون واحدة منهم ولو أعطوني كل شيء!

استمتعوا بالتطلع الى الخارج من نافذة القطار، أول الأمر، ولكن النعاس بدأ يدب الى أعينهم مع هبوط المساء. ولم يدرِ أحد منهم كم استغرقت الرحلة حين هزتهم أمهم من إغفاءتهم بلطف وقالت:
– استيقظوا يا أعزائي... لقد وصلنا.

أفاق الاطفال من نومهم بردانين مقبوضي النفس ووقفوا يرتجفون على رصيف المحطة المكشوف الذي

يعصف به الهواء البارد، في انتظار نزول الحقائب. ثم بدأت القاطرة تتحرك، مطلقة صفيراً ودخاناً، جارّة العربات وراءها وظل الاطفال ينظرون الى مصابيح عربة الحارس الخلفية الى أن توارت في الظلمة.

كان ذلك أول قطار يراه الاطفال على تلك السكة التي صارت، مع مرور الأيام، حبيبه الى قلوبهم. لم يكونوا، في تلك اللحظة، يعرفون أنهم سيحبون سكة القطار في المستقبل وأنها ستصبح بسرعة محور حياتهم الجديدة. ولم تكن لديهم اية فكرة عن العجائب و التغيرات التي تنتظرهم. كانوا، في تلك اللحظة، يرتجفون من البرد ويعطسون ويتمنون أن يكون الطريق الى البيت الجديد قصيراً.

وأوشك أنف بيتر أن يتجمد من البرد بشكل لم يسبق له مثيل. وأتلف الهواء قبعة روبرتا وانكمشت أشرطتها المطاطية من شدة البرد وانقطع رباط حذاء فيليس.

قالت الأم:
– هيا بنا. علينا أن نمشي. لاتوجد هنا عربات.

كان الدرب مظلما وموحلا. وتعثر الاطفال في طريقهم. ووقعت فيليس في حفرة فتبللت ثيابها وتوسخت وتألمت لذلك. ولم تكن هناك مصابيح غازية تنير الطريق الذي كان يمر عبر التلال. ومضت عربة



الحمل تجر نفسها جرا وراحوا يتبعون صرير عجلاتها . ولما تعودت عيونهم على الظلام استطاعوا أن يميزوا أكداس الصناديق على العربة التي تسير متمايلة أمامهم .

كانت هناك بوابة عريضة يجب فتحها لكي تمر العربة ومن ورائها كان الطريق يمر عبر الحقول ، آخذاً بالانحدار من التلال . في تلك اللحظة لاح هيكل ضخم معتم على الجهة اليمنى من الدرب .

فقالت الأم :

– ذاك هو البيت . عجبا ، لماذا سُدّت مغاليق النوافذ ؟

فسألتها روبرتا :

– من هي ؟

– امرأة استأجرتها لتنظيف البيت وترتيب الاثاث وإعداد العشاء لنا .

وبدا حائط واطئ ومن ورائه أشجار فقالت الأم :

– هذه هي الحديقة .

فقال بيتر :

– تبدو أشبه بحوض لغسل الخضراوات مملوء برؤوس كرنب (لهانة) سوداء .

مضت عربة الحمل الى الداخل بمحاذاة حائط الحديقة ودارت من وراء البيت وهناك اخذت دواليب العربة تصدر صوتا وهي تصير على الارضية المبلطة

بالحجارة لساحة البيت الامامية . ثم توقفت امام الباب الخلفي .

كانت النوافذ كلها مظلمة . وطرقوا الباب كلهم ، ولكن لم يُجِب أحد . وقال الحوذي إن (السيدة فيني) لابد قد عادت الى بيتها . وقال :

– لاحظوا أن قطاركم وصل متأخرا .

قالت الأم :

– ولكن المفتاح معها . ماذا نفعل ؟

قال الحوذي :

– لابد أنها تركته لكم تحت عتبة الباب . الناس هنا يفعلون هذا .

وتناول فانوس العربة وانحنى يبحث عنه عند الباب .

– ها هو ، في مكانه .

ففتح الباب ودخل ووضع الفانوس على الطاولة ، وسأل :

–اما عندكم شمعة ؟

فأجابت الأم بلهجة اقل ابتهاجا من المعتاد :

– لا علم لي بما في البيت .

أشعل الحوذي عود ثقاب ، فرأى شمعة على الطاولة فأوقدها . وعلى نورها القليل الضعيف رأى الاطفال أنفسهم أمام مطبخ واسع أرضيته من صخر ، عارٍ من

الأثاث والستائر والبسط . وقد توسطته مائدة الطعام التي حملوها معهم ، بينما تكدست الكراسي في زاوية منه والقدور ولوازم الطبخ ومكانس القش في زاوية اخرى . ولم تكن في الموقد نار ، بل كومة من رماد خامد بارد .

وما إن تحوّل الحوذي ليذهب ، بعدما نقل صناديق الأمتعة الى داخل البيت ، حتى سُمعت خشخشة أشياء تتحرك وتتقافز داخل الجدران . فصرخت الفتاتان :

– آه ، ماهذا ؟

فقال الحوذي :

– هذه فئران فقط .

وذهب وأغلق الباب خلفه ، وكانت دفقة الهواء الناتجة عن إغلاق الباب كافية لاطفاء الشمعة .

قالت فيليس :

– آه ، ياإلهي . ليتنا ماجئنا !

واصطدمت بأحد الكراسي فأوقعته على الارض ، فقال بيتر في وسط الظلام :– فئران فقط !

الفصل الثاني

منجم فحم بيتر

قالت الأم، وهي تبحث بأصابعها عن علبة الثُقاب على المائدة:

--ياللمتعة! كم هي خائفة هذه الجرذان المسكينة! لاأعتقد أنها فئران بالمرة.

وأشعلت عود ثقاب وأوقدت الشمعة فتبادل الجميع النظر في ضوئها الضعيف المهزوز. وقالت أمهم:

--حسنا. كثيرا ما كنا نتمنى أن يحدث شيءٌ وهاهو قد حدث الآن. هذه مغامرة حقيقية، أليس كذلك؟ لقد طلبت من السيدة فيني أن تجلب لنا بعض الخبز والزبد واللحم والحاجات الاخرى، وأن تحضر لنا العشاء. أعتقد أنها وضعته في غرفة الطعام. هيا بنا الى هناك. كانت غرفة الطعام تنفتح على المطبخ. وقد بدت أشد ظلاما في ضوء الشمعة الوحيدة التي حملوها معهم، وذلك لان جدران المطبخ كانت مطلية باللون الابيض، بينما غُلِّفَتْ جدران

غرفة الطعام حتى السقف بخشب داكن اللون. وتقطع السقفَ جسورٌ ضخمة من خشب أسود. وكانت هناك قطع أثاث متناثرة في فوضى، وقد علاها الغبار، تلك هي قطع أثاث غرفة الطعام التي جاؤوا بها من بيتهم القديم الذي قضوا فيه كل حياتهم. وبدا لهم كأن ذلك حدث في الماضي السحيق والبيت القديم بعيد عنهم كل البعد.

كانت هناك مائدة طعام وكراسٍ فعلا، ولكن لم يكن هناك أي طعام.

قالت الأم:

- «دعونا نفتش في الغرفة الاخرى». وفتشوا. ووجدوا الغرف كلها في حالة فوضى والاثاثَ مبعثرًا، ولوازم البيت والحاجيات المختلفة مرمية على الارض، ولكنهم لم يجدوا شيئا يأكلونه. حتى «النملية» لم يجدوا فيها سوى علبة مسحوق كيك صدئة وماعونا مكسورا متعفنا. قالت الأم:

-ياللعجوز القبيحة! أخذت الفلوس وذهبت ولم تأت لنا بأي طعام.

قالت فيليس مذعورة:

-اذن، سنبقى بلا عشاء بالمرة؟

وتراجعت الى الخلف فداست، دون أن تدري، على



وعاء للصابون فتحطم تحت قدميها بصوت مسموع.

قالت الأم:

–آه، نعم.... بقي أن نفتح احدى تلك العلب الكبيرة التي وضعناها في القبو. فل... انتبهي عندما تمشين ياعزيزتي. بيتر.. امسك الضوء.

كانت الباب المؤدية الى القبو خارج المطبخ. وكان هناك سلم خشبي من خمس درجات يقود الى الاسفل. لم يكن قبوا بالمعنى الصحيح، وذلك لان سقفه مرتفع الى مستوى سقف المطبخ. وقد تدلى من السقف رف لتعليق قطع لحم الخنزير المجفف. وكان في القبو خشب وفحم وصناديق الحاجيات الكبيرة.

أمسك بيتر بالشمعة ووقف جانبا طوال الوقت، فيما راحت الام تحاول فتح صندوق كبير كان غطاؤه مثبتا بالمسامير بإحكام. سأل بيتر:

–أين المطرقة؟

قالت الأم:

–لاأدري أين. أخشى أن تكون داخل الصندوق. ولكن عندنا مجرفة الفحم وقضيب تحريك النار.

واستعانت بهما في محاولة فتح الصندوق.

قال بيتر:

–دعيني أحاول.

معتقدا أنه أقدر من أمه على ذلك. فكل واحد يعتقد هذا عندما يرى غيره يشعل نارا أو يفتح صندوقا أو يحل عقدة حبل. وقالت روبرتا:

–ستؤذين يديك ياماما، هات عنك.وقالت فيليس:

–ليت بابا هنا، لكان فتحة في ثانيتين.

لماذا ترفسينني يابوبي؟

فقالت روبرتا:

–لم أرفسك.

في تلك اللحظة بدأ أحد المسامير الطويلة يتزحزح من مكانه محدثا صريرا. ورُفع اللوح الخشبي الاول ثم لوح اخر الى أن رُفعت الالواح الاربعة التي تشكل غطاء الصندوق،فلمعت مساميرها في ضوء الشمعة كأنها أسنان حديدية. هتفت الأم بسرور:

– حمداً لله! وجدنا بعض الشموع– هذا مانريده أولاً! هاكم.. أشعلوها. هناك بعض صحون الشاي وغيرها. قَطِّروا بعض الشمع في المواعين وثبتوا الشموع عليها.

– كم شمعة نشعل؟

فقالت الأم بمرح:

– قدر مايعجبكم. أعظم شيْ أن يفرح الانسان. لاأحد يبتهج بالظلام غير البوم والجرذان.

أخذت البنتان توقدان الشموع، فطار عود ثقاب مشتعل والتصق بإصبع فيليس. ولكن الحرق كان بسيطاً – كما قالت روبرتا – وإلاّ لكانت فيليس أحرقت نفسها وعُدَّت شهيدةً من شهداء الكنيسة لو أنها عاشت في الماضي البعيد، أيام كان حرق الناس مودة من مودات ذلك الزمان.

وبعدما أضيئت غرفة الطعام بأربع عشرة شمعة جاءت روبرتا ببعض الفحم والخشب وأشعلت ناراً.

قالت باعتداد الكبار:

– البرد شديد جدا بالنسبة لشهر أيار.

تغير شكل غرفة الطعام بفضل ضوء الشموع ولهيب النار وصار بإمكان الواحد أن يرى أن الغلاف الخشبي الداكن الذي يغلف الجدران يحمل نقوشا صغيرة بشكل أكاليل ودوائر متناثرة.

أسرعت البنتان الى «ترتيب» الغرفة، وذلك برصف الكراسي الى جانب الجدار وجمع الاشياء الصغيرة ووضعها في احدى الزوايا واخفائها وراء الكرسي الكبير ذي المساند الذي اعتاد أبوهم أن يستريح عليه بعد العشاء.

هتفت الأم، وهي تدخل حاملة صينية ملأى بالحاجيات:

– برافو! شيء يشبه الـ! سأفرش غطاء المائدة ثم...

كان غطاء (شرشف) المائدة في صندوق يفتح بمفتاح لا بمجرفة الفحم. وعندما فرشته على المائدة وضعت عليه وليمة حقيقية.

كان الجميع في غاية التعب، ولكن رؤية العشاء المضحك والبهيج غمرهم بالفرح. كانت هنا قطع من البسكت، المحشي والعادي، وبعض قطع من السردين وقنينة زنجبيل وكشمش وملبس ومربى. قالت الأم:

– حسنا فعلت الخالة إيما عندما وضعت كل مافي خزانة المطبخ في أحد الصناديق فل.لاتضعي ملعقة المربى على السردين.

فقالت فيليس:

– لا، لن أفعل ياأماه.

ووضعت الملعقة قرب البسكت المحشى. قالت روبرتا فجأة:

– لنشرب نخب الخالة العزيزة. ماذا كنا سنفعل لو أنها لم ترزم لنا هذه الأشياء؟ نخب الخالة إيما!

وشربوا النخب من الزنجبيل المخفف بالماء في أكواب الشاي المنقوشة بأشكال نباتية لأنهم لم يعثروا على الاقداح.

وشعروا جميعا بأنهم عاملوا خالتهم بشيءٍ من

الخشونة. صحيح أنها ليست امرأة لطيفة حبيبة الى القلب مثل والدتهم، ولكنها هي التي فكرت بإرسال المواد الغذائية التي استفادوا منها في العشاء.

والخالة إيما هي التي نفضت جميع شراشف وأغطية النوم ونشرتها في الشمس، حتى إذا نصب الحمالون أعمدة الأسِرَّة لم يستغرق إعداد الفراش وقتاً طويلاً. قالت الأم:

– طابت ليلتكم يافراخي. أنا متأكدة من عدم وجود فئران. ولكني سأترك بابي مفتوحة. فاذا جاءكم جرذ فما عليكم سوى أن تصرخوا وعندئذٍ سآتي وأعلمه قيمته.

ثم ذهبت الى غرفتها. وأفاقت روبرتا على صوت الساعة الجدارية تدق الثانية. وكانت دائماً تتخيل صوت الساعة مثل أجراس كنيسة بعيدة. كذلك سمعت صوت خطوات أمها وهي تروح وتجيءُ في غرفتها.

في الصباح التالي أيقظت روبرتا فيليس بأن جذبتها من شعرها برفق ولكن بدرجة تكفي لإيقاظها. سألت فيليس، وهي ماتزال غارقة في النوم:

– قاسرمارر؟

قالت روبرتا:

– إستيقظي! إستيقظي! نحن في البيت الجديد – هل نسيت؟ لاخدم ولاغيرهم. هيا بنا ننهض من الفراش

ونقوم بعمل نافع. لننزل بهدوء ونرتب كل شيْ بصورة جميلة قبل أن تستيقظ ماما. أيقظتُ بيتر وسيلبس ثيابه ويستعد بسرعة مثلنا.

وهكذا لبست البنتان ثيابهما بهدوء وبسرعة. ولم يكن في غرفتهما ماء، بالطبع، ولذلك ذهبتا الى مضخة الماء اليدوية في ساحة البيت واغتسلتا بقدر مايسمح به ماء المضخة. فكانت واحدة تحرك المضخة والاخرى تغتسل بالتناوب. كان الماء يتناثر عليهما ولكن العملية كانت ممتعة. قالت روبرتا:

– هذا أحلى بكثير من المغسلة. أنظري، ماأحلى منظر العشب بين الصخور والطحالب على سطح البيت – آه، والزهور!

كان سقف المطبخ الخلفي شديد الإنحدار، وهو من القش وتكسوه الطحالب والأعشاب والطفيليات الجدارية المزهرة والزهور الجدارية، وحتى بعض السوسن البري الأرجواني في الركن البعيد من السقف.

قالت فيليس:

– هذا أحلى.. أحلى بكثير من فيلا إيدجكومب. كيف هي الحديقة ياترى؟

فقالت روبرتا بحيوية طاغية:

– دعينا من الحديقة الآن. هيا بنا ندخل ونبدأ العمل.



اشعلت الفتاتان نارا ووضعتا عليها غلاية الشاي. وراح الثلاثة يحضرون لوازم الفطور. ولم يعثروا على كل الحاجيات اللازمة، ولكنهم وجدوا منفضة سكاير زجاجية فجعلوا منها مملحة. وعثروا على ساج جديد لعمل الخبز يصلح لأن يكون صينية لوضع الخبز إن وجد.

ولما لم يبق مايفعلونه خرجوا ثانية للاستمتاع بطراوة الصباح الجميل. قال بيتر:

– الآن نذهب الى الحديقة.

ولكنهم لم يعثروا على الحديقة. وداروا حول البيت وداروا ثانية. فوجدوا ساحة خلفية تحيط بها من الخارج اصطبلات وأبنية مهجورة. في حين كانت أركان البيت الثلاثة الأخرى تطل على الحقول مباشرة، دون ان تحيط بها حديقة تفصلها عن أعشاب المروج الناعمة. ومع ذلك فقد رأوا حديقة في الليلة الماضية.

كانت ارضا متموجة، منطقة تلال. وكانت تمتد امامهم في الاسفل سكة قطار تمتد الى مدخل نفق معتم. ولم تكن محطة القطار في نطاق الرؤية. وكان هناك جسر كبير بأقواس مرتفعة يمر فوق الوادي.

قال بيتر:

– دعونا من الحديقة. هيا بنا ننزل لنرى السكة. حتما القطارات تمر من هنا.

فقالت روبرتا بتردد:

– «نستطيع ان نراها من هنا . لنجلس قليلا ». فجلسوا على صخرة رمادية مسطحة كبيرة تتوسط الاعشاب ، هي واحدة من صخور كثيرة تغطي سفح التل . وعندما خرجت الام في الساعة الثامنة تبحث عنهم وجدتهم مستغرقين بالنوم في دفء الشمس .

عندما اشعلوا النار ووضعوا عليها غلاية الشاي كانت الساعة تقارب الخامسة والنصف . والآن ، بعدما بلغت الساعة الثامنة خمدت النار وتبخر كل الماء الذي في الغلاّية واحترق اسفلها بعد تبخر الماء . يضاف الى ذلك انهم نسوا غسل لوازم الفطور قبل وضعها على المائدة . قالت الأم :

– لايهم . . . . أقصد الاكواب والصحون . لأني وجدت غرفة أخرى -- لقد نسيت تماما ان هناك غرفة . غرفة ساحرة ! وغليت الماء في أحد قُدور الطبخ .

كان أحد الابواب في المطبخ يؤدي الى تلك الغرفة المنسية وقد تصوروا أنه باب أحد الدواليب بفعل الظلام والاستعجال في الليلة الماضية . كانت غرفةٌ صغيرة مربعة وعلى مائدة تتوسطها قطعة لحم عجل كبيرة محمرة باردة وخبز وزبد وجبن . . . وفطيرة . صاح بيتر :

– فطيرة للفطور ! ماأروعها !

قالت أُمّه :

– ليست فطيرة بلحم الحمام . مجرد فطيرة بالتفاح . على اية حال ، هذا هو العشاء الذي كنا سنتناوله ليلة امس . وجدت ايضا رسالة صغيرة من السيدة فيني . زوج ابنتها انكسرت ذراعه واضطرت للرجوع الى البيت في وقت مبكر . ستأتي في العاشرة من صباح اليوم .

كان فطورا رائعا . ليس من المألوف ان يفطر المرء بفطيرة تفاح باردة ، ولكن الاطفال قالوا انهم يفضلونها على اللحوم .

وقال بيتر وهو يمد صحنه الى أُمّه طالبا المزيد :

– كأنه بالنسبة لنا عشاء اكثر منه فطور لاننا استيقظنا في وقت مبكر جدا .

انقضى النهار في مساعدة الام على فك الصناديق وترتيب الحاجيات والاشياء . وصارت ست سيقان صغيرة تئن من فرط الجري وأصحابُها يروحون ويجيئون حاملين الملابس والاواني وغيرها من الاشياء الى اماكنها المناسبة . وقرب المساء قالت الأم :

– بوركتم (او بارككم الله) ! هذا يكفي اليوم .

سأنام ساعةً حتى استعيد نشاطي وأنطلق مثل القُبَّرة لأُعدَّ لكم العشاء .

عندئذ تبادل الاطفال النظرات وكانت وجوه الثلاثة المعبرة تنطق بنفس الفكرة . وكانت فكرة مزدوجة

تحمل السؤال والجواب في آن واحد – على طريقة (دليل معارف الاطفال) :

س : الى اين نذهب ؟

جـ : الى سكة القطار .

وهكذا انطلقوا صوب سكة القطار . وما إن بدأوا السير بذلك الاتجاه حتى شاهدوا الحديقة المختفية . كانت وراء الاصطبل مباشرة يحيط بها حائط عالٍ .

صاح بيتر :

– اوه ، دعونا من الحديقة الآن ! ماما دلتني على مكانها ، صباح اليوم . ستبقى في مكانها الى الغد . لنذهب الى سكة القطار .

كان الطريق الى المحطة ينحدر من التلال التي تتخللها بقع مكسوة بأعشاب قصيرة ناعمة وبعض اجمات من البرسيم البري وبعض صخور رمادية وصفراء خارجة من سطح التربة كأنها قطع فاكهة تبرز من فطيرة محمصة .

وانتهى الطريق الى سفح شديد الانحدار ينتهي في اسفله بسياج خشبي . هناك امتدت السكة بقضبانها اللامعة واسلاك البرق وعلامات المسافات واشارات المرور .

تسلق الثلاثة السياج ، وفي تلك اللحظة سمعوا

دمدمةً فالتفتوا الى جهة اليمين من السكة حيث يفتح (يفغر) النفق فمه المعتم وسط واجهة صخرية كبيرة . وفي اللحظة التالية انطلق قطار من داخل النفق وهو يصرخ ويشخر ومرق من امامهم صاخبا . وشعر الاطفال بخفقة مروره وراحت حبات الحصى الصغيرة تتطاير من تحته .

قالت روبرتا وهي تأخذ نفَساً طويلا :

– آه ، كأنه تنّين هائل يهجم . هل شعرتم بأنفاسه الحارة تلفح وجوهَنا ؟

وقالت فيليس :

– اظن ان وكر التنين يشبه ذلك النفق كثيرا من الخارج .

لكن بيتر قال :

– ماكنت اتصور ابدا اننا سنقترب من القطار الى هذا الحد . إنها اشد الرياضات إثارة !

قالت روبرتا :

– احسن من قاطرات اللعب ، أليس كذلك ؟ (لقد تعبت من مناداة روبرتا باسمها . ولا ادري ماالداعي . لااحد غيري يسميها باسمها . الكل يسمونها «بوبي» فلماذا لااسميها انا ايضا بهذا الاسم ؟)

قال بيتر :

– لاادري . هذا يختلف . تبدو مسالة غير معقولة ان يرى الواحد كل القطار . إنه طويل الى درجة مخيفة ، أليس

كذلك ؟

فقالت فيليس :

– كنا دائما نرى القطارات تنقسم الى نصفين في المحطات .

وقالت بوبي :

– ترى هل القطار ذاهب الى لندن ؟ لندن حيث أبي .

قال بيتر :

– فلنذهب الى المحطة ونسأل .

وذهبوا .

ساروا على امتداد السكة من الخارج . وسمعوا همهمة اسلاك البرق فوق رؤوسهم . حين تكون راكبا قطارا تبدو المسافات بين اعمدة البرق قصيرة جدا وتتوالى الاعمدة بأسرع مماتستطيع ان تعدها . ولكن حين تضطر الى المشي تبدو الاعمدة قليلة والمسافات بينها كبيرة .

ولكن الاطفال وصلوا الى المحطة اخيرا .

لم يسبق لاي منهم ان ذهب الى محطة الا ليلحق بقطار – او ربما لانتظار قطار . ودائما بصحبة بالغين – بالغين لا يهتمون بالمحطات الا لكونها اماكن يسافرون منها .

ولم يسبق لهم الاقتراب من مفاصل السكك بما يتيح لهم رؤية اسلاك التحويل او سماع «الطقطقة» الغامضة

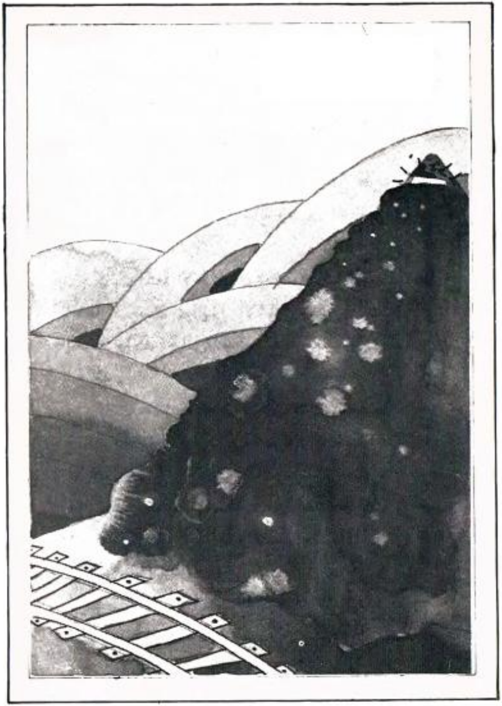
التي تصدر عن ماكنة تحريك المفاصل .

كانت العوارض الخشبية التي تمتد عليها السكة تقدم طريقة ممتعة في المشي – اذ كانت متباعدة بدرجة تجعلها شبيهة بلعبة القفز على صخور التيار التي تنظمها بوبي على عجل .

كما ان الوصول الى المحطة ، لا عن طريق شباك التذاكر ، بل بالتسلل من نهاية رصيف المحطة ، هو متعة بحد ذاته .

كانت المتعة الاخرى ان يختلسوا نظرة الى غرفة حمالي المحطة ، حيث فوانيس الاشارة ودليل السكك على الحائط واحد الحمالين نصف نائم ، مغطيا وجهه بأحدى الجرائد .

كانت هناك تقاطعات سكك كثيرة ، بعضها يمتد الى مسافة قصيرة امام الرصيف ويتوقف كأنه سئم عمله وقرر الاعتزال نهائيا . وكانت هناك عربات حمولة مقطورة على بعض خطوط السكة ، وفي احد الجوانب تل كبير من الفحم . ولم تكن قطع الفحم سائبة كما هي في اقبية المنازل ، بل تبدو – وهي مكومة في هرم كبير متماسك تحيط بقاعدته كتل الفحم الكبيرة التي تشبه قطع الآجر – مثل صورة (مدن السهل) في«اقاصيص التوراة للصغار» . وكان ثمة خط من طلاء ابيض قريب من اعلى الهرم



الفحمي .

وعندما هب الحمال من اغفاءته على صوت رنين حاد انبعث من جرس باب المحطة مرتين وغادر غرفته متثاقلا ، حياه بيتر بطريقة مؤدبة للغاية : «كيف حالكم ؟» وبادر يسأله عن الغاية من الخط الابيض فوق تل الفحم .

قال الحمال :

– لتأشير كمية الفحم الموجودة ، وبذلك نعرف ان كان هناك من يسرق . ولذا لاتذهب وفي جيوبك بعض منه ، ايها السيد الصغير ! بدا ذلك القول ، في حينه ، دعابة مرحة وشعر بيتر في الحال بأن الحمال انسان ودود لايخالطه السخف ابدا . ولكنه حين استعاد كلمات الرجل فيما بعد وجد لها معنى آخر .

هل سبق لك ان دخلت مطبخ بيت ريفي في يوم خبز (او خبازة) ورأيت وعاء العجين الكبير موضوعا بجانب النار لينضج ؟ ان كنت فعلت ، وكنت آنذاك طفلا يتشوق لمعرفة كل شيء (يهتم بكل مايراه) لتذكرت كيف وجدت نفسك عاجزا تماما عن مقاومة الاغراء بأن تدس اصبعك في سطح العجينة الناعمة الآخذة بالانتفاخ كأنها نبتة فطر عملاقة . ولتذكرت كيف حفر اصبعك ثقبا في سطح العجينة وكيف اختفى الثقب ببطء واستعاد سطح العجينة شكله السابق تماما ، وكأنك لم تلمسه من قبل .

هذا اذا لم تكن اصابعك وسخة للغاية فتترك ، بالطبع ، بقعة سوداء صغيرة على سطح العجينة .

ذلك يشبه حالة الحزن الذي شعر به الاطفال لرحيل والدهم ولما تشعر به امهم من تعاسة . لقد تركت هذه المسألة اثرا عميقا في نفوسهم ، لكنه لم يستمر طويلا .

فسرعان ماتعودوا على غياب الوالد ، ولو انهم لم ينسوه . وتعودوا على عدم الذهاب الى المدرسة وعدم رؤية امهم الا قليلا ، بعد ما صارت تلزم غرفتها طوال اليوم تقريبا لتكتب وتكتب وتكتب . وكانت تنزل في فترة تناول الشاي وتقرأ لاولادها ماكتبته من قصص بصوت عال . وكانت قصصا جميلة .

كانت الصخور والتلال والوديان والاشجار والقناة واهم من هذه كلها محطة القطار ، جديدة عليهم وممتعة تماما الى حد ان ذكرى الحياة السابقة في الفيلا بدأت تلوح كالحلم .

اخبرتهم امهم اكثر من مرة بانهم اصبحوا «فقراء تماما الآن» ، ولكن هذا لم يكن يبدو اكثر من كلام . فالظاهر ان البالغين ، بما في ذلك امهم ، يُبدون في الغالب ملاحظات يبدو انها لاتعني شيئا معينا سوى مجرد الحديث . فالطعام موجود والثياب التي يلبسون جميلة كعهدهم بها دائما .

ولكن حلت في شهر حزيران ثلاثة ايام رطبة هطل فيها المطر غزيرا وقاسيا مثل النبال وكان البرد شديدا ولاذعا فلم يستطع احد مغادرة البيت وكانوا يرتجفون من شدة البرد . وصعدوا الى غرفة امهم وقرعوا الباب فسألتهم من الداخل :

– مابكم ؟

قالت بوبي :

– ماما ، هل يمكن ان نوقد نارا ؟ انا اعرف كيف .

فقالت الأم :

– لا ، يابطتي الحبيبة . لايصح ان نشعل نارا في حزيران

الفحم قليل جدا . اذا كنتم تشعرون بالبرد فاذهبوا والعبوا في الغرفة العلوية . ستحسون بالدفء .

– ولكننا لن نأخذ سوى القليل من الفحم ، ياماما .

فقالت الأم بمرح :

–حتى القليل يصعب علينا ، يافرختي المحبوبة. والآن اذهبوا. الى هناك ياأعزائي – أنا مشغولة بجنون!

قالت فيليس لبيتر بهمس:

–ماما مشغولة الآن باستمرار.

لم يجب بيتر، بل هز كتفيه. كان مستغرقا في التفكير. لكن الاستغراق لم يدم طويلا. وانطلقوا الى الغرفة العلوية

ليجعلوا منها وكرا لقطاع الطرق ويبدأوا اللعب. أخذ بيتر دور قاطع الطريق بالطبع. فيما صارت بوبي مساعده وأفراد العصابة، وفي الوقت نفسه والدة فيليس، التي أصبحت فتاة ثرية تقع بيد العصابة التي تطلب فدية كبيرة – من حبات الفاصوليا – فتدفعها الأم بلا تردد.

وعندما نزلوا لشرب الشاي كانت وجوههم طافحة بالحيوية والبهجة مثل أي قاطع طريق جبلي. ولكن عندما أرادت فيليس أن تضيف المربى الى الخبز والزبد قالت لها أمها:

–مربى أو زبد ياعزيزتي، لامربى وزبد. لاطاقة لنا على مثل هذا الترف الطائش في الوقت الحاضر.

فأكلت فيليس قطعة الخبز والزبد بصمت، وأعقبتها بقطعة خبز مع المربى. في حين مزج بيتر التفكير مع الشاي المخفّف

عاد الثلاثة، بعد تناول الشاي، الى الغرفة العلوية، وقال بيتر لأختيه:

–عندي فكرة.

فسألتاه بأدب:

–ماهي؟

فكان رد بيتر غير المتوقع:

–لن أخبركما.

فقالت بوبي:

–اوه، حسن جدا.

وقالت فيليس:

–لاتخبرنا، اذن.

قال بيتر:

–البنات عجولات دائما.

فقالت بوبي بازدراء رقيق:

–وماهي حال الأولاد! لاأريد أن أعرف شيئا عن ارائك السخيفة.

فقال بيتر محافظا على هدوء أعصابه بمايشبه المعجزة:

–ستعرفين يوما ما. لو لم تكوني ميالة للشجار لكنت بيّنت لك أن مشاعري النبيلة هي التي منعتني من اعلان آرائي. ولكني لن أخبرك الآن بأي شيئ – اليك عني!

ولم تستطع أختاه استدراجه الى الكلام الا بعد فترة. وعندما تكلم لم يقل الا القليل. قال:

–السبب الوحيد الذي يجعلني لاأخبركما بما سأفعله، هو أنه قد يكون مغلوطا، وأنا لاأريد أن أجركما معي الى الخطأ.

فقالت بوبي:

–لاتفعله ان كان مغلوطا، يابيتر. دعني أفعله أنا.

لكن فيليس قالت:

–أنا أحب إرتكاب الاخطاء اذا كنتم تنوون ذلك.
فقال بيتر، متأثرا بهذا الوفاء:
–لا. المهمة صعبة... وأنا سأقوم بها. كل ماأرجوه منكما أن لاتفشيا السر، اذا سألت ماما عني.
قالت بوبي بسخط:
–ليس لدينا مانفشيه.
فقال بيتر وهو يسقط حبات الفاصوليا من بين أصابعه:
– اوه، نعم، لديكم. لقد وثقت بكما الى حد الموت. أنتما تعرفان أني مُقدِم على مغامرة بمفردي – وقد يعتقد البعض أن هذا خطأ – أنا لاأعتقد. وإذا سألت ماما عني فقولا إني ذهبت ألعب عند المناجم.
–أي نوع من المناجم؟
–قولا مناجم وحسب.
–عليك أن تخبرنا يابيت.
–حسنا اذن. مناجم الفحم. ولكن لاتبوحا بالسر حتى تحت وطأة التعذيب.
فقالت بوبي:
–لاحاجة الى التهديد. ثم أنا أظن أنك ستسمح لنا بمساعدتك.
فتفضل بيتر وأعطى وعدا:
–اذا عثرت على منجم فحم جعلتكما تساعدان في

نقل الفحم بالعربة.
قالت فيليس:
– احتفظ بسرك لنفسك ان اردت
وقالت بوبي:
– احتفظ به ان كنت تقدر.
فقال بيتر:
– أحتفظُ به بالقدر اللازم.
إنَّ بين وقت تناول الشاي والعشاء فترة فراغ حتى عند اشد الأُسر تمسكا بالنظام. في مثل هذه الفترة تنصرف الام الى الكتابة عادة وتذهب السيدة فيني الى بيتها.
بعد ليلتين من انبثاق الفكرة في ذهن بيتر قال لاختيه بطريقة غامضة عند الغسق:
– اجلبا العربة الرومانية وتعالا معي.
وما كانت العربة الرومانية سوى عربة اطفال قديمة بالية مرمية في غرفة مخزن فوق المرآب. وقد قام الاطفال بتزييتها حتى صارت تسير بلا صوت مثل دراجة هوائية وتستجيب للقيادة بسهولة كما كانت تفعلُ وهي جديدة في الماضي.
قال بيتر، وهو يتقدم هابطا من التلال صوب المحطة:



– إتبعوا قائدكم الجسور .

وكانت تطل على المحطة سفوح مغطاة بصخور كثيرة بارزة رؤوسها من بين الاعشاب القصيرة الناعمة ، كأنها هي الاخرى مهتمة بالمحطة اهتمام الاطفال بها .

وفي حفرة صغيرة بين الصخور وجد بيتر كوما من العيدان والجذور الجافة وفضلات الجلود المدبوغة فتوقف وقلب العيدان بحذائه البالي وقال :

– هذه اول شحنة فحم من منجم القديس بيتر(*) . سنحملها بالعربة الى البيت . دقة في المواعيد وامانة في الايصال . مستعدون لتلبية كل الطلبات بعناية . مستعدون للتقطيع بحسب رغبة الزبائن (او الاحجام التي ترضي الزبائن كافة) .

ملأوا العربة بالفحم ثم عادوا وافرغوها عندما وجدوها ثقيلة جدا وعجز الثلاثة عن ايصالها الى اعلى التل حتى بعدما جعل بيتر من حمالة السروال (البنطلون) لجاما ومن الحزام حبلا راح يجر به العربة في حين راحت اختاه تدفعانها من الوراء .

وتم نقل فحم منجم بيتر بثلاث شحنات ليصل اخيرا الى قبو البيت حيث يُخزن الفحم .

(*) بيتر – بالانكليزية – تعني «بطرس» . وهنا تلعب التسمية دورا مزدوجا بروحية مرحة . (المترجم)

بعدها خرج بيتر بمفرده وعاد الى البيت يغطيه السُخّام بصورة غريبة . قال :

– كنت في المنجم . سأجلب الماسات السوداء الى البيت مساء غدٍ .

مضى اسبوع قبل ان تبدي السيدة فيني سرورها امام الام لبقاء مخزون الفحم القليل كل تلك المدة .

فتعانق الاطفال جذلين وضحكوا ضحكات مكتومة وهم جلوس على السلم يصغون لكلام السيدة فيني . فقد نسوا في تلك اللحظة مافي نفس بيتر من شعور بالذنب .

ثم جاءت الليلة الرهيبة ، حين انتعل ناظر المحطة حذاءه المطاطي الخفيف العتيق ، الذي اعتاد ان ينتعله على شاطئ البحر في الصيف ، وتسلل بهدوء شديد الى ساحة المحطة حيث تكوم فحم «سدوم و عموره» يحيط بأعلاه خط الاشارة الابيض . زحف الى هناك وكمن مثل قط يكمن لفأر . رأى فوق تل الفحم شيئا صغيرا داكنا يخربش ويحدث خشخشة سريعة محمومة .

فاختبأ ناظر المحطة في جانب مظلم من عربة فرامل ذات مدخنة صغيرة من الصفيح ، مكتوب عليها (شركة سكك الشمال والجنوب الكبرى – رقم ٣٤٥٧٦ – تعود حالا الى وايت هيزر) ولبث في مكنه الى ان كف الشئ الصغير عن الخربشة واحداث الخشخشة ومن ثم انزلق

على جانب تل الفحم الى الاسفل بحذر شديد ، لينهض حاملا كيسا على ظهره . وفجأة ارتفعت ذراع الناظر ونزلت لتمسك بياقة سترة ، واذا به يمسك بسترة بيتر الذي كان في تلك اللحظة حاملا كيسا مملوءً بالفحم .

قال ناظر المحطة :

– اخيرا امسكت بك . اليس كذلك ايها اللص الصغير؟

فقال بيتر باقصى مالديه من رباطة الجأش :

– لست لصا . انا فحام (او صاحب منجم فحم) .

فقال الناظر ساخرا :

– واضح ! قل هذا للمسؤولين .

فرد عليه بيتر :

– لن اكون مع غيرك اصدق مني معك .

فقال الرجل وهو ممسك به بقوة :

– نعم ، انت صادق . كفى لغوا ، ايها الفاسق الصغير ، وتعال معي الى المحطة .

«فصرخ صوت مرعوب من قلب الظلمة ، لم يكن صوت بيتر :

– آه ، لا .

وجاء صوت آخر من قلب الظلام :

– لا الى محطة (مركز) الشرطة .

قال الناظر :

– ليس بعد . محطة القطار اولا . لماذا الخوف ؟ انتم عصابة . اين البقية ؟

فخرجت بولي ومعها فيليس من وراء عربة حمولة من نوع (ستيفلي كوليري) ، مكتوب عليها بالطباشير الابيض (للعمل على الطريق رقم – ١ –) ،

وقالت : – لااحد غيرنا .

وقال بيتر غاضبا :

– مامعنى تجسسك هذا على الاخرين ؟

فقال الناظر :

– اعتقد ان الوقت قد حان لمراقبتكم .

هيا معي الى المحطة .

فهتفت بولي :

– لا ، ارجوك ! الايمكنك ان تقرر ، الآن ، ماتريد ان تفعله بشأننا ؟ نحن مشتركتان مع بيتر بالخطأ . لقد ساعدناه على نقل الفحم – وكنا نعرف من اين يأتي به .

فقال بيتر :

– كلا ، أنتما لاتعرفان.

– فقالت بولي :

– بل نعرف . كنا نعرف من البداية ، تظاهرنا فقط بأننا لاندري ، من باب المسايرة .

بلغ استياء بيتر اقصاه . فهو الذي نقب عن الفحم

وهو الذي عثر عليه واستخرجه ، وهو الذي امسكوه متلبسا ، وهاهو يكتشف ان شقيقتيه كانتا تعرفان وتتظاهران بالجهل . وهتف :

– لاتمسك بي هكذا . لن اهرب .

فأرخى ناظر المحطة يده عن ياقة بيتر واشعل عود ثقاب وتفحص الثلاثة على ضوئه . قال :

– لماذا ؟ انتم اولاد ذلك البيت البعيد ذي المدخنات الثلاث . ارى ملابسكم انيقة ايضا . اخبروني الآن ماالذي جعلكم تفعلون كهذا ؟ الم تذهبوا الى كنيسة من قبل او تتعلموا من الدين او من احد أنَّ السرقة عمل شرير ؟

كان الرجل يتحدث بلهجة اكثر طيبة من ذي قبل ، فقال بيتر :

– ماظننت انها سرقة . كنتُ أؤمن بأنها ليست سرقة . اعتقدت بأنها ستكون سرقة لو اني اخذت الفحم من سطح الكوم ، ولكني كنت احفر واستخرج الفحم من باطنه واعتبرت ذلك مجرد تنقيب عن الفحم . الواحد يحتاج الى الاف السنين ليشعل كل هذا الفحم ويصل الى باطن التل .

– ليس تماما . ولكن هل فعلت هذا لغرض المزاح ام لسبب آخر؟

فقال بيتر بامتعاض :
– لااجد مزاحا في حمل كل هذا الكيس الثقيل والصعود به نحو التلال .
فازداد صوت ناظر المحطة لطفا وهو يسأل :
– اذن ، لماذا فعلت ذلك ؟
فاجاب بيتر :
–أتذكر ذلك اليوم الممطر ؟ حسنا . امي قالت إننا فقراء جدا لانستطيع ان نوقد نارا . كنا دائما نشعل في بيتنا السابق ، ايام البرد و . . .
فقاطعته بوبي هامسة :
– لاتقل هذا !
لبث ناظر المحطة يعبث بلحيته مفكرا ثم قال :
– حسنا . ساقول لك مايجب ان تفعله . سأسامحك هذه المرة . ولكن تذكر ، ايها السيد الصغير ، ان السرقة سرقة وما هو ملكي ليس ملكك ، سواء سميته تنقيبا عن الفحم او غير ذلك . والآن هيا انطلقوا الى البيت .
سأله بيتر :
– تعني انك لن تعاقبنا ؟
واردف بحماس :
– انت انسان لطيف .
وقالت بوبي :

– انت جدير بالاعزاز .
وقالت فيليس :
– انت حبيب .
فقال الناظر :
– هذا حسن .
ثم افترقوا . ولما مضى الثلاثة يرتقون سفح التل قال بيتر :
– لاتحكيا معي . انتما جاسوستان وخائنتان – هكذا انتما .
ولكن الفتاتين كانتا سعيدتين بوجود بيتر معهما ، حرّا سالما ، وبعودتهم جميعا الى البيت ذي المدخنات الثلاث لا الذهاب الى مركز الشرطة ، فلم تهتما بما قال . قالت بوبي برقة :
– كل ماقلناه اننا مشتركتان معك .
– طيب – انما هذا غير صحيح .
فقالت فيليس :
– كنا سننال العقوبة نفسها لو انهم قدمونا للمحكمة . كفي عصبية يابيتر . ليس ذنبنا ان تكون اسرارك سهلة الاكتشاف. وتأبطت ذراعه فلم يمانع . قال :
– على اية حال . لدينا الآن كمية كبيرة من الفحم في القبو ، فقالت بوبي :
– آه ، لاتقل هذا ! لااعتقد ان هذا يدعو للفرح .

فاستعاد بيتر معنوياته فقال :

– لادري . انا لم اتأكد حتى الآن بأن البحث عن منجم فحم جريمة !

لكن الفتاتين كانتا متأكدتين من ذلك . وتعلمان علم اليقين بأنه متأكد هو الآخر ، على قلة اهتمامه بعائدية ذلك الفحم .

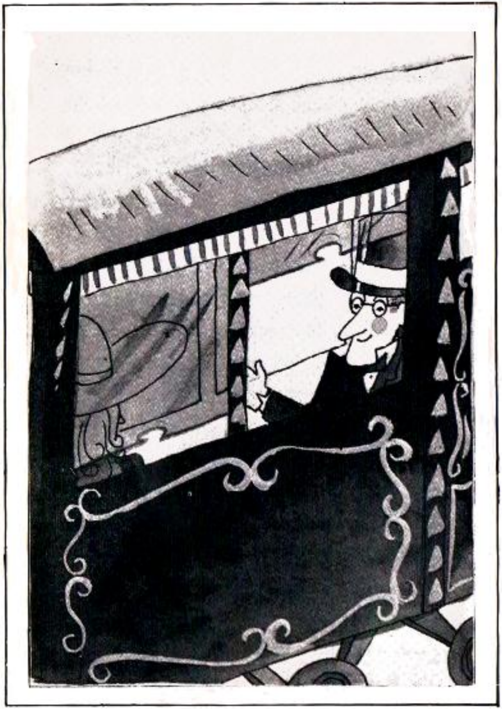
(*) محطة القطار ومحطة (مركز) الشرطة تقابلان بالانكليزية كلمة (STATION) . الا اننا درجنا على تسمية محطة الشرطة مركزا . وقد ابقيتها كما هي تجنبا للارتباك .

(المترجم)

الفصل الثالث

السيد العجوز

كان من الافضل للاطفال أن يبتعدوا عن المحطة بعد مغامرة بيتر مع منجم الفحم – بيد أنهم لم يبتعدوا، وكيف يطيقون الابتعاد عن سكة القطار. وقد عاشوا حياتهم في شارع لايرون فيه سوى عربات الاجرة وحافلات نقل الركاب تقرع أرض الشارع رائحة غادية طوال اليوم، وعربات الجزارين (القصابين) والخبازين وباعة الشموع التي قد تظهر في أية لحظة (أنا لم أر في حياتي عربة بائع شموع. هل رأيتم أنتم؟). أما هنا وسط صمت الريف الغافي، فلا شيءُ يكسر ذلك الصمت سوى مرور القطارات. ويبدو أنها كل مابقي من صلات تربط الاطفال بحياتهم الماضية التي كانت حياة مليئة بحقّ. وأخذت اثار أقدامهم الستّ، في اثناء سيرهم اليومي، ترسم طريقا على العشب القصير الندي الذي يكسو سفح التل المنحدر من بيت المدخنات الثلاث صوب سكة



القطار. وصاروا يعرفون مواعيد مرور قطارات معينة اطلقوا عليها أسماء. فقطار الساعة التاسعة والربع الصاعد يدعى (التنيّن الاخضر) وقطار العاشرة وسبع دقائق النازل هو (دودة وونتلي)، فيما اطلقوا اسم (الطائر الليلي) المخيف على قطار ركاب منتصف الليل السريع الذي كان صفيره الحاد يوقظهم أحيانا من أحلامهم.

أما كيف جاءت هذه التسمية، ففي إحدى المرات هب بيتر من نومه مذعورا على صوت الصفير. ولمح القطار من فتحة الستائر ينطلق هادرا، فأوحى اليه المنظر هذا الاسم.

كان السيد العجوز يسافر بقطار (التنين الاخضر). كان سيدا كبير السن جميل الطلعة تبدو علية علائم طيبة الخلق. وكان طري البشرة حليق الوجه ذا شعر أشيب، يرتدي قصانا بياقات غير اعتيادية ويضع على رأسه قبعة عالية تختلف عن قبعات الناس الاخرين. لم ير الاطفال كل هذه الاشياء في بداية الأمر بالطبع. ولكن الشئ الذي جذب اهتمام الاطفال، أول الامر هو يد السيد العجوز.

كانوا جالسين على السياج، صباح يوم، ينتظرون «التنين الاخضر» فقد تاخر عن موعده ثلاث دقائق وربع الدقيقة حسب توقيت ساعة «ووتربري» التي تلقاها بيتر هدية في عيد ميلاده الماضي. قالت فيليس:

—التنين الاخضر ذاهب الى مكان ابي. اذا كان تنينا حقيقيا فيمكننا أن نوقفه ونطلب منه أن ينقل حبنا الى بابا.

فقال بيتر:

—التنانين لاتنقل عواطف الناس. هي فوق هذا المستوى.

فردت عليه فيليس:

—نعم، تفعل عندما تدرّبها على ذلك أولا. تأخذ رسائلك وتحملها مثل كلب مدرّب مطيع وتتناول طعامها من يدك. ترى لماذا لم يكتب لنا بابا أبدا؟

وقالت بوبي:

—تقول ماما انه مشغول جدا. لكن تقول انه سيكتب لنا قريبا.

فاقترحت فيليس:

—مارأيكم في أن نلوح كلنا للتنين الاخضر عند مروره؟ فان كان تنينا سحريا فسوف يفهم ويحمل حبنا الى بابا. وان لم يكن فليست التلويحات الثلاث بالشيء الكثير. لن تكون خسارة.

وهكذا عندما اندفع التنين الاخضر من فتحة مخبئه المعتم بصراخه الهادر وقف الاطفال الثلاثة عند السياج وراحوا يلوّحون بمناديلهم من دون توقف لمعرفة ماذا

كانت المناديل نظيفة أم لا. والحق أنها كانت أبعد ماتكون عن النظافة!

فامتدت يد من عربة الدرجة الاولى تردّ لهم التحية. يد نظيفة للغاية تمسك بصحيفة. وكانت تلك يد السيد العجوز.

بعد هذا صار تبادل التحية بالتلويح بين الاطفال وقطار التاسعة والربع عادة. وكان يحلو للاطفال، وخاصة البنتين، الاعتقاد بان السيد العجوز ربما يعرف أباهم وقد يلاقيه و«يعقد معه صفقة» في مكانه المجهول ويخبره كيف يقف أطفاله الثلاثة في مكان بعيد من الريف الاخضر يلوّحون للقطار ويبعثون معه بحبهم الى والدهم كل صباح، صحواً كان الجو أو ممطراً.

لقد أصبحوا الان قادرين على الخروج مهما كانت طبيعة الجو، وهذا مالم يُسمح لهم به قط من قبل في بيتهم القديم. كان ذلك من تدبير الخالة ايما. وصار الاطفال يشعرون بالاسف اكثر فاكثر لانهم لم يعاملوها بلطف وضحكوا على أغطية الاحذية المطاطية والمعاطف المطرية المفيدة التي اشترتها لهم قبل انتقالهم الى البيت الريفي.

كانت الأم مشغولة بالكتابة طوال الوقت.

وكانت تبعث بالعديد من الاغلفة الكبيرة الزرقاء التي تحوي قصصا — وتتلقى أغلفة كبيرة من مختلف القياسات

والالوان. وكانت تفتح بعض تلك الاغلفة وترى مابداخلها فتتنهد وتقول بأسى:

–قصة أخرى تعود لتنام على الرف. آه، ياالهي! آه، ياالهي!

وعندها يشعر الاطفال بحزن شديد. ولكنها كانت، في بعض الاحيان، ترفع مظروفا وتلوح به وتهتف بنشوة المنتصر:

–مرحى.....مرحى. هذا محرر لبيب. لقد وافق على قصتي وهاهو البرهان(*) وقد تصور الاطفال أن «البرهان» يعني رسالة من المحرر العاقل، ولكنهم عرفوا فيما بعد أنه قصاصات ورق طويلة مطبوعة عليها القصة. صارت عبارة «محرر لبيب» تعني للاطفال كعكا محلى مع الشاي.

في أحد الايام ذهب بيتر الى القرية لشراء بعض الكعك المحلى للاحتفال بحسن ذوق محرر مجلة (عالم الاطفال)، فالتقى بناظر المحطة.

شعر بيتر بارتباك شديد، وهو يتذكر حادثة منجم الفحم. ولم يرد أن يحيي الناظر – كما تفعل عادة حين

(*) كلمة (PROOF) الانكليزية الواردة هنا تعني البرهان والمسودات التي تأتي من المطبعة لغرض التدقيق والتصحيح قبل الطبع النهائي وتسمى في الوسط الطباعي باسمها الانكليزي، أي (بروف PROOF). -المترجم-

تلاقي في الطريق شخصا تعرفه – إذ شعر بالخجل واحمرت اذناه وخاف ان هو حيا الناظر أن لايرد الرجل بالتحية على الشخص الذي سرق الفحم. كانت كلمة «سرق» مهينة، ولكن بيتر شعر بانها صحيحة. فطأطأ رأسه ولم يقل شيئا.

الا أن ناظر المحطة بادره بالتحية قائلا:

«صباح الخير» فرد بيتر: «صباح الخير». ثم فكر مع نفسه: «ربما لايعرفني في النهار، والا ماكان عاملني بهذه الطريقة المؤدبة».

ولم يرتح لهذا الشعور. وقبل أن يدري مايفعل ركض وراء الناظر، الذي توقف حين سمع وقع أقدام بيتر السريعة تقترب منه. قال بيتر، لما وصل لاهثا محمر الأذنين:

–لاأريدك أن تعاملني بأدب ان كنت لاتعرفني عندما تراني.

فقال الناظر:

–ها؟ مضى بيتر يقول:

–فكرت بانك ربما لم تعرف، عندما ألقيت عليّ تحية الصباح، بأني الشخص الذي أخذ الفحم. انا ذلك الشخص، وانا آسف لذلك.

فقال الناظر:

- لماذا؟ ماكنت أفكر بموضوع الفحم الثمين أبدا. دعك مما فات. قل لي الى أين كنت ذاهبا بهذه السرعة؟

أجاب بيتر:

-ذاهب لأشتري كعكا محلى لفترة الشاي.

فقال الناظر:

-ظننت أنكم فقراء جدا.

فقال بيتر مؤكدا:

-نحن فقراء حقا. ولكن ماما تعطينا ماقيمته ثلاثة بنسات من أنصاف البنسات لشراء الكعك كلما باعت قصة أو قصيدة.

قال الناظر:

-أوه، اذن فأمكم تكتب قصص..ها؟

قال بيتر:

-أحلى قصص.

-لاشك أنك فخور بمثل هذه الام البارعة.

قال بيتر:

-نعم. لكنها كانت تلاعبنا كثيرا قبل انشغالها بهذه البراعة.

قال الناظر:

-لابد أن اذهب الآن. تعال الى المحطة كلما كنت بحاجة الى ذلك..وكذلك الى الفحم. ولك وعد مني -

طيب - ، لا ، لن نتحدث في هذا الموضوع ها؟

فقال بيتر:

-أشكرك. أنا سعيد جدا لانتهاء مابيننا من خلاف.

انطلق يعبر القنطرة المؤدية الى القرية ليشتري الكعك. وشعر براحة بال لم يشعر بها منذ أمسك ناظر المحطة بياقة سترته ليلة أخذ الفحم.

في اليوم التالي، بعدما لوح الثلاثة بالتحية للتنين الاخضر وردّ السيد العجوز لهم التحية كالمعتاد، توجه بيتر صوب المحطة بوقار تصحبه شقيقتاه. تساءلت بوبي:

-ولكن ماالداعي؟

فقالت فيليس موضحة:

-تقصد..بعد مسألة الفحم؟

فقال بيتر بلهجة خشنة، متظاهرا بأنه لم يسمع ماقالته فيليس:

-قابلت ناظر المحطة، أمس. دعانا بالحاح الى الذهاب للمحطة متى نشاء.

كررت فيليس الملاحظة:

-بعد قضية الفحم؟ لحظة.. رباط حذائي انحل ثانية.

فقال بيتر:

-دائما ينحل. ناظر المحطة تصرف بطريقة سيد

مهذب لاتقدرين عليها ابدا يافيل- طريقة الرد على الاساءة بالاحسان هذه. شدت فيليس رباط حذائها وسارت بصمت. كانت كتفاها ترتجفان. وفجأة انحدرت دمعة كبيرة بجانب انفها وسقطت على حديد السكة.

رأت بوبي ذلك فتوقفت وطوقت كتفي فيليس بذراعيها وقالت:

-لماذا؟مابك ياعزيزتي؟

فأجابت فيليس باكية:

-قال أنا لاأشبه السيد المهذب. أنا ما قلت إنه لايشبه السيدة الراقية، حتى عندما شد دميتي الحبيبة (كلورندا) الى خشب التدفئة وأحرقها مثل الشهداء.

والحق أن بيتر اقترف هذا العمل المنكر فعلا قبل سنة أو سنتين. قالت بوبي بلاتحيز:

-طيب. أنت بدأت بمسألة الفحم وكل هذا الكلام، تدرين. أليس الافضل أن تكفّا عن الكلام وتتجنبا المشاحنات. فقالت فيليس وهي تنشج:

-أنا أكف اذا كف بيتر.

فقال بيتر:

-حسنا. ونعدُّ الموضوع منتهيا. هاك، استعملي منديلي يافيل بربك... اذا كنت ضيعت منديلك. عجبا، ماذا تفعلين بالمناديل!

وصلوا الى المحطة وقضوا ساعتين من المرح مع الحمال. كان رجلا طيبا واسع الصدر فلم يتعب من الاجابة على الاسئلة التي تبدأ ب«لماذا» والتي يضجر منها وجهاء الناس في أغلب الأحيان.

فاخبرهم باشياء كثيرة لم يعرفوها من قبل – منها أن الخطاطيف التي تربط بين العربات تدعى مفاصل وأن الانابيب الممتدة فوق المفاصل مثل أفاعي طويلة في داخلها سلسلة تستخدم لايقاف القطار. وقال:

-اذا استطعتم الامساك بالسلسلة وجذبها بقوة فانها تتسمّر في مكانها وتتوقف عن الحركة في الحال.

سألت فيليس:

-من هي ؟(*)

فقال الحمال:

-القطار بالطبع.

بعد هذا لم القطار «هو» لغير العاقل بالنسبة للاطفال.

-ثم أنتم تعرفون

معنى عبارة «غرامة خمسة باونات عن سوء الاستعمال» المكتوبة في العربات. يعني أنكم اذا أسأتم استعمال تلك السلسلة يتوقف القطار.

سألته روبرتا:

(*) يستعمل الحمال ضمير «هي SHE» للعاقل.

-واذا استعملتها بصورة صحيحة؟

أجاب:

-يتوقف القطار أيضا بالطريقة نفسها على ماأظن. ولكن لايعدُّ الاستعمال صحيحا الا عندما تتعرضين للقتل. في احدى المرات كانت هناك سيدة عجوز ، أراد أحدهم أن يضحك عليها فأوهمها بان تلك السلسلة ترتبط بجرس عربة المطعم فانخدعت وجذبتها، من دون أن تكون حياتها معرضة للخطر، بل مجرد جائعة. ولما توقف القطار. وجاء الحارس وهو يتوقع أن يجد شخصا يلفظ أنفاسه الاخيرة.

فتقول له: « اه، من فضلك ياسيد. اريد قدحا من البيرة القوية وقطعة من الكعك المحلي»... تقول. وتأخر القطار سبع دقائق عن موعد وصوله.

-ماذا قال الحارس للسيدة العجوز؟

فأجاب الحمال:

-لاأدري. ولكن أراهن أنها لم تنس ذلك الدرس بسرعة، مهما كان.

مضى الوقت بسرعة في مثل هذه الاحاديث الشيقة. وخرج ناظر المحطة مرة أو مرتين من صومعته الداخلية المقدسة الكائنة وراء شباك بيع التذاكر ليتسامر مع الاطفال ويلاطفهم بكل مودة. همست فيليس باذن

شقيقتها:

-كانه لم يكتشف مسألة الفحم.

وأعطى الناظر كلا منهم برتقالة ووعدهم باصطحابهم الى كابينة تنظيم الاشارات متى ماوجد متسعا من الوقت في المستقبل القريب.

مرت عدة قطارات ولاحظ بيتر للمرة الأولى أن القاطرات تحمل أرقاما مثل عربات الاجرة. قال الحمال:

-نعم. أنا أعرف سيدا شابا كان يسجل رقم كل قاطرة يراها في دفتر ملاحظات أخضر محاط باطار فضي، الفضل يعود الى والده تاجر القرطاسية الثري.

شعر بيتر بأنه يستطيع، هو الاخر، تسجيل أرقام القاطرات من دون حاجة لان يكون ابن تاجر قرطاسية ثري. ولما كان لايملك دفتر ملاحظات مغلّفاً بجلد أخضر ومزينا بزوايا فضية، فقد أعطاه الحمال مظروفا من ورق أسمر فدون عليه الرقمين

379

663

معتبرا ذلك بداية مجموعة رائعة من الارقام. في تلك الليلة سأل والدته، في اثناء تناول الشاي، إن كانت تملك دفتر ملاحظات مغلف بجلد أخضر وموشى بالفضة فأجابت بالنفي. ولكن حين فهمت منه مايريد اعطته دفترا

أسود صغيرا. وقالت:

—أخذت منه بعض الاوراق، لكنه مازال يضم أوراقا تكفي لتسجيل الكثير من الارقام. وعندما يمتلئ أعطيك دفترا آخر. أنا فرحانة جدا لانك تحب السكك. انما أرجوكم الا تمشوا على خط السكة نفسه.

فتبادل بيتر واختيه نظرات يأس وبدا عليه الاسى قبل أن يسأل أمّه:

—حتى لو كنا نسير باتجاه القطار نفسه؟

فقالت الام:

—لا، حتى ولا هذا.

عندئذ سألتها فيليس:

—ماما، الم تمشي أنت على سكة القطار أبدا عندما كنت صغيرة؟

ولما كانت أمهم امرأة نزيهة وشريفة فقد أجابت بالايجاب فقالت فيليس:

—طيب، اذن!

—ولكنكم، ياأحبائي، لاتعرفون كم أنا متعلقة بكم. ماذا أفعل لو أصابكم أذى؟

فسألتها فيليس:

—هل أنت اكثر تعلقا بنا مما كانت جدتي متعلقة بك؟

وأشارت اليها بوبي بأن تسكت، لكن فيليس لاترى

الاشارات مهما تكن واضحة.

لم تجب الام على السؤال رأسا، بل نهضت لتضيف ماء الى ابريق الشاي. ثم قالت أخيرا:

—ماأحبّ انسان أحدا اخر مثلما أحبتني أمي. ثم لاذت بالصمت. فرفست بوبي فيليس بقوة من تحت المائدة. وذلك لأنها أدركت الى حد ما مالذي جعل أمها تميل الى الصمت— كانت الأم تفكر بأيام طفولتها وكيف كانت كل شئ في العالم بالنسبة لامها. ويبدو أن من السهولة ومن الطبيعي أن يلجأ الطفل الى أمه حين تصادفه مشكلة. وكانت بوبي تدرك بعض الشئ لماذا يظل الانسان يلجأ الى أمه في ساعة الضيق حتى لو بلغ سن الرشد، ومامعنى أن يكون الانسان حزينا ولايجد أمّاً يلجأ اليها في ساعة حزنه.

لذلك رفست فيليس فقالت هذه:

—علام ترفسينني يابوبي؟

عندئذ ضحكت الأم قليلا وتنهدت وقالت:

—حسنا، اذن. كل ماأريد هو التأكد من أنكم تعرفون اتجاه القطارات ، ولاتمشون على السكة قرب النفق أو قرب المنعطفات.

فقال بيتر:

—القطارات تسير على الجهة اليسرى، مثل العربات.

فاذا أخذنا نحن الجهة اليمنى فلابد أن نراها عند مجيئها.

فقالت الام:

—حسنا.

استطيع القول انكم تعتقدون بأنها ماكان عليها أن تقول ذلك. ولكنها تذكرت أيام طفولتها نفسها فقالت ماقالته – ولن يقدر أحد– لاأطفالها ولاأنتم ولا أي طفل اخر في العالم – على أن يفهم بالضبط كم كان صعبا عليها أن توافق. القليل القليل منكم، من أمثال بوبي، قد يفهم شعورها في تلك الحالة.

في اليوم التالي مباشرة لازمت الام فراشها بسبب الصداع الشديد. كانت يداها تشتعلان من حرارة الحمى. وحنجرتها متقرحة، ولم تتناول أي طعام.

قالت السيدة فيني:

—لو كنت مكانك، ياسيدتي، لاستدعيت طبيبا.حالات الاصابة بالزكام كثيرة هذه الايام. أختي الكبرى أصابها برد. نزل الى أحشائها، منذ سنتين، كلما جاءت أيام عيد الميلاد. لم تتحسن صحتها كالسابق أبدا.

رفضت الأم الفكرة أول الامر. ولكن حالتها آزدادت سوء في المساء فأرسل بيتر الى بيت في القرية تنتصب عند بوابته الخارجية ثلاث من أشجار الظل الكبيرة وتحمل البوابة لوحة نحاسية كتب عليها اسم:

دبليو. دبليو فوريست

دكتوراه في الطب

وجاء الدكتور فوريست في الحال. وفي الطريق تحدث الى بيتر الذي وجد فيه رجلا عاقلا جذابا يهتم بالقطارات والأرانب وكل الاشياء المهمة حقا.

عندما فحص الأم وجدها مصابة بالانفلونزا.

وقال لبوبي في الصالة:

—والآن، أيتها السيدة الرزينة، أفترض أنك تريدين أن تكوني كبيرة الممرضات.

فقالت:

—بالطبع.

—حسناً، اذن. سأرسل لك بعض الأدوية.لا تتركي النار في الموقد تخمد. حضّري مرقاً دسماً من لحم البقر وأطعميها حال ماتخفّ الحمى.

يمكنها أن تتناول بعض العنب وماء لحم مسلوق الآن – وماء صودا وحليباً ويستحسن أن تجلبي لها زجاجة براندي. من الانواع الجيدة البراندي الرخيص أسوأ من السم.

وطلبت منه أن يدون لها هذه المواد في وصفة ففعل. وعندما عرضت بوبي الوصفة على أمها ضحكت الأم. واعتبرتها بوبي ضحكة فعلاً، ولو أنها كانت مزكومة



وواهنة.

قالت الأم، وهي مطروحة في فراشها وعيناها تلمعان مثل حبات مسبحة :

–هراء. أنا لا أستطيع شراء كل هذه السخافات. قولي للسيدة فيني تسلق لكم باونين من لحم الرقبة لعشائكم غداً. وأنا يمكن أن آخذ قليلاً من المرق.أجل. أريد قليلاً من الماء ياحبيبتي. هل يمكنك أن تجلبي طاساً وتغسلي لي يدي؟

فأطاعت روبرتا. وبعدما قامت بكل ماتستطيع أن تفعله لتوفير الراحة لأمها، نزلت الى حيث الآخرون. كانت وجنتاها شديدتي الاحمرار وشفتاها مزمومتين وعيناها تلمعان مثل عيني أمها. فاخبرتهم بوصفة الطبيب وما قالته الأم. وقالت أخيراً :

–والآن، لاأحد غيرنا يؤدي العمل. علينا أن نقوم بكل شيء. أنا عندي شلن ثمن شريحة اللحم.

فقال بيتر :

–لاضرورة لشريحة اللحم. الخبز والزبد يكفيان للمعيشة. الناس عاشوا بأقل من هذا في جزر جرداء مرات كثيرة.

فقالت أخته :

–بالطبع.

وأرسلوا السيدة فيني الى القرية لشراء قدر مايمكن

من البراندي وماء الصودا والشاي القوي بالشلن.

وقالت فيليس :

–ولكن حتى لو بقينا بدون طعام، فلن تقدري على شراء كل هذه الأشياء بشلن.

فاطرقت بوبي مفكرة :

–كلا. لابد من ايجاد وسيلة أخرى. فكروا معي الآن، كلكم، بأقوى ماتستطيعون. وفكروا. وتكلموا. ولما ذهبت بوبي لتكون بقرب أمها، تلبي لها احتياجاتها، بادر الاثنان الآخران الى جلب قطعة قماش أبيض ومقصاً وفرشاة صبغ وعلبة طلاء «برونسويك» أسود كانت السيدة فيني تستعمله لصبغ شبابيك المواقد الحديدية. لم ينجحا في تنفيذ ما أرادا بالضبط في قطعة القماش الأولى. فأخرجا واحدة أخرى من خزانة الشراشف. ولم يخطر ببالها أنهما يتلفان شراشف جيدة تكلف نقوداً كثيرة. كل الذي فكرا به هو أنهما كانا يؤديان خدمة طيبة – سأقول لكم فيما بعد مافعلاه.

نقلت بوبي فراشها الى غرفة أمها وصارت تنهض عدت مرات في الليل لتغذي النار وتسقي أمها الحليب وماء الصودا. وكانت الأم تحدث نفسها كثيراً ولكنه حديث أقرب الى الهذيان. مرة هبت من نومها مذعورة وصاحت : «ماما.. ماما!». وأدركت بوبي أن أمها

كانت تنادي «جدتها» ناسية أن الجدة ماتت منذ زمن بعيد. ولما تمالكت الأم نفسها قالت :

–آوه، آه، نعم – أظنني كنت احلم. يابطتي الصغيرة الحبيبة، كم ستتعبين معي! أكره أن أسبب لك كل هذه المتاعب.

فقالت بوبي :

–متاعب!

فقالت الأم :

– آه، لاتبكي ياحلوتي. سأكون في تمام الصحة خلال يوم أو يومين.

فقالت بوبي :

–أجل.

وحاولت الإبتسام.

عندما تكون معتاداً على النوم عشر ساعات كاملات وتجد نفسك مضطراً الى النهوض من فراشك ثلاث أو أربع مرات تشعر كأنك قضيت الليل كله سهراناً. وهكذا الحال مع بوبي. فقد شعرت بالتبلد وانسحب اجفانها والتهبت عيناها من السهر، ولكنها نهضت ونظفت الغرفة ورتبتها قبل مجيء الطبيب وكانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف.

سأل الطبيب عند الباب الخارجي :

– كل شيءٌ على مايرام ياممرضتي الصغيرة ؟ هل جلبت البراندي ؟

فاجابت بوبي :

– حصلت على البراندي ، في زجاجة مسطحة صغيرة .

قال :

– لم الاحظ وجود العنب ومرق اللحم .

فقالت بوبي بثبات :

– لا . ولكن ستجدها هنا غدا . سلقت بعض اللحم في الفرن لتحضير المرق .

فسألها :

– من طلب منك ذلك ؟

– لاحظت مافعلته ماما عندما اصيبت فيل بالنكاف .

قال الطبيب :

– صحيح . الآن ، خلي الخادمة العجوز تبقى مع والدتك وتروحين انت لتتناولي فطورا جيدا وتذهبين الى الفراش رأسا وتنامين الى الظهر . لايمكن ان نترك كبيرة الممرضات تمرض هي الاخرى . كان طبيبا انسانيا حقا .

حين اندفع قطار التاسعة والربع من فوهة النفق وضع السيد العجوز ، في عربة الدرجة الاولى ، الصحيفة جانبا وتهيأ للتلويح بيده للاطفال الثلاثة الواقفين عند السياج . ولكن لم يكن هناك ثلاثة صباح

ذلك اليوم ، بل بيتر وحده .

ولم يقف بيتر عند السياج هذه المرة كعادته . كان واقفا امام السكة مثل مروّض حيوانات في سيرك او مثل قسيس طيب يشير بعصاه السحرية لتظهر «مناظر من فلسطين» بوساطة فانوس سحري مخبأ .

كان بيتر هو الآخر يشير ، وكانت اشاراته تتجه الى شرشف ابيض كبير مثبت الى السياج بمسامير . ورسمت على الشرشف حروف سوداء كبيرة يبلغ الواحد منها القدم طولا .

وكان الصبغ سائلا من بعض الحروف بسبب من استعجال فيليس ، ولكن الكلمات كانت واضحة تقرأ بسهولة .

وكانت الكلمات التي قرأها السيد العجوز واشخاص آخرون في القطار ، مكتوبة بحروف سوداء كبيرة على الشرشف الابيض ، هي :

انظر الى المحطة .

وتطلع كثيرون الى المحطة وخاب ظنهم لانهم لم يروا شيئا غير اعتيادي . وتطلع السيد العجوز هو الآخر فلم يرَ شيئا غير مألوف ، سوى الرصيف المكسو بالحصى والشمس الساطعة والنباتات المتسلقة على الجدران وشجيرات ازهار «اذن الفأر» في اطراف المحطة . وما ان



صفر القطار مؤذنا باستئناف الرحلة ، حتى شاهد السيد العجوز فيليس . كانت تلهث من شدة الركض . قالت :

– آه ، ظننت اني لن الحق بالقطار . رباط حذائي ينفك دائما . اضطررت الى شده مرتين . هاهي الرسالة .

والقت في يد الرجل برسالة دافئة ورطبة حالما بدأ القطار بالحركة .

إتكأ الرجل في ركنه من العربة وفتح الرسالة وراح يقرأ :

سيدي العزيز مستر – لانعرف اسمك

إنَّ أُمّنا مريضة ويريد الطبيب ان نعطيها الاشياء المبينة في نهاية الرسالة ، ولكنها تقول انها لاتستطيع شراءها ولاشراء اللحم لنا ولا تناول المرق . نحن لانعرف هنا احدا سواك ، لان والدنا غائب ولانعرف عنوانه . بابا سيسدد لك ثمنها . واذا خسر كل نقوده ، او اي شيْ ، فان بيتر سيسدد الثمن عندما يصبح رجلا . نعدك بشرفنا بذلك . انا – مدين – لك – بكل الاشياء التي تريدها ماما .

التوقيع «بيتر»

نرجو تسليم الرزمة الى ناظر المحطة ، لاننا لاندري بأي قطار ستأتي ؟ قل للناظر يُعطِ الرزمة لـ «بيتر» المتأسف بشأن الفحم وهو سيفهم .

روبرتا
فيليس
بيتر

ثم تلت الرسالةَ قائمة بالاشياء التي امر بها الطبيب . قرأ السيد العجوز القائمة فارتفع حاجباه استغرابا . وقرأها ثانية فارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة . وبعد قراءتها ثانية طواها ووضعها في جيبه وعاد يقرأ صحيفة (التايمز) .

في حوالي السادسة من مساء ذلك اليوم قرع الباب الخلفي فأسرع الاطفال الثلاثة لفتحه ، هناك وقف حمال المحطة الذي حكى لهم الكثير من الحكايات الجميلة عن السكك الحديدية . ووضع على ارضية المطبخ سلة كبيرة ذات غطاء وقال :

– السيد العجوز طلب مني ان احملها اليكم في الحال .

فقال بيتر :

– شكرا جزيلا .

ولما لاحظ ان الحمال يتباطأ في الذهاب ، اضاف :

– انا شديد الأسف ، لااملك قطعة ذات بنسين لاعطيك كما كان بابا يفعل ، لكن – فقال الحمال باستياء :

–دعك من هذا الموضوع رجاء . ماكنت افكر بالبنسين . اردت ان اعبر لكم عن اسفي لمرض امكم واسألكم كيف حالها اليوم – ولقد جمعت لها باقة من زنابق البراري . رائحتها جميلة جدا . . . قطعة بنسين حقا !

قال هذا واستخرج باقة زهور من قبعته «كما يفعل الحواة» – على حد تعبير فيليس فيما بعد . قال بيتر :

– اشكرك جزيل الشكر وارجو المعذرة بشأن البنسين .

فقال الحمال بأدب :

– لست مستاء .

ولم يكن صادقا في قوله . ومضى .

ثم فتح الاطفال غطاء السلة . كانت هناك طبقة من القش ، ثم طبقة رقيقة من نشارة الخشب ، ثم ظهرت الاشياء التي طلبوها وكان منها الكثير . ثم كانت هناك اشياء جميلة كثيرة لم يطلبوها – من بينها خوخ ونبيذ ودجاجتان وعلبة ورق مقوى تضم ورودا حمراء كبيرة بأغصان طويلة وزجاجة خضراء طويلة رشيقة من عطر اللافندر (زهر الخزامى) وثلاث زجاجات صغيرة من ماء الكولونيا . وكانت هناك رسالة ايضا ، جاء فيها :

اعزائي روبرتا وفيليس وبيتر .

اليكم الاشياء التي اردتم . ستسألكم امكم من اين جاءت هذه الاشياء . اخبروها بأنها ارسلت من صديق سمع انها مريضة . وعندما تتعافى اخبروها بكل شيء بالطبع . واذا لامتكم على طلب هذه الحاجيات فاخبروها بأني اعتبر تصرفكم صحيحا وباني آمل ان تغفر لي ان سمحت لنفسي بمثل هذا السرور العظيم .

وكانت الرسالة تحمل توقيع (جي . بي) لم يستطع الاطفال استخلاص شيئ منه . قالت فيليس :

– اعتقد اننا تصرفنا بصورة صحيحة .

فقالت بوبي :

– صحيحة ؟ طبعا صحيحة .

فقال بيتر ، واضعا يديه في جيبيه :

– مع ذلك ، انا لاافكر حقًا باخبار أمي بحقيقة الامر .

فقالت بوبي :

– لن نفعل شيئا من هذا حتى تشفى تماما . وعندما تستعيد صحتها سنفرح الى حد اننا لن نهتم اذا وُبِّختنا قليلا . آه ، انظروا الى هذه الورود ! يجب ان اذهب بها الى ماما .

فقالت فيليس :

– وزهور الخزامى . لاتنسي زهور الخزامى.

وتنشّقت عبيرها بقوة .

قالت روبرتا :

– اوشكت ان انسى . ماما اخبرتني قبل ايام بأن بيت جدتي كان محاطا بسياج من شجيرات الخزامى ، يوم كانت ماما صغيرة .

الفصل الرابع

حرامية القاطرات - لصة -

ماتبقى من الشرشف الثاني وصبغ برونسويك الاسود تَحَوَّلَ الى لافتة انيقة حملت عبارة :

صحتها آخذة بالتحسن . نشكركم .

عُرضت امام «التنين الاخضر» بعد حوالي اسبوعين من وصول السلة المدهشة . ورآها السيد العجوز ولوَّح بيده بابتهاج . بعد هذا وجد الاطفال ان الوقت قد حان لاخبار أُمّهم بما فعلوه يوم كانت مريضة . غضبت الام حين علمت بالامر غضبا شديدا . وقلما كانت تغضب . وهاهي يعصف بها الغضب بشكل لم يروه من قبل . كان فظيعا ، لكن الاسوء منه ان انفجرت بالبكاء فجأة . اعتقد ان البكاء سريع العدوى مثل الحصبة والسعال الديكي . اذ سرعان ماوجد الباقون أنفسهم يشاركون في حفلة البكاء .

ثم توقفت الام وجففت دموعها وقالت :

– انا آسفة ، كنت غاضبة جدا ياأحبائي ، ادري انكم لم تفهموا .

فشهقت بوبي باكية ، بينما نشج بيتر وفيليس :

– لم نقصد ان نشاكسك يا ماما .

قالت الأم :

– اصغوا اليّ الآن . صحيح فعلا اننا فقراء ولكننا نملك مايكفينا للمعيشة . لايصح ان تخبروا كل انسان عن حالنا – هذا غير صحيح . وحذار ، حذار ، حذار ان تطلبوا من الغرباء شيئا . ستتذكرون هذا دوما – اليس كذلك ؟ فعانقها ثلاثتهم والصقوا خدودهم المبللة بخديها ووعدوها بالطاعة .

– وساكتب رسالة الى سيدكم العجوز . ساقول له إني لم ارض على هذا التصرف – آه ، ساشكره ايضا ، بالطبع ، على طيبته . انا لاارض عن تصرفكم انتم ياأحبائي ، لاتصرف السيد العجوز . لقد تصرف بمنتهى الطيبة والعطف . ويمكنكم اعطاء الرسالة الى ناظر المحطة ليوصلها اليه – ولن نتحدث في هذا الموضوع بعد الآن .

وعندما بقي الاطفال وحدهم فيما بعد ، قالت بوبي :

– أليست ماما رائعة ؟ هاتوا لي واحدا من الكبار يقول انه متأسف لانه غضب .

فقال بيتر :

– اجل ، انها لرائعة . ولكن ماافظع غضبها .

قالت فيليس :

– كما في اغنية «غاضب وجميل»

كان بودي ان اتطلع اليها لو لم يكن منظر غضبها فظيعا . كم هي جميلة حين تكون غاضبة .

وانطلقوا بالرسالة الى ناظر المحطة الذي قال :

– اظنكم قلتم انكم لاتملكون اصدقاء سوى في لندن .

فقال بيتر :

– صار صديقنا فيما بعد .

– ولكنه لايسكن في هذه المنطقة ؟

– لا . نحن نعرفه عن طريق القطار. ثم مضى الناظر الى معبده الداخلي الصغير القائم وراء شباك بيع التذاكر ، فيما ذهب الاطفال الى غرفة الحمال وجلسوايتسامرون معه . فعرفوا منه عدة امور لطيفة – منها ان اسمه «بيركس» وانه متزوج ولديه ثلاثة اطفال وان المصابيح التي في مقدمة القاطرة تدعى «المصابيح الرأسية» والتي في الخلف تدعى «المصابيح الذيلية» . وهمست فيليس :

– هذا يدل على ان القطارات هي تنانين متنكرة ، لها رؤوس وذيول تناسبها .

في ذلك اليوم لاحظ الأطفال، لأول مرة، أن القاطرات ليست كلها متشابهة.

قال الحمال الذي يدعى «بيركس»:
– متشابهة؟ لا، رعاك الله، ياآنسة. متشابهة كتشابهنا أنت وأنا! تلك القاطرة الصغيرة التي بدون مقطورة ماء. ذلك هو خزان الماء. سنقوم بعمليات ربط وتحويل العربات الى الجهة المقابلة من «ميدبريدج». أترين.. هي صغيرة مثلك ياآنسة. هناك أيضاً قاطرات البضائع.. مكائن ضخمة وقوية لها ثلاث عجلات من كل جانب – وتربطها معا قضبان لولبية تزيد من قوتها – مثلي أنا. ثم هناك قاطرات الخطوط الرئيسة تشبه هذا السيد الفتي عندما يكبر ويفوز بكل سباقات الركض في مدرسته – سيفوز بالتأكيد. قاطرات الخط الرئيس... مصنوعة للسرعة وكذلك للقوة. تلك تجر قطار التاسعة والربع.

سألت فيليس:
– التنين الأخضر؟
فقال الحمال:
– نحن نسميها «الحلزون» ياآنسة. دائما متأخرة حتى لو لم تكن تجر وراءها أية عربات.
فقالت فيليس:
– ولكن القاطرة خضراء.
فقال بيركس:
– نعم ياآنسة. نفس لون الحلزون في بعض مواسم السنة.

أجمع الأطفال، عند عودتهم الى البيت ظهرا، على أن الحمال شخص ممتع للغاية.

اليوم التالي كان عيد ميلاد روبرتا. وقد طلبوا منها بأدب ولكن بحزم أن تبتعد عن البيت، عصر ذلك اليوم، الى أن يحين موعد تناول الشاي. وقالت فيليس:
– لن نسمح لك برؤية مانقوم به الى أن ننتهي منه. سيكون مفاجأة رائعة.

خرجت روبرتا الى الحديقة وحدها. وحاولت أن تشعر بالامتنان، الا أنها ظلت تفضل أن تساعد في أي عمل بدلا من قضاء عصر يوم عيد ميلادها بمفردها، حتى لو كان ذلك على حساب المفاجأة الرائعة التي تنتظرها.

والان وقد أصبحت وحدها وجدت الوقت الكافي للتفكير. وكان أول مافكرت به هو ماقالته أمها في أثناء هذيانها تحت وطأة الحمى في إحدى الليالي.

قالت: «اه، كم، ياترى، ستبلغ أجور الطبيب!».

راحت روبرتا تدور في الحديقة وبين شجيرات الورد التي لم تتفتح براعمها بعد وشجيرات الليلك والبنفسج والكشمش الامريكي. وكلما أمعنت تفكيرا في أجور الطبيب ازدادت قلقاً.

وفجأة صممت على أمر: فانطلقت من باب الحديقة

الجانبي صوب منحدرات الحقول، الى الطريق الممتدة بجانب القناة حتى وصلت الى القنطرة الحجرية المؤدية الى القرية، وهنا توقفت. وجدت متعة كبيرة في الاستناد بأحد مرفقيها على سياج القنطرة الحجري الدافئ تحت الشمس المشرقة والنظر الى مياه القناة الزرقاء. ولم تكن بوبي قد رأت في حياتها، من قبل، سوى «قناة الوصي» التي لم يكن ماؤها بمثل هذا اللون الجميل. ولم تر نهراً غير نهر «التايمز» – أو «الثيمز» – الذي كان سيصبح جميلاً لو غسلوا وجهه.

ربما كان الاطفال سيحبون القناة حبهم لسكة القطار لولا سببين. الأول: أنهم اكتشفوا السكة أولا – في أول صباح جميل لهم ببيتهم الريفي، يوم كان البيت والريف والمستنقعات والكتل الصخرية والتلال العالية، كلها جديدة عليهم. ولم يكتشفوا القناة الا بعد أيام. السبب الاخر أن كل من صادفوه في المحطة والقطار عاملهم بلطف – ناظر المحطة والحمال والسيد العجوز الذي كان يحييهم من عربته. بينما كان أهالي القناة أبعد مايكونون عن الطيبة واللطف.

أما أهل القناة فهم، بالطبع، ربابنة المراكب الذين يقودون مراكبهم صعودا ونزولا في القناة ببطء أو يسوقون خيولهم الهرمة التي تخوض في الوحول الكثيفة بجانب القناة

جارة المراكب بحبال طويلة.

مرة سأل بيتر أحد ربابنة المراكب عن الوقت فنهره هذا بلهجة قاسية جعلت الصبي يمضي من دون أن يقول للرجل انه يملك حقا في الطريق مثله. بل ان بيتر لم يفكر بمثل هذا القول الا بعد فترةٍ من الزمن.

ومرة فكر الاطفال بصيد السمك في القناة، فراح صبي في أحد المراكب يرميهم بقطع من الفحم أصابت إحداها رقبة فيليس بينما كانت تشد رباط حذائها – ومع أن قطعة الفحم لم تؤذها فان تلك الحادثة جعلتها تنبذ فكرة الذهاب للصيد.

على أن روبرتا شعرت بالأمان التام على القنطرة، لأنها تقدر على أن تطل على القناة وتحتمي، في الوقت المناسب، بسياج القنطرة إذا حاول أحد صبيان المراكب رمي الفحم عليها.

وفجأة سمعت صوت عجلات، الصوت الذي توقعته. كانت تلك عربة الطبيب ذات العجلتين. وكان الطبيب يقودها بالطبع. توقف وناداها:

– مرحبا، كبيرة الممرضات! تريدين أن أوصلك؟

قالت بوبي:

– أردت أن أراك.

فقال الدكتور:

– آمل أن لاتكون حالة أمك سيئة؟

– كلا.. لكن...

– حسنا، إذن. إصعدي... لنتنزه قليلاً.

صعدت روبرتا ولوى الطبيب عنان جواده الأسمر – ولم يرتح الحصان لهذه الحركة أبداً، ولاسيما أنه كان ذاهباً لتناول شايه – أعني علفه.

قالت روبرتا حين انطلقت العربة على الطريق المحاذي للقناة:

– عربة حلوة.

قال الطبيب عند مرورها من أمام بيت روبرتا:

–نستطيع أن نصيب بحجارة أية واحدة من مدخناتكم الثلاث.

فقالت بوبي:

–أجل، ولكن يلزم أن تكون راميا بارعا.

فقال الطبيب:

–من قال لك إني لست كذلك؟ والان ما المشكلة؟

لبثت ساكتة وتململت في مكانها بقلق. قال الطبيب:

– قولي، لاتترددي.

قالت بوبي:

–صعب... لاأقدر على الافصاح..بسبب ماقالته

ماما.

–ماذا قالت ماما؟

–قالت لايصح أن يعرف كل الناس أننا فقراء. لكنك لست كل الناس... أليس كذلك؟

فقال الطبيب بمرح:

–لا بالتأكيد. حسن..وماذا؟

–أدري أن الأطباء باهظون... أعني يكلفون كثيرا. وقد أخبرتني السيدة فيني بأن علاجها لايكلف سوى بنسين في الاسبوع لانها مشتركة في ناد.

–اي؟

–أقول لك هي امتدحتك وسألتها من أين لها أن تدفع أجورك وهي أشد فقرا منا. أنا رأيت بيتها وأعرف كم هي فقيرة. عندئذ أخبرتني عن النادي وفكرت بان أسألك و...اه، لاأريد أن تقلق ماما! الايمكننا الاشتراك بالنادي نحن أيضا مثل السيدة فيني؟

سكت الطبيب. كان فقيرا هو الاخر وقد فرح لحصوله على أسرة جديدة يعالجها. ولذا أعتقد أن أفكاره تشوّشت في تلك اللحظة.

سألته بوبي بنبرة ضعيفة خائفة:

–أنت غير مستاء مني..أليس كذلك؟

فأفاق الطبيب من ذهوله:

-أستاء؟ كيف أستاء. أنت شابة عاقلة رصينة. إصغي اليّ.... لاتشغلي بالك. لن أجعل أمك تتضايق ابدا حتى لو اضطررت الى تأسيس ناد جديد تماما خاصا بها. انظري – من هنا يبدأ الناظم المائي.

فسألته بوبي:

-مامعنى الناظم– ماأسمه؟

فقال الطبيب:

-جسر مائي. أنظري.

كان الطريق يؤدي الى جسر فوق القناة. والى اليسار كانت الضفة الصخرية تنحدر بشدة نحو الماء تتناثر عليها شجيرات وأدغال نبتت في شقوق بين الصخور. عند تلك النقطة تغيّر القناة اتجاهها لتنحدر من فوق التلال صوب الوادي تحت جسر كبير ذي أقواس عالية. أخذت بوبي نفسا عميقا وقالت:

-هائل، أليس كذلك؟ يشبه الصور في كتاب (تاريخ روما).

فقال الطبيب:

-صحيح! هذا بالضبط مايشبهه. كان الرومان مهووسين ببناء النواظم من هذا النوع. عمل هندسي بارع.

-تصورت أن الهندسة تعني عمل المكائن.

-نعم. هناك أنواع مختلفة من الهندسة – عمل الطرق والجسور والانفاق واحد منها. وبناء التحصينات نوع اخر. حسنا لابد أن نعود. و .. تذكري.. لاتقلقي بشأن قائمة أجور الطبيب والا تمرضت أنت هذه المرة، وعندئذ سابعث لك بقائمة أجور بطول هذا الجسر. حين ودعت بوبي الطبيب عند بداية الحقل الذي ينحدر مؤديا الى بيت «المدخنات الثلاث» لم تشعر بأنها قامت بعمل مغلوط. كانت تدري أن أمها قد لا توافق على تصرفها، ولكنها شعرت بأنها على صواب هذه المرة وراحت تنزل المنحدر الصخري يغمرها شعور بالسعادة.

التقى بيتر وفيليس بها عند الباب الخلفي. كانا نظيفين ومهندمين بشكل غير طبيعي وفيليس تزين شعرها بطوق أحمر. ولم يكن أمام بوبي سوى القليل من الوقت لتغتسل وتشد شعرها بطوق أزرق قبل أن يدقّ ناقوس صغير.

قالت فيليس:

– ها قد آن الآوان! يعني أن المفاجأة جاهزة. انتظري الآن حتى يدقّ الناقوس ثانية وعندئذٍ يمكنك المجيء الى غرفة الطعام.

فلبثت بوبي تنتظر.

ثم قال الناقوس «دندن، دندن» فتوجّهت بوبي الى غرفة الطعام، يغلب عليها الخجل. وما إن فتحت الباب

حتى وجدت نفسها، كما بدا لها، في عالم جديد من الانوار والزهور والغناء. كانت الأم وبيتر وفيليس واقفين في صف عند طرف المائدة. وأوصدت مغاليق النوافذ فكانت هناك اثنتا عشرة شمعة على المائدة موقدة ترمز كل واحدة منها لسنه من عمر روبرتا. وكانت المائدة مفروشة بالزهور يتوسطها إكليل من زهور أذن الفأر وجملة علب صغيرة جميلة، فما راحت الأم وبيتر وفيليس يغنون – على أنغام الجزء الأول من نشيد القديس باتريك. عرفت روبرتا أن أمها كتبت الكلمات احتفالاً بعيد ميلادها. وكانت تلك احدى وسائل احتفالات الأم بأعياد ميلاد أطفالها. وقد بدأتها في عيد ميلاد بوبي الرابع يوم كانت فيليس بعد رضيعة. تذكرت بوبي كيف كانت تحفظ الأشعار لتفاجيء الوالد وتساءلت في نفسها إن كنت أمها تذكر ذلك أيضاً. كانت قصيدة عيد ميلادها الرابع تقول :

ياوالدي العزيز، عمري أربعة
ولا أريد أن تزيد
فالرابعة أحسن عمر
أثنان وأثنان وواحد وثلاثة
وما أحب هو إثنان واثنان
ماما وبيتر – وفيل وأنت

وما تحب أنت هو واحد وثلاثة.
ماما وبيتر وفيل – وأنا
فامنح فتاتك الصغيرة قبلة
لأنها تعلمت وأخبرتك بهذا

أما الأغنية التي راح البقية ينشدونها في تلك اللحظة فتقول :

حبيبتنا روبرتا
لن يؤذيها أي حزن
اذا استطعنا أن نمنعه
عمرها طويل
وعيد ميلادها يوم عيد لنا
به نحتفل أكبر احتفال
ونعطيها هدايانا
ونغني لها أغنيتنا
لتكن حياتها أفراحا ومسرّات
ولينعم الحظ عليها بأسعد عيش
طوال عمرها
ولتكن سماؤها صافية
والأحبة يحيطون بها!
ياعزيزتنا بوب!
الى أعياد سعيدة كثيرة!

ولما فرغوا من الانشاد هتفوا «ثلاث هتافات للعزيزة بوبي!» بصوت عال. فشعرت بوبي كأنها موشكة على البكاء–اتعرف، هذا الاحساس: إذ تشعر بمثل الحكة في أنفك والوخز في أجفانك؟ لكنهم أحاطوا بها يقبلونها ويعانقونها قبل أن تجد وقتا للبكاء. وقالت الأم:

–والآن، انظري الى هداياك.

كانت هدايا لطيفة جدا. كتاب مشغول بالابرة باللونين الأخضر والاحمر صنعته فيليس سرا. وبروش صغير جميل بهيئة طاسة من الفضة، هدية من الام، تعرفه بوبي وتحبه منذ سنين، ولو أنها لم تحلم قط بأنه سيصير اليها في يوم من الايام. وكان هناك زوج من المزهريات الزجاجية الزرقاء، هدية من السيدة فيني، كانت روبرتا قد شاهدتها في دكان القرية وأعجبت بهما. وكانت هناك ثلاث بطاقات عيد ميلاد تحمل صورا وتمنيات لطيفة.

وضعت الام اكليل الزهور على رأس بوبي وقالت:

–الان، انظري الى المائدة.

كانت هناك كعكة، على المائدة، مكسوّة بالكريم الابيض ومكتوب عليها بالكريم الوردي عبارة «عزيزتنا بوبي». وكان هناك أيضا كعك محلى ومربى. لكن أحلى شيء كان المائدة المغطاة بالزهور. فثمة طوق من الزهور يحيط بصينية

الشاي وزهو تحيط بالأواني. حتى الكعكة كانت محاطة باكليل من الزنابق البيضاء. بينما توسطت المائدة تشكيلة من الزنبق والزهور الجدارية ونباتات الزينة. سألت روبرتا:

–ماهذا؟

فصاح بيتر:

–هذه خارطة – خارطة السكك! انظري – خطوط الزنابق هذه هي قضبان السكة، وتلك هي المحطة من الزهور الجدارية، ونبات الزينة القطار، وهناك حجرة الاشارات والطريق المؤدي الى البيت. وزهور الربيع الثلاث الكبيرة تلك هي، نحن الثلاثة نلوح للسيد العجوز – ذاك هو، زهرة البنفسج في قطار نبات الزينة.

وقالت فيليس:

– وهذا بيتنا «ذو المدخنات الثلاث» من زهور الربيع الارجوانية، وبرعم الورد الصغير ذاك هو ماما تبحث عنا حين نتأخر عن موعد تناول الشاي. بيتر هو الذي ابتكر هذا كله وجلبنا كل الزهور من المحطة. فكرنا بأنك ستحبين الفكرة.

وقال بيتر:

– وهذه هديتي

وفجأة وضع على المائدة امام بوبي قاطرته البخارية العزيزة ، وكان خزان الفحم الملحق بها مغلفا بورق ابيض جديد ومملوء بالحلوى .

فصاحت بوبي مبهورة بهذا الكرم :

– آه ، يابيتر ! قاطرتك الصغيرة العزيزة التي تحبها جدا ؟

فبادرها بيتر قائلا :

– اوه ، لا . القاطرة لا . الحلوى فقط .

تغيرت علائم بوبي قليلا – لا لانها اصيبت بخيبة امل لعدم حصولها على القاطرة ، بل لانها فرحت لنبل موقف بيتر اول الامر ، ثم مالبثت ان شعرت بسخافة فرحها . كما شعرت بالخجل لجشعها – وهي تريد الحلوى والقاطرة معا . لذلك تغيرت ملامحها . رآها بيتر وتردد لحظة ، ثم تغيرت علائمه ايضا وقال :

– اعني لا كل القاطرة . سأعطيك نصفها اذا اردت .

فهتفت بوبي :

– انت لطيف . انها هدية رائعة .

ثم قالت مع نفسها بصوت خافت :

– هذا منتهى اللياقة من بيتر ، لاني ادري انه لايقصد ذلك حقا . حسنا ، سآخذ الجزء العاطل من القاطرة واعمل على اصلاحه واقدمه الى بيتر في عيد ميلاده .

ثم عادت تقول بصوت مسموع :

– اجل ، ياامي العزيزة . لابّد ان اقطع الكعكة الان .

وبدأ تناول الشاي .

كانت حفلة عيد ميلاد بهيجة . وبعد الشاي لعبت الام معهم – لعبتهم المفضلة بالطبع «عصا الاعمى» ، فتلف اكليل بوبي وتدلى فوق اذنيها . واستمروا يلعبون حتى حان موعد النوم ، فهدأ الاطفال وقرأت لهم امهم قصة جديدة لطيفة . فسألتها بوبي ، وهم يتبادلون تحية الليل :

– هل ستسهرين وتعملين الى وقت متأخر ياماه ؟

فقالت لها امها لن تفعل ، بل ستكتب رسالة الى الوالد فقط ومن ثم تنام .

ولكن حين تسللت بوبي من فراشها الى غرفة الطعام لتجلب الهدايا – اذ شعرت بأنها لاتستطيع ان تظل بعيدة عنها طول الليل – وجدت امها هناك . لم تكن تكتب ، بل جالسة الى المائدة ورأسها بين يديها . كان الانسب لـ «بوبي» ان تنسل عائدة وهي تردد مع نفسها : «لاتريدني ان اعرف كم هي تعيسة وانا لن اعرف . . . لن اعرف» وتحوّل عيد الميلاد الى غصّة .

****

شرعت بوبي ، منذ صباح اليوم التالي ، بالبحث لتصليح قاطرة بيتر من دون أن يدري . وجاءت الفرصة في

عصر ذلك اليوم.

فقد ذهبت الأم بالقطار الى المدينة المجاورة لتشتري لوازم للبيت. وكانت كلما ذهبت الى هناك تقصد دائرة البريد، ربما لتبعث برسالة الى الوالد. فلم تكن تعطي الرسائل الى الاطفال أو للسيدة فيني لوضعها في صندوق البريد. ولم تكن تذهب الى القرية. ذهب بيتر وفيليس معها. أما بوبي فلم ترغب في الذهاب وحاولت أن تجد عذرا مقبولا فلم تنجح، وفي اللحظة التي يئست من المحاولة تعلق طرف ثوبها بمسمار بباب المطبخ وانشق شقا كبيرا. اؤكد لكم أن ذلك كان مجرد صدفة. فأسف الباقون لحالها وذهبوا من دونها، لأن الوقت كان ضيقا لايسمح بتغيير الثياب. فقد تأخروا وكان عليهم الاسراع الى المحطة ليلحقوا بالقطار.

لبست بوبي، بعد ذهابهم، ثوبها الذي تلبسه كل يوم وانطلقت الى سكة القطار. لم تذهب الى المحطة، بل راحت تسير مع السكة حتى نهاية الرصيف، حيث تقف القاطرة عندما يكون القطار النازل بجانب الرصيف – هناك حيث يقوم خزان كبير للماء وقربه خرطوم ماء طويل من الجلد يشبه خرطوم فيل. اختبأت بوبي وراء دغل على الجانب المقابل من السكة. ولبثت تنتظر بصبر، حاملة تحت إبطها قاطرة بيتر الصغيرة ملفوفة بقطعة ورق اسمر.

ثم لما جاء القطار التالي وتوقف، عبرت بوبي السكة ووقفت بجانب القاطرة. لم تقف قرب قاطرة من قبل. فبدت القاطرة أضخم وأصلب بكثير مما تصورت وجعلتها تشعر بالضآلة والضعف الى جانبها – وكأن القاطرة تستطيع أن تؤذيها بسهولة. وقالت بوبي في نفسها:

– ماذا يكون شعور دودة القز لو وقفت بمكاني ياترى! لم ير السائق ولا الوقّاد بوبي لأنهما كانا في الجهة الأخرى من القاطرة يحكيان للحمال حكاية.

قالت روبرتا:

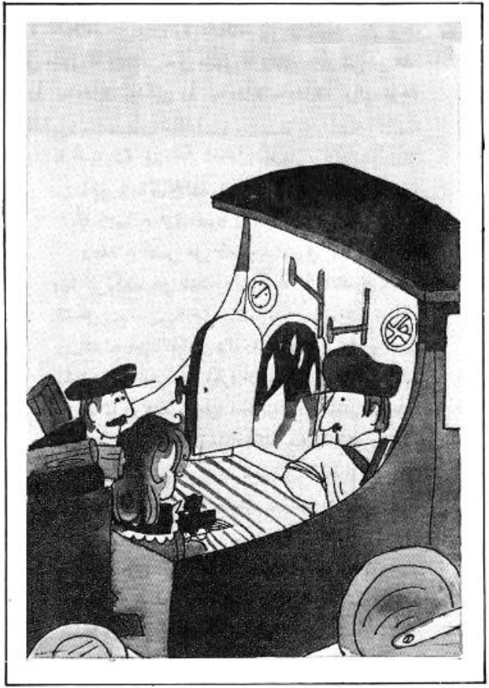
– من فضلك.

لكن أزيز البخار الصاعد عن القاطرة كان أعلى من صوتها.

فقالت بصوت أعلى بقليل:

– من فضلك، ياحضرة المهندس.

ولكن هدير القاطرة في تلك اللحظة طغى على صوتها الضعيف. فبدالها أن السبيل الوحيد هو الصعود الى القاطرة وجذب سترة السائق حتى ينتبه اليها. كانت الدرجات عالية، لكن بوبي اعتمدت في الصعود على ركبتها واستطاعت الوصول أخيرا الى قمرة السائق. غير أنها تعثرت ووقعت على يديها وركبتيها على كوم فحم قريب من فتحة خزان الوقود. ولم ترحم الماكنة ضعف



الاخرين، فراحت تهدر هديرا شديدا لاحاجة اليه بالمرة. وما أن وقعت روبرتا على كوم الفحم حتى بدأ السائق بتحريك القاطرة من دون أن ينتبه الى وجود الفتاة. ولما تمالكت روبرتا نفسها ونهضت كان القطار قد بدأ يسير – ليس سريعا وفي الوقت نفسه أسرع من أن تستطيع بوبي الوثوب الى الأرض.

امتلأت نفس بوبي خوفا وخطرت على بالها كل الأفكار السوداء دفعة واحدة. فكرت بقطارات الاكسبريس السريعة التي تصورت أنها تقطع مئات الاميال قبل التوقف. لنفرض أن هذا القطار واحد منها؟ كيف تعود للبيت عندئذ؟ ثم هي لاتملك ثمن تذكرة العودة. وفكرت مع نفسها: «ومامعنى وجودي هنا؟ أنا حرامي قاطرات.. نعم، هذا أنا. لاعجب إذا سجنوني لهذه الفعلة». وانطلق القطار بسرعة متزايدة.

خنقتها الغصّة فلم تقو على الكلام. حاولت مرة ومرتين. كان الرجلان مشغولين بأشياء، تبدو مثل الحنفيات، وظهراهما الى بوبي.

وفجأة مدت يدها وجذبت اقرب الرجلين من كم سترته. فالتفت مذعورا ووقف هو وروبرتا ينظران الواحد للاخر لمدة دقيقة بصمت. ثم كسر الاثنان الصمت. فقال الرجل: «ياللجرأة!».

وانفجرت روبرتا بالبكاء.

وقال الآخر إنه في منتهى الانزعاج – أو شيءٌ من هذا القبيل – ولكنهما لم يعاملاها بقسوة، وإن فوجئا بوجودها. قال الوقّاد:

– أنت بنيّة شريرة. هكذا أنت.

لكن السائق قال:

– أنا اسميها صغيرة حبيبة.

وجعلاها تجلس على مقعد حديدي في الكابينة طالبين منها أن تكف عن البكاء وأن تخبرهما لماذا تصرفت بهذا الشكل.

كفت عن البكاء حال مااستطاعت. لعل الذي ساعدها على السكوت فكرة أن بيتر مستعد لاعطاء أذنيه ثمنا لمكانها في هذه القاطرة الحقيقية، التي تسير بها فعلا. كثيرا ماتساءل الأطفال ما اذا كان سائق القاطرة إنسانا نبيلاً بحيث يسمح لهم بنزهة قصيرة في القاطرة – وهاهي الان في قاطرة منطلقة. جففت دموعها وتنشقت بقوة.

قال الوقاد:

– والان... اعترفي. ماذا تقصدين بهذا، ها؟

– اوه، أرجوك.

نشجت بوبي وسكتت.

فقال السائق مشجعا:

– حاولي مرة أخرى.

حاولت بوبي ثانية. قالت:

– أرجوك، ياسيدي المهندس، أنا ناديت عليك من السكة، لكنك لم تسمعني. وصعدت الى القاطرة حتى ألفت انتباهك – قصدت أن أفعل ذلك بلطف – ثم وقعت على الفحم وأنا متأسفة جدا إذا كنت خوفتك. اه، لاتغضب – اه، أرجوك لاتغضب! ونشجت ثانية.

قال الوقاد:

– لسنا غاضبين كثيرا، بقدر مانحن مستغربين. نحن لانرى، كل يوم، فتاة صغيرة في خزان الفحم، نازلة علينا من السماء. أليس كذلك يابيل؟ لماذا فعلت هذا، ها؟

فأيده السائق في كلامه قائلا:

– هذه هي النقطة. علام فعلت هذا؟

وجدت بوبي أنها مازال تبكي، فربت السائق على ظهرها وقال:

–لابأس عليك... هيا ابتسمي، يازميلة. المسألة ليست بهذه الدرجة من السوء أبداً. لا تجعليني أشعر بالحرج.

شعرت بوبي بارتياح شديد لكلمة «زميلة» وقالت:

–أردت... أردت فقط أن أرجوك التفضل بتصليح هذه.

والتقطت رزمة الورق الأسمر من بين الفحم وحلت الخيط الذي يشدها بأصابع حمراء ساخنة راجفة.

كان لهب النار المنبعث من فرن الماكنة يلسع قدميها وساقيها، بينما راح كتفاها يرتجفان من برودة تيار الهواء. وكانت القاطرة تتمايل وتهتز وتئز. وبدت كأنها تصرخ في أذني بوبي حين مرقت من تحت أحد الجسور.

قذف الوقاد بمقدار مجرفة من الفحم في الفرن. وفكت بوبي لفة الورق الاسمر واخرجت لعبة القاطرة وقالت بلهفة :

-فكرت بأنك ربما تصلح هذه لي – لانك مهندس، أليس كذلك؟

فقال السائق إنه في غاية الاستغراب.

وعلق الوقاد قائلاً :

-عليَّ اللعنة أن لم أكن أشد آستغراباً.

الا أن السائق تناول القاطرة الصغيرة وتأملها – فيما توقف الوقاد، لحظة، عن قذف الفحم في فرن الماكنة ونظر اليها هو الآخر. وقال السائق :

– هذه لاتقل وقاحة عنك! ما الذي جعلك تعتقدين بأننا نبالي بتصليح لعب الحصالات؟

قالت بوبي :

-لم أقصد أن أكون وقحة. إنما كل من له علاقة

بالسكك يكون إنساناً رؤوفاً وطيباً جداً. اعتقدت بأنك لاتمانع. أنت لا تمانع حقاً.

ثم أضافت حين لمحت غمزة ودية تبادلها الرجلان :

-أليس كذلك؟

قال بيل :

-شغلي هو قيادة القاطرات، لاتصليحها، وخاصة مثل هذه القاطرة الصغيرة. ثم كيف، ياترى، سنعيدك الى أصدقائك وأهلك الحزينين، وكيف ينسون ويغفرون كل شي؟

فقالت بوبي بحزم، ولو أن قلبها كان يدق بشدة ويداها مشبكتان بقلق ولهفة :

-اذا أنزلتني في المحطة التالية وأقرضتني بعض النقود لأشتري تذكرة درجة ثالثة، فسوف أردها لك. أقسم لك بشرفي. أنا لست نصابة مثل الذين تحكي عنهم الجرائد. لست من أولئك.

فقال بيل، مغيراً موقفة تماماً بصورة مفاجئة :

-أنت سيدة صغيرة، بكل مافيك. سنعمل على ايصالك الى البيت سالمة. أما عن هذه القاطرة.. جيم – عندك أحد، صديق عنده كاوية؟ يبدو لي أن هذاهو كل ماتحتاجه هذه المشاكسة الصغيرة.

فقالت بوبي بلهفة ؛ وهي تشير الى عجلة

نحاسية صغيرة راح الرجل يلفها وهو يتكلم :

—هذا ما قاله بابا، ما الغرض من هذه؟

—هذا صمام للتعبئة.

— في — ماذا؟

—لتعبئة المرجل (البويلر).

قالت بوبي، وهي تختزن هذه الحقيقة في بالها لتحكي عنها للآخرين فيما بعد :

—آه، هذا طريف.

ومضى بيل قائلاً وقد ملأه حماس البنيّة زهواً :

—هذا، لاحظي، هو الكابح الاوتوماتيكي (أو الآلي). مجرد أن تحركي هذا المقبض الصغير... يمكنك تحريكه باصبع واحد.. يتوقف القطار في الحال. هذا ماتسميه الجرائد «قوة العلم».

ثم دلها على قرصي أرقام صغيرين، يشبهان الساعة، وأخبرها بأن أحدهما يشير الى كمية البخار المتولد من المرجل والثاني يبين ما اذا كان الكابح الأوتوماتيكي يعمل أم لا.

كانت بوبي، وهي ترى الرجل يسد مجرى البخار بوساطة مقبض فولاذي كبير لماع، قد عرفت عن دخائل عمل القاطرة مالم تخطر معرفته ببالها من قبل. ووعدها جيم بأن يجعل الأخ الثاني لزوجة ابن عمه يقوم بلحام القاطرة

اللعبة، أو يحاول جيم نفسه معرفة سبب العطل. وشعرت (بوبي) بأنها و(بيل) وجيم أصبحوا أصدقاء مدى الحياة، وبأن الرجلين غفرا لها تماماً والى الأبد تطفلها ومن ثم وقوعها على كوم الفحم المقدس في خزان القاطرة.

غادرتهما عند مفرق ستاكلبول بعدما تبادل الثلاثة التمنيات الحارة. وسلمها الرجلان الى حارس قطار راجع — صديق لهما — ففرحت لأن الفرصة أتاحت لها أن تعرف مايفعل حراس القطارات في أثناء مرورهم السريع الخفي على المحطات، وفهمت منه أنك حين تسحب حبل الطوارىء داخل العربات، تمر عجلة صغيرة من تحت أنف الحارس ويدوي جرس تنبيه في أذنيه. وسألته لم تفوح من عربته رائحة السمك فأخبرها بأنه مضطر الى نقل كمية كبيرة من الاسماك يومياً، وأن مارأته من آثار رطوبة في تجاويف أرضية العربة المتموجة كانت قد تسرّبت من صناديق ملأى باسماك من عدة انواع.

وصلت بوبي الى البيت مع موعد تناول الشاي وشعرت برأسها يكاد ينفجر من ضغط ماشاهدته منذ افترقت عن الآخرين. ولكم شكرت المسمار الذي شق تنورتها!

سألها الآخرون :

—أين كنت؟

فقالت روبرتا :

–في المحطة بالطبع.

ولكنها لم تقل كلمة واحدة عن مغامرتها الى أن جاء اليوم المناسب، الذي اصطحبت فيه بيتر وفيليس معها الى المحطة في موعد مجيء قطار الساعة (١٩ر٣)تتقدمها بفخر الى صديقيها بيل وجيم. ويبدو أنْ شقيق زوجة إبن عم جيم الثاني كان جديراً بالثقة المقدسة التي وضعها جيم فيه. فقد أصلح القاطرة الصغيرة اللعبة بحيث جعلها تبدو كأنها جديدة.

قالت بوبي، قبيل أن يطلق سائق القاطرة صفير الرحيل :

– وداعاً آه، وداعاً. ساحبكم دائماً، دائماً – زوجة ابن عم جيم الثاني كذلك!

ولما عاد الاطفال الثلاثة الى البيت، وبيتر ضاماً القاطرة الصغيرة الى صدره، وقد عادت الى سابق رونقها روت لها بوبي بقلب يخفق بقوة من شدة الفرح كيف صارت حرامية قاطرات.

الفصل الخامس

سجناء واسرى

في أحد الايام ذهبت الأم الى ميدبريدج.

ذهبت بمفردها. وكان على الاطفال أن ينتظروها في المحطة. ولما كانوا يحبّون المحطة فقد كان من الطبيعي أن يذهبوا الى هناك قبل ساعة على الاقل من احتمال وصول القطار الذي يحمل والدتهم، حتى لو كان القطار دقيقا في مواعيده، ولو أن هذا أمر بعيد كل البعد عن التصديق. ولاشك أنهم ماكانوا ليتأخروا عن الخروج،والاستمتاع بمباهج الغابات والحقول والصخور والانهار لو كان اليوم صحوا. ولكن ذلك اليوم كان رطبا جدا وباردا جدا بالنسبة ليوم من شهر تموز. كانت هناك ريح عاتية تدفع عبر السماء حشودا من السحب الرمادية الداكنة «مثل قطعان فيلة حلمية» كما عبّرت عنها وكانت قطرات المطر تلسع بقسوة ، حتى أن الاطفال اضطروا الى قطع المسافة الى المحطة عدوا. وازداد هطول المطر شدة وراح مدراره يضرب على نوافذ مكتب بيع التذاكر والقاعة الباردة التي

وضعت على بابها عبارة «قاعة الانتظار العمومية».

قالت فيليس:

–كأننا في قلعة محاصرة. انظروا سهام العدو تنهال على الاسوار!

فقال بيتر:

–بل أشبه بنافورة كبيرة ينبثق منها الماء.

قرر الثلاثة البقاء على الدكة المحاذية لمبنى المحطة لان الرصيف الممتد قرب السكة كان غارقا بالماء. وكان المطر ينفذ بغزارة الى داخل السقيفة السوداء الصغيرة التي ينتظر تحتها ركاب القطار النازل مجيء قطارهم.

كانت ساعةً حافلة بالاحداث والمتع. فقد مرّ خلالها قطاران صاعدان وقطار نازل استمتع الاطفال برؤيتها في إنتظار وصول القطار الذي يحمل أمهم.

قالت بوبي:

–ربما توقف المطر حينذاك. على أية حال أنا فرحانة لأني جلبت معطف ماما المطري ومظلتها.

ومضوا الى القاعة المهجورة التي تحمل عبارة «قاعة الانتظار العمومية» حيث انفقوا الوقت في الاستمتاع بلعبة «الاعلانات الجدارية». تعرفون لعبة الاعلانات بالطبع. أشبه ماتكون بلعبة (التقليد الاخرس)، ويلعبها الاطفال بالدور فيخرج الواحد ثم يعود مقلدا شكل أحد

الاعلانات قدر المستطاع، فيما يحاول الاخرون أن يحزروا الاعلان. ولما جاء دور بوبي جاءت وجلست تحت مظلة أمها بوضعية متوجسة فعرف الاخران أنها تمثل اعلان الثعلب الجالس تحت المظلة. وحاولت فيليس أن تجعل من المعطف المطري بساطا سحريا، ولكن المعطف كان طريا فلم ينبسط بقوة مثل البساط أو قارب النجاة. ولم يستطع أحد أن يعرف ماكانت تريد واعتقد الجميع بأن بيتركان يبالغ حين لطخ وجهه بسخام الفحم ونشر يديه ورجليه مثل العنكبوت وقال انه نقطة الحبر التي استخدمت في اعلان عن «سائل كتابة أسود أزرق»– أو «مداد أسود أزرق».

ثم جاء دور فيليس ثانية وكانت تحاول ان تبدو مثل ابي الهول الذي استخدم في اعلان عن القيام برحلات على امتداد النيل، حين اعلنت اشارة السكة عن وصول القطار الصاعد، فأسرع الاطفال الى الرصيف لمشاهدته. وكان في القاطرة السائق والوقاد أنفسهما اللذين يعتبرهما الاطفال من اعز الاصدقاء. وتبادل الطرفان عبارات التحية والمجاملة. واستفسر جيم عن القاطرة اللعبة فيما الحت عليه بوبي بقبول رزمة صغيرة مبللة بالماء تحوي قطع حلوى صنعتها بوبي بنفسها.

إزاء هذا الاهتمام الساحر من جانب الصبية، رضخ

السائق لرجائها ووعد بالسماح لبيتر بركوب القاطرة معه في احد الايام . وفجأة صاح السائق :

– ابتعدوا يازملاء . ستتحرك القاطرة . وانطلق القطار بالفعل . وظل الاطفال يراقبون انواره الخلفية الى ان توارى وراء التلال البعيدة وعادوا الى حرية قاعة الانتظار ومباهج لعبة الاعلانات .

لم يكونوا يتوقعون ان يروا سوى واحد او اثنين من طابور المسافرين ، بعدما يئس هؤلاء فأرجعوا تذاكر السفر وعادوا من حيث أتوا . لكن بدلا من هذا رأوا كتلة قاتمة كبيرة تحيط بمدخل القاعة وكانت تلك الكتلة حشدا من الناس . هتف بيتر وقد امتلأت نفسه لهفة وفرحا :

– آه ! حدث شيءٌ ! تعاليا !

قطع الثلاثة رصيف المحطة ركضاً ، ولما وصلوا الى حيث وقف الناس لم يستطيعوا بالطبع ان يروا سوى ظهور واذرع الصف الخلفي من الواقفين . كان اللغط شديدا وكان ذلك دليلا على ان شيئا ما قد حدث . قال رجل يبدو مزارعا :

– في اعتقادي انه انسان طبيعي لاضير منه .

ورأى بيتر وجه المزارع الحليق المتورد وهو يتكلم . وقال شاب يحمل حقيبة سوداء :

– لو سألتني لقلت لك انها مسألة من اختصاص مركز الشرطة .

– لا ، بل دار العجزة بالاحرى .

ثم علا صوت ناظر المحطة قائلا بلهجة رسمية حازمة :

– اليكم عني . . . افسحوا المجال . انا اتولى هذا الموضوع اذا سمحتم .

لكن الناس لم يتزحزحوا من مكانهم . ثم انبعث صوت ملأ قلوب الاطفال بالخوف اكثر من ذي قبل . لانه كان يتكلم لغة اجنبية ، واكثر من هذا انها لغة لم يسمعوا بها من قبل . فقد سمعوا كلاما بالفرنسية والالمانية . فالخالة إيما كانت تعرف الالمانية وحاولت مرة ان تغني لهم اغنية عما تعنيه كلمات مثل «يعني» و «يتصفح» و «يكون» و «المعنى» . ولم تكن لغة الرجل لاتينية والا لكان بيتر عرفها وهو الذي درس اللاتينية لمدة اربعة فصول .

ومع ذلك فقد شعر الاطفال بشيءٍ من العزاء عندما وجدوا ان لاحد من الواقفين يعرف شيئا من اللغة الاجنبية التي كان الرجل يتحدث بها .

سأل المزارع ببلادة :

– ماهذا الذي يقول ؟

فقال ناظر المحطة ، الذي زار غابات بولونيا في

احدى المرات وانفق يوما هناك :
– تبدو لي مثل الفرنسية .
فصاح بيتر :– ليست لغة فرنسية .
فانطلقت اصوات عدة تسأل :
– ماهي ، إذن ؟
وتراجع الناس الى الوراء ليروا من المتكلم فيما اندفع بيتر الى الامام ، حتى اذا التم الناس ثانية كان بيتر في الصف الامامي منهم . قال :
– لادري ماهي ، انما هي ليست فرنسية . اعرف ذلك .
ثم رأى سبب تجمهر الناس . هناك وسط الحشد كان رجل – لاشك انه الرجل الذي تكلم تلك اللغة الغريبة . رجل له شعر طويل وعينان حزينتان وملابس رثّة من زيّ لم يرَ بيتر مثيلا له من قبل – كانت يداه وشفتاه ترتجف . وعندما تكلم ثانية اتجه بعينيه الى بيتر . قال بيتر :
– لا ، ليست فرنسية .
فقال المزارع :
– جرّب معه الفرنسية ان كنت تعرفها الى هذا الحد .
فبدأ بيتر كلامه قائلا بجرأة :
– بارليه فو فرونسيه ؟ (تتكلم الفرنسية ؟) . وفي اللحظة التالية تدافع الناس متراجعين الى الوراء حين ترك الرجل

الغريب الجدار الذي كان متكئا واندفع ليتشبث بيدي بيتر وتدفق من فمه سيل من الكلمات التي لم تكن اصواتها غريبة على بيتر ، ولو انه لم يستطع ان يفهم كلمة واحدة منها .
التفت بيتر الى الواقفين ، والرجل الغريب الرث مايزال متشبثا بيديه ، والقى عليهم نظرة انتصار وقال :
– هاكم ! تلك هي الفرنسية .
– ماذا يقول ؟
فاضطر بيتر الى الاعتراف :
– لا ادري .
قال ناظر المحطة ثانية :
– والان ، تحركوا من فضلكم . انا سأتولى الموضوع . تحرك البعض من المسافرين ، الاميل الى الخضوع او الاقل فضولا ، مبتعدين ببطء وتردّد . واقتربت فيليس وبوبي من بيتر . كان الثلاثة قد اخذوا دروسا بالفرنسية في المدرسة وكم تمنوا الآن لو انهم تعلموها ! هز بيتر رأسه حائرا امام الغريب ، ولكن الغريب شدّ على يدي الصبي بحرارة ونظر اليه بطيبة . وقال واحد من الواقفين فجأة بعد تردّد : «نو كومبروني !»(*)

(*) يقصد انه لايفهم – وقد قالها بكلمات يريد بها الفرنسية وهي اقرب الى الانكليزية لفظا وصياغة . (المترجم)

ثم انسحب خجلا من بين الحاضرين وانسل مبتعدا .

وهمست بوبي للناظر :

– خذه الى غرفتك . ماما تستطيع التكلم بالفرنسية . ستصل في القطار التالي من ميدبريدج .

فأخذ الناظر بذراع الغريب فجأة ، ولكن بلطف، ولكن الرجل جذب ذراعه بعيدا وتراجع خائفا وهو يسعل ويرتجف ، محاولا ان يبعد ناظر المحطة عنه . فقالت بوبي :

– آه ، ماهكذا ! الا ترى كم هو مذعور . يظن انك ستسجنه . انا واثقة من ذلك . انظر الى عينيه !

قال المزارع :

– مثل عيني الثعلب عندما يقع في الفخ .

ومضت بوبي قائلة :

– أوه ، دعني احاول ! انا اعرف كلمة فرنسية او كلمتين ، لو استطيع ان اتذكر .

في لحظات الضيق نفعل المستحيل احيانا – نفعل امورا قد لانحلم القيام بها في الاحوال الاعتيادية . من ذلك ان بوبي لم تكن في يوم من الايام متفوقة في درس اللغة الفرنسية ، ولكن لابد ان ذاكرتها كانت تختزن الكلمات من دون ان تدري ، اذ انها تذكرت الآن ،

وهي تنظر الى عينيه الخائفتين ، ماتعرفه من الكلمات الفرنسية ، بل وقالت بعض تلك الكلمات . قالت بفرنسية ركيكة(*) :

– اصغ الي . والدتي تتكلم الفرنسية . نحن – مامعنى كلمة «عطوف» بالفرنسية ؟

لم يعرف احد من الواقفين . فقالت فيليس :

– بونغ «BONG» معناها : طيب .

فأضافت بوبي بفرنسيتها المضحكة :

– نحن طيبون نحوك .

لا ادري ان كان الرجل فهم كلماتها ، لكنه فهم لمسة يدها و رقة اليد الاخرى التي داعبت برفق كم سترته المهلهلة .

جرته برفق الى قلب صومعة ناظر المحطة وتبعها الطفلان الاخران . وسد الناظر الباب بوجه جمهور الناس فلبثوا قليلا في مكتب الحجز يتحاورون ويتطلعون الى الباب الاصغر الذي سُدَّ بوجوههم بسرعة ، ثم بدأوا يتفرقون ، فرادى وجماعات ، متذمرين .

ظلت بوبي ممسكة بيد الغريب تُرَبِّتُ على كمّه برفق .

(*) اقرب الى الفرنسية من كلمات بيتر.

(المترجم)

قال الناظر :

– هذه مسألة غريبة . لاتذكرة – بل لايدري الى اين يقصد . لست متأكدا الآن ، انما الواجب يقضي بأن اطلب الشرطة .

فصاح الاطفال الثلاثة بضراعة في وقت واحد :

– آه ، لاتفعل !

وفجأة اسرعت بوبي تقف بين الموجودين والرجل الغريب ، إذ رأته يبكي .

وكانت ضربة حظ غير اعتيادية ان تعثر على منديل نظيف بدرجة معقولة في جيبها . فمدت يديها بالمنديل للرجل وهي مولية ظهرها للاخرين حتى لايروا ذلك .

قالت فيليس :

– انتظر حتى تأتي ماما . تتكلم لغة فرنسية جميلة . كم ستحب الاستماع اليها .

قال بيتر :

– انا واثق انه لم يفعل اي شيء يستوجب السجن .

فقال ناظر المحطة :

– يبدو لي كالمتشرد . حسنا ، لامانع عندي من اعطائه فرصة الى ان تأتي امكم . لابد لي ان اعرف اي شعب يعتز بانتساب هذا الرجل اليه . لابد ان اعرف .

ثم خطرت فكرة على بال بيتر . فسحب من جيبه



مظروفا وفتحه امام الرجل فإذا هو شبه مملوء بالطوابع الاجنبية وقال :

– انتبهوا . لنعرض عليه هذه.ورأت بوبي ان الغريب قد جفف عينيه بمنديلها فقالت :

– حسن .

وعرضوا عليه طابعا ايطاليا واشاروا اليه والى الطابع وحركوا حواجبهم حركات استفهامية . فهز رأسه بالنفي . ثم عرضوا عليه طابعا نرويجيا – وكان بلون ازرق اعتيادي – ومرة ثانية اشار بالنفي . ثم عرضوا عليه طابعا اسبانيا وفي هذه اللحظة اختطف الرجل المظروف من يدي بيتر وراح يقلب الطوابع بأصابع مرتجفة . وكانت يده ، التي امتدت اليهم بحركة توضيحية ، تحمل طابعا روسيا .

فصاح بيتر :

– انه روسي . او هو يشبه «الرجل الذي كان» في رواية كيبلنغ – تعرفونها .

في تلك اللحظة جاءت اشارة بوصول القطار القادم من ميدبريدج . فقالت بوبي :

– سأبقى معه الى ان تأتي ماما الى هنا .

– الست خائفة ياآنسة ؟

فقالت بوبي وهي تنظر الى الغريب نظرتها الى كلب مريب :– أوه ، لا . انت لن تؤذيني . . أليس كذلك ؟

وابتسمت له فرد عليها بابتسامة غريبة . ثم ضحك . ومر ازيز القاطرة الثقيلة من امام المكتب فخرج ناظر المحطة وبيتر وفيليس لاستقبال القادمين . وكانت بوبي ماتزال ممسكة بيد الغريب حين عادوا ومعهم الام .

فنهض الرجل وانحنى لها باحترام شديد.

وتحدثت الأم بالفرنسية، فكان الرجل يتردّد أول الأمر ثم يردّ عليها بجمل مطولة.

أدرك الاطفال، وهم ينظرون الى وجهه ووجه أمهم، أنه كان يحكي لها عن أمور جعلتها تغضب حينا أو ترثي له أو تشعر بالأسف والسخط حينا آخر.

قال ناظر المحطة، الذي لم يستطع أن يقاوم فضوله أكثر من ذلك:

– حسناً، ياسيدي، ماالأمر؟

فقالت الأم:

– اه، كل شيءٌ حسن. هو روسي وأضاع تذكرة السفر. وأخشى أن يكون في حالة شديدة من المرض. إذا لم تمانع سآخذه معي الى البيت في الحال. حالته الصحية سيئة حقا. سآتي لأحكي لك كل شيءٌ غدا.

فقال الناظر مرتابا:

– آمل الا تكتشفي أنك اخذت معك الى البيت حيّة سامة مجمدة.

فقالت الأم بمرح وهي تبتسم:
- أوه، لا. ليس في الأمر شيءٌ من هذا القبيل. أنا واثقة. عجبا! هذا رجل عظيم في بلاده.. يؤلف الكتب - كتبا جميلة. قرأت بعضا منها. ولكن، صبراً. سأحدثك عن كل شيءٌ غدا.

تحدثت الى الروسي بالفرنسية ثانية، فكان باستطاعة الجميع أن يروا ماارتسم على وجهه من علائم الدهشة والفرح والامتنان. فنهض وانحنى باحترام لناظر المحطة وقدم ذراعه للأم بمنتهى التعظيم فاستندت اليه، ولكن الكل لاحظوا أنها كانت تسنده وتساعده على المشي لا العكس. قالت الأم:
- يابنات، أسرعن الى البيت وأشعلن نارا في الصالون وأنت يابيتر يستحسن أن تذهب لاستدعاء الطبيب.

لكن بوبي هي التي ذهبت لتأتي بالطبيب. كان الطبيب مشمّرا عن ذراعيه يعمل على تعديل سريره، حين وصلت لاهثة. قالت:
- اغفر لي إزعاجي لك، ولكن ماما أبتليت برجل روسي بائس، وأنا واثقة بأنه يحتاج الى الاشتراك في ناديك. أنا متأكدة من انه لايملك أية نقود. وجدناه في المحطة.

فتساءل الطبيب وهو يمد يده ليتناول سترته:
- وجدتموه! أكان تائها إذن؟

فأجابت بوبي بصورة غير متوقعة:
- نعم. كان تائها بالفعل. حكى لماما قصة عذبة حزينة عن حياته في فرنسا.وقالت:هل يمكن أن تتلطّف بالمجيءْ حالا. إنه يسعل بصورة عنيفة وكان يبكي.

إبتسم الطبيب، فقالت بوبي:
- اه، لاتسخر. أرجوك لاتسخر. لن تفعل هذا حين تراه. لم أر من قبل رجلاً يبكي. أنت لاتتصور المسألة. فتمنى الدكتور فوريست لو أنه لم يبتسم.

حين وصل الطبيب وبوبي الى بيت المدخنات الثلاث كان الروسي جالسا على الكرسي الهزاز، الذي يعود للوالد، مادا رجليه نحو النار المتوهجة ويحتسي شايا أعدته له أمهم. قال الدكتور:
- الرجل يبدو منهوكا، عقلا وجسما. السعال بدرجة سيئة، ولكن لاشيءْ يستعصي على العلاج. يجب أن يذهب الى الفراش في الحال. اشعلوا له نارا في الليل.

قالت الأم:
- سأشعل نارا في غرفتي. هي الوحيدة التي فيها موقد.

وبادرت الى اشعال النار هناك وقام الدكتور بمساعدة الغريب على الذهاب الى الفراش.

كان في غرفة الوالدة صندوق أسود كبير لم يره الأطفال مفتوحا في يوم من الأيام. والآن فتحته الأم،



بعدما اشعلت النار، واستخرجت منه بعض الملابس – ملابس رجالية – ونشرتها قرب النار لتطهيرها. وحين جاءت بوبي حاملة المزيد من الخشب للنار، رأت العلامة التي يحملها رداء النوم ونظرت الى داخل الصندوق، فلم تر هناك غير الملابس الرجالية وكانت كلها تحمل اسم الوالد. إذن فوالدها لم يأخذ ثيابه معه. وكان رداء النوم واحدا من ثيابه الجديدة. وتذكرت بوبي أنه اشتراه قبيل عيد ميلاد بيتر. لِمَ لم يأخذ بابا ثيابه معه؟ تسللت بوبي خارجة من الغرفة وعندئذ سمعت صوت إقفال الصندوق. كان قلبها يخفق بشدة مخيفة. لِمَ لم يأخذ بابا ثيابه معه؟ وعندما خرجت أمها من الغرفة أسرعت بوبي لتطوق خصرها بذراعيها بقوة وتهمس:

– ماما – بابا لم... لم يمت، أليس كذلك؟

– لا ياحبيبتي! ماهذه الافكار الفظيعة؟

قالت بوبي، وهي مستاءة من نفسها:

– لا... لاأدري.

لكنها ظلت في داخلها متمسكة بقرار اتخذته هو أن لاترى أي شيء لاتريدها أمها أن تراه. ضمتها أمها الى صدرها بسرعة وقالت:

– بابا كان في أحسن، أحسن حال في آخر مرة سمعت عنه. وسيعود الينا في يوم من الأيام. لاتتخيلي مثل هذه

الاشياء المخيفة ياحبيبتي!

بعدما وُضع الغريب الروسي في الفراش لينام بارتياح. جاءت الأم الى غرفة البنتين. فقد تقرر أن تنام في سرير فيليس وأن تبسط فيليس فراشها على الأرض. وكانت تلك مغامرة ممتعة في نظر البنية الصغيرة. وما أن دخلت الأم حتى هبَّ طيفان ابيضان من مكانهما وهتف صوتان متلفهان:

– هيا، ياماما، اخبرينا عن السيد الروسي. واندفع الى داخل الغرفة شكل أبيض. كان ذلك بيتر يجر وراءه لحافه مثل ذيل طاووس أبيض. قال:

– لقد صبرنا. كنت أعض على لساني حتى لاأنام وأوشكت أن أغفو، لكني عضضت على لساني بشدة، وصار يؤلمني الان كثيرا. إحكي لنا. لتكن قصة طويلة جميلة.

قالت الأم:

– لا أستطيع أن أروي حكاية طويلة، هذه الليلة، فأنا متعبة للغاية.

عرفت بوبي صوت أمها .، كانت تبكي، ولكن الاخرين لم يعرفوا ذلك. قالت فيليس:

– طيب. لتكن طويلة قدر الامكان.

وطوقت بوبي خصر أمها والتصقت بها.

– حسناً. إنها قصة طويلة بدرجة تكفي للكتاب. إنه كاتب، ألّف كتباً مدهشة. في روسيا، على أيام القيصر، ماكان الواحد يجرؤ على الكلام عما يرتكبه الاغنياء من اعمال شريرة او عما يجب القيام به من اعمال تساعد الفقراء وتجعلهم يعيشون حياة أفضل. وكل من يكتب شيئاً من هذا يضعونه في السجن.

فقال بيتر:

– لا يحق لهم ذلك. الناس لا يسجنون الا اذا ارتكبوا جرائم.

فقالت الام:

– أو عندما يحسب القضاة أنهم ارتكبوا ذنباً. نعم، هكذا الحال في انكلترا، ولكن في روسيا يختلف الأمر. لقد ألف كتابا جميلاً عن الفقراء وكيفية مساعدتهم. قرأته. كله طيبة ورأفة. سجنوه بسبب الكتاب. قضى ثلاث سنوات في زنزانة رهيبة لا يدخلها النور كلها رطوبة ومريعة. ظل وحيداً في الزنزانة ثلاث سنوات.

ارتعش صوت الأم قليلاً وسكتت فجأة. فقال بيتر:

– لكن هذا لا يمكن أن يكون حقيقياً في الوقت الحاضر. يبدو كأنه حكاية من كتب التاريخ – على ايام محاكم التفتيش أو غير ذلك.

فقالت الأم:

– بل هو حقيقي. حقيقي تماماً بدرجة مخيفة.
ثم اخرجوه من السجن وأرسلوه الى سيبريا، مقيداً بالأغلال مثل بقية المحكومين – الذين كانوا أناساً اشراراً ارتكبوا كل انواع الجرائم. طابور طويل من السجناء، مشدودين بعضهم الى بعض بسلاسل. وراحوا يمشون ويمشون ويمشون، أياماً وأسابيع حتى ظن الرجل أنهم سيظلون يمشون الى الأبد وكان الحراس يحيطون بهم من كل جانب ويضربونهم بالسياط – نعم بالسياط – كلما أنهكهم السير. بعضهم بلغ منهم التعب درجة أنهم وقعوا ارضاً ولم يستطيعوا النهوض وصار الحراس يجلدونهم بالسياط ثم تركوهم ليموتوا، أه ما افظع ذلك! واخيراً وصل الى منطقة المناجم وحكم عليه بالسجن هناك.مدى الحياة – السجن مدى الحياة لمجرد لأنه كتب رواية رائعة نبيلة طيبة.
– كيف خرج من هناك؟
– عندما قامت الحرب سمحوا لبعض السجناء الروس بالتطوع كجنود. وتطوع، ولكنه فرَّ من الجيش في أول فرصة سنحت له. فقال بيتر:
– لكن هذا منتهى الجبن، أليس كذلك؟ أن يفرّ؟ خاصة في أيام الحرب.
– هل تعتقد أنه مدين بشيء لبلد ظلمه وسبب له كل

هذا الاذى؟ اذا كان مديناً لأحد فبالدرجة الأولى لزوجته واطفاله. لايدري ماذا حل بهم.
فصاحت بوبي:
– أه، اذن فقد كان يفكر بهم ويتألم ايضا طوال بقائه في السجن؟
– أجل، كان يفكر بهم طوال الوقت ويتعذب لأنه كان يدري أنهم قد يسجنون هم ايضاً.هكذا كانوا يفعلون في روسيا. ولكن عندما كان في مناجم سيبريا، استطاع أحد اصدقائه أن يوصل اليه رسالة عرف منها أن زوجته وأطفاله تمكنوا من الهرب وجاؤوا الى انكلترا. ولذلك جاء الى هنا بعد فراره من الجيش ليبحث عنهم.
فسأل بيتر ذو التفكير العملي:
– هل حصل على عنوانهم؟
– كلا. مجرد في انكلترا. كان في طريقه الى لندن، وقد توهم أن تبديل القطار الى لندن يتم في هذه المحطة. ثم اكتشف أنه ضيّع تذكرة السفر وحافظة نقوده.
– تعتقدين أنه سيعثر عليها؟ – أعني عائلته، زوجته وأطفاله، لا التذكرة والاشياء الاخرى.
– آمل ذلك. أه، آمل وأدعو له من الخالق أن يجد زوجته وأطفاله ثانية.
ولكن حتى فيليس شعرت في تلك اللحظة بأن صوت

أمها كان مهزوزاً. فقالت:

– أراكِ يا أماه، تبدين حزينة جداً لأجله.لم تجب الأم أول الامر ثم ما لبثت أن قالت:

– أجل.

وبدا عليها الاستغراق في التفكير، فلزِم الاطفال الصمت.وفجأة قالت:

– اعزائي. أظن أنكم ستدعون من الله، وعند تلاوة صلاتكم، أن يمن برحمته على السجناء والأسرى.

أعادت بوبي القول ببطء:

– يمنَّ برحمته على السجناء والأسرى جميعاً. أهذا صحيح ياماما؟

أجابت الأم:

– نعم، على السجناء والأسرى جميعاً.
السجناء والأسرى جميعاً.

الفصل السادس

منقذو القطار

تحسنت حال السيد الروسي في اليوم التالي وأكثر في اليوم الذي تلاه. وفي اليوم الثالث استعاد من العافية مامكّنه من الخروج الى الحديقة. فوضعوا له كرسيا من الخيزران ذا مساند وكان مرتديا بعض ملابس الوالد التي كانت فضفاضة عليه. ولكن الملابس صارت أنسب له عندما قامت الأم بكف الطول الزائد في الاكمام والسراويل. عادت ملامح الطيبة الى وجهه بعدما كان متعبا خائفا وصار يبتسم للأطفال لما رآهم. وتمنوا لو أنه يتكلم الانكليزية. كتبت الأم عدة رسائل الى الناس الذين تعتقد بأنهم قد يعرفون شيئا عن مصير زوجة السيد الروسي وأطفاله في انكلترا. ولم تكتب الى الناس الذين كانت تعرفهم قبل انتقالها للعيش في بيت المدخنات الثلاث. لم تكتب لأي منهم – بل لأناس غرباء، بينهم نواب في البرلمان ورؤساء تحرير صحف وأمناء سر جمعيات.

وقد انشغلت عن كتابة القصص ولم تفعل سوى تصحيح المسودات في أثناء جلوسها مع الروسي في دفء الشمس تحادثه بين حين وآخر.

كان الاطفال شديدي الرغبة في إظهار عطفهم على الرجل الذي ذاق مرارة السجن والعذاب في سيبريا لمجرد أنه كتب رواية جميلة عن الفقراء. كانوا يبتسمون له بالطبع. ولكن اذا بقيت مبتسما طوال الوقت فقد تبدو ابتسامتك جامدة مثل ابتسامة الضبع، وعندئذ لاتعود ابتسامة ودية، بل تكشيرة سخيفة. لذا أخذوا يجربون طرقا أخرى فراحوا يجلبون له الزهور حتى اكتظ المكان بباقات صغيرة ذابلة من أزهار البرسيم والورود وأجراس كانتربري.

ثم خطرت على بال فيليس فكرة. أومأت لبيتر وبوبي سرا بأن يلحقابها في باحة البيت الخلفية وبعدما اختبأ الثلاثة بين مضخة الماء والخزان، قالت فيليس:

– ألا تذكران أن (بيركس) وعدني باعطائي أول ماينضج من التوت من حديقته؟ بيركس، تتذكران، حمال المحطة. جسنا، أعتقد أن التوت نضج الان. هيا بنا لنراه.

كانت الأم قد ذهبت الى المحطة لتخبر الناظر بحكاية السجين الروسي كما وعدته من قبل. لكن كل مافي المحطة والتلال المحيطة بها من سحر لم يستطع أن يبعد الأطفال

من جاذبية وجود الغريب الروسي، فلم يذهبوا الى المحطة طيلة ثلاثة أيام. وأخيرا ذهبوا الى هناك. ولكم أصيبوا بالدهشة والخيبة حين استقبلهم بيركس بمنتهى البرود فقال، حين أطلوا عليه برؤوسهم من باب غرفته:

– تشرفت كثيرا، بالتأكيد.

ومضى يقرأ صحيفته.

مرّت فترة صمت مشدود. ثم تنهدت بوبي وقالت:

– أوه، ياعزيزي، اعتقد جازمة بأنك زعلان.

فقال بيركس بكبرياء:

– ماذا، أنا؟ أنا لا! لايعني شيئا بالنسبة لي.

فتساءل بيتر، وهو قلق ومستاء من تغيّر اللهجة:

– ماهذا الذي لايعني شيئا بالنسبة لك؟

فقال بيركس:

– لاشيءَ يعني لاشيءَ. مايحدث هنا أو في أي مكان اخر. إذا كنتم تحبون الاحتفاظ بأسراركم فاحتفظوا بها والسلام. هذا ماأردت أن أقوله.

تلت ذلك فترة صمت عاد الاطفال خلالها الى قلوبهم يبحثون فيها بسرعة عن أسرار وهزوا رؤوسهم نفيا.

قالت بوبي أخيراً:

– ماعندنا أسرار نخفيها عنك.

قال بيركس:

– ربما عندكم أو ماعندكم. لايعني شيئا بالنسبة لي. وأرجو لكم جميعا أمسية طيبة.

وجعل من الصحيفة حاجزا بينه وبينهم وراح يقرأ. فقالت فيليس بيأس:

– اوه، لاتعاملنا هكذا! هذا فظيع حقا! أخبرنا بالمسألة مهما كانت.

– مهما تكن فنحن لم نقصدها. فلم يجب بيركس، بل طوى جانبا من الصحيفة وراح يقرأ عمودا اخر. قال بيتر فجأة:

– إسمعني. هذا ليس انصافا. حتى الناس الذين يرتكبون جرائم لايعاقبون من دون أن يعرفوا سبب العقاب – لا كما كان الحال في روسيا.

– أنا لاأعرف أي شيء عن روسيا.

– لا، بل تعرف. فقد جاءت ماما خصيصا لتحكي لكما، أنت ومستر جيلز، كل شيء عن ضيفنا الروسي.

فقال بيركس ساخطا:

– الا تستطيع أن تتخيل؟ ألا ترى الناظر يرجوني أن أدخل الى غرفته وأحتل أحد الكراسي وأستمع الى ماتقوله سيادة الوالدة؟.

– تعني بكلامك هذا أنك لم تسمع شيئا؟

– أقل من لحظة. لم أكد أطرح سؤالا حتى أسكتني..

سد في مثلما تسد مصيدة فئران. «أمور تتعلق بالدولة يابيركس».. هو يقول. لكني ظننت أن أحدكم لابد سيأتي ويخبرني – أنتم لاتأتون الى هنا في الموعد الا حين تريدون الحصول على شيء من العجوز بيركس.

احمرّ وجه فيليس لفكرة المجيء من اجل التوت، فيما تابع بيركس كلامه:

– الحصول على معلومات عن القاطرات او اشارات المرور او ما شاكل.

فاندفع الثلاثة يقولون في اللحظة نفسها:

– ماكنا ندري انك لاتدري.

– تصورنا ان ماما اخبرتك.

– اردنا ان نقول لك اننا لو اخبرناك فان اخبارنا ستكون متأخرة.

قال بيركس ان ذلك حسن، لكنه ظل ممسكا بالصحيفة. واذا بالصغيرة فيليس تخطف الصحيفة منه وترميها بعيدا ثم تطوق عنقه بذراعيها وتقول:

–اوه، لنقبّل بعضنا بعضا ونكون اصدقاء سنعتذر اولا، اذا احببت، ولكن صدقني اننا لاندري انك لم تعرف.

وقال الاخران:

– نحن متأسفون.

ورضي بيركس اخيرا بقبول اعتذارهم . ثم جعلوه يخرج من غرفته ليتمدد معهم على المنحدر الاخضر المطل على خط السكة حيث العشب دافئ تماما بفعل حرارة الشمس . هناك راح الاطفال ، وهم يتكلمون واحدا واحدا حينا وكلهم دفعة واحدة حينا آخر ، يحكون لحمال المحطة قصة السجين الروسي .

قال بيركس :

– حسنا ، يجب ان اقول . . غير انه لم يقل شيئا ، اي شيئ . قال بيتر :

– نعم ، شيئ فظيع للغاية ، أليس كذلك ؟ وانا لااستغرب تلهفك لمعرفة من هو الروسي .

فقال الحمال :

– ماكنت متلهفا بقدر ماكنت مهتما .

– طيب . اعتقدت ان المستر جيلز لابد ان يكون قد حكى لك عن الموضوع . عيب الاّ يفعل .

فقال الحمال :

– انا لا الح عليه في امور كهذه ، ياآنستي . تدرين لماذا ؟ لأني افهم اسبابه . فهو لايريد أبدا ان يتخلى عن معتقداته بسبب حكاية كهذه . ليست مسألة طبيعة بشرية . على الانسان ان يقف الى جانب جماعته بصرف النظر عما يفعلون . هذا هو المقصود بسياسة الحزب . انا

كنت سأفعل الشيئ نفسه حتى لو ان صاحبنا ذا الشعر الطويل هذا كان يابانيا .

فقالت بوبي :

– لكن اليابانيين لم يفعلوا اشياء شريرة وحشية كهذه .

فقال بيركس بحذر :

– ربما لم يفعلوا . ولكن ، مع الاجانب يصعب التأكد بصورة قاطعة . في اعتقادي الشخصي كلهم مزفتون بنفس الفرشاة .

فسأله بيتر :

– إذن ، لماذا ايدت اليابانيين ؟

– حسنا . لاحظ انك لابد ان تنحاز الى هذه الجهة او تلك . كما هي الحال مع الاحرار والمحافظين . الشيئ العظيم ان تنحاز الى جهة وتثبت على موقفك مهما حدث .

اعلنت الاشارة قرب وصول قطار . قال بيركس :

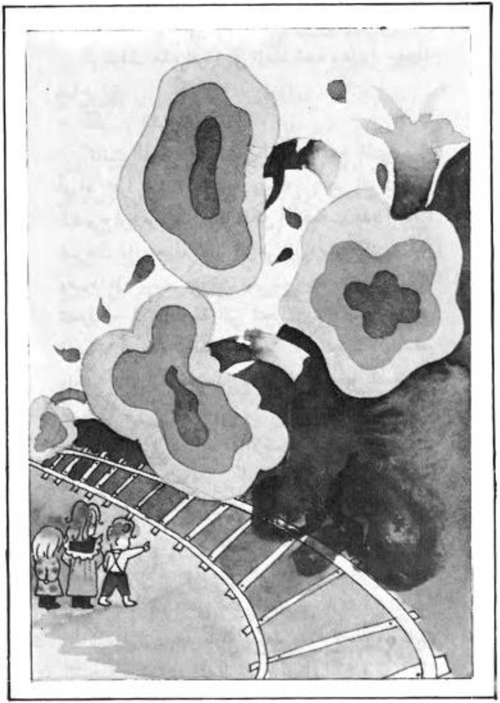
– هذا قطار الساعة ٣/١٤ الصاعد . انطرحوا ارضا الى ان يمر ثم اصعدوا الى بيتي ولاحظوا ان كان بعض التوت قد نضج كما قلت لكم من قبل .

قالت فيليس :

– اذا وجدت بعض التوت الناضج وانت وافقت على اعطائي ، فهل تمانع في ان اعطي التوت للروسي المسكين هل تمانع ؟

فضيق بيركس عينيه ثم رفع حاجبيه مستغربا وقال :
– إذن ، فمن اجل التوت جئتم اليوم ، ها ؟
كانت لحظة محرجة بالنسبة الى فيليس . لو قالت «نعم» فذلك يدل على قلة الذوق والشراهة والاساءة الى بيركس . وشعرت بأنها لو اجابت بالنفي فلن ترضى عن نفسها بعد ذلك . وإذن . . . . قالت :
– اجل ، هذا هو الواقع .
فقال الحمال :
– نعم القول ! قل الحقيقة وليذهب الـ . . . فأضافت فيليس بسرعة :
– لكن ، كنا سنأتي اليك في اليوم التالي لوكنا عرفنا انك لم تسمع بالقصة .
فقال بيركس :
– صدقت ياآنستي .
وقفز عابرا السكة الى الجانب الآخر على مسافة ستة اقدام من القطار القادم . فانزعجت الفتاتان من هذه الحركة وبينما اعجبت بيتر . كانت بالنسبة اليه حركة في منتهى الاثارة .
فرح السيد الروسي فرحا شديدا بحبات التوت التي اراد بها الاطفال ان تكون مفاجأة اخرى له . ثم راحوا يشحذون اذهانهم بحثا عن مفاجأة جديدة فلم يتوصلوا

الى اكثر من فكرة جمع بعض الكرز البري . وجاءتهم هذه الفكرة صباح اليوم التالي . كانوا قد رأوا الازاهير تتفتح على الاشجار في الربيع وعرفوا اين يبحثون عن الكرز وقد حان موعد قطافه . كانت اشجار الكرز البري منتشرة على امتداد الواجهة الصخرية للتل الذي يخترقه نفق القطار . فهناك تنمو اشجار مختلفة من الغَرَب والخوخ والبلوط والبندق . وكانت زهرات الكرز تلمع بين الاغصان كأنها حبات من الثلج والفضة .
كانت فتحة النفق تبعد عن بيت المدخنات الثلاث مسافة غير قليلة ، لذلك سمحت الأم لهم بأن يأخذوا غذاءهم معهم في سلة. وكانت السلة ستنفعهم في جمع الكرز اذا وجدوا منه شيئاً. كذلك اقرضتهم ساعتها الفضية حتى لايتأخروا عن وقت تناول الشاي.
ذلك أن ساعة بيتر «الووتربري» كانت قد قررت التوقف منذ أن وقعت منه في خزان الماء. وبدأوا سفرتهم القصيرة. وعندما وصلوا الى أعلى الواجهة الصخرية اتكأوا على السياج واطلوا على خط السكة الممتد في باطن ماوصفته فيليس بأنه واد جبلي ضيق.
– لو لم تكن سكة القطار هناك لما مرت فيه قدم انسان مطلقاً، أليس كذلك؟
كانت جوانب الواجهة من الصخور الرمادية،



المقطوعة بطريقة سيئة. وكان الجزء العلوي من الواجهة، في الاصل، وادياً صغيراً تم حفره الى مستوى مدخل النفق. وانتشرت بين الصخور الاعشاب والزهور فيما نبتت من البذور المتساقطة في شقوق الصخور أجمات واشجار راحت تتدلى فوق الواجهة الصخرية. كان قرب مدخل النفق سُلَّم ينزل الى سكة القطار – هو عبارة عن كتل سميكة من الخشب غرست في تراب المنحدر بصورة ضعيفة – هو اقرب الى درب ضيق شديد الانحدار، الى درج، منه الى سلم حقيقي. قال بيتر:

– يستحسن أن ننزل. أنا متأكد من أننا يمكن أن نجمع حبات الكرز بسهولة هناك قرب الدرج. الا تذكران أننا التقطنا من هنا زهرات الكرز التي وضعناها على قبر الأرنب؟

وهكذا مضوا يمشون بمحاذاة السياج صوب البوابة التي تؤدي الى الدرج. وما أن أوشكوا على الوصول الى البوابة حتى قالت بوبي:

– إش. قفا! ماهذا؟

وكان «هذا» ضجة غريبة بمعنى الكلمة، ضجة خافتة، ولكن يمكن سماعها بوضوح من خلال حركة الريح في أغصان الأشجار وطنين أسلاك البرق، كان ذاك نوعاً من صوت يشبه الهمس والحفيف. ولما انصتوا اليه

توقف ثم بدأ ثانية.

لم يتوقف هذه المرة، بل ازداد شدة وهديراً. وفجأة صاح بيتر:

– انظر... الشجرة هناك!

كانت الشجرة التي أشار اليها من النوع الذي يحمل أوراقا سمراً خشنة وزهوراً بيضاء. يأخذ التوت قبل النضوج لوناً قرمزياً زاهياً، ولكن اذا قُطفت هذه الحبات فسرعان ما يتحول لونها الزاهي الى أسود كئيب قبل وصولها الى البيت. بينما كان بيتر يشير بيده راحت الشجرة تتحرك – لا بالطريقة التي تتحرك بها الاشجار فتمايل اغصانها أو تنحني بفعل الريح – بل تتحرك كلها دفعة واحدة كأنها انسان ينحدر نازلاً على الواجهة الصخرية.

صرخت بوبي:

– إنها تتحرك! آه، انظرا! الاشجار الاخرى أيضاً. مثل الغابة في «مكبث».

فقالت فيليس، مبهورة الانفاس:

– هذا سحر. كنت ادري دائماً أن السكة مسحورة. والحق أن الأمر بدا مثل السحر بعض الشيء. فقد راحت الاشجار، على امتداد عشرين ياردة من المنحدر المقابل، تنزلق ببطء نازلة صوب سكة القطار، وكانت الشجرة ذات الأوراق السمر تنزلق في المؤخرة كأنها راع

يسوق أمامه قطيعا من خراف خضر.

تساءلت فيليس:

– ماهذا؟ آه، ماهذا؟ هذا سحر أكثر مما اتحمل. لا أحب ذلك. لنعد الى البيت.

لكن بوبي وبيتر تمسّكا بالسياج بقوة وراحا يراقبان المشهد مذهولين. ولم تتحرك فيليس من مكانها لتعود الى البيت.

استمرت الأشجار في الانزلاق وانحدر بعض الصخور والتراب ليسقط بصوت مسموع على خط السكة حاول بيتر أن يقول:

– كل شيء ينهار.

ثم اختنق صوته ولم يقدر على الكلام. وبالفعل زحفت صخرة كبيرة نحو الاسفل. وفي اعقابها الاشجار المتحركة. بعدها توقفت الاشجار وارتجفت ومالت بجذوعها الى الاسفل. كانت لحظات توقف ثم انحدرت الصخرة الكبيرة ومن ورائها الاشجار والاعشاب والشجيرات منزلقة على الواجهة الصخرية وهوت على سكة القطار بدوي شديد يمكن أن يسمع من مسافة نصف ميل. وارتفعت سحابة من الغبار.

قال بيتر بصوت مرعوب:

– آه، أليس هذا مثل انهيار تل من الفحم بالضبط؟

كما لو أنه قبو بلاسقف ونحن ننظر اليه من فوق.وقالت بوبي:

– انظرا، ماأكبر الركام الذي صنعه!

وقالت فيليس:

– نعم، وعلى السكة تماماً.

قالت بوبي:

– يتطلب بعض الوقت لازالته.فقال بيتر ببطء، وهو مازال متكئاً على السياج:

– نعم.

ثم أضاف ببطء أشد:

– نعم

ثم اعتدل واقفا.

– قطار الـ (٢٩ / ١١) النازل لم يصل بعد. يجب أن نخبر المحطة والا حصلت أفظع حادثة.

قالت بوبي:

– لنركض

وبدأت تركض. لكن بيتر صاح:

– ارجعي! انظري الى الساعة.

كان انساناً عملياً وحازماً جداً. وقد غاض الدم من وجهه بشكل لم يسبق له مثيل. قال:

– لا وقت لدينا. المسافة الى المحطة عشرة أميال والساعة

تجاوزت الحادية عشرة.واقترحت فيليس وقلبها يدق من الخوف:

– ألا يمكننا... الا يمكننا تسلق عمود برق وعمل شيء بالأسلاك؟

فقال بيتر:

– لا نعرف كيف.

قالت فيليس:

– يعملون هذا ايام الحرب. سمعت بذلك.

فقال بيتر:

– يقطعونها فقط ياغبية. هذا لا ينفع . نحن لانقدر على قطع الاسلاك حتى لو تسلقنا العمود. ولا نستطيع أن نصعد. لو كنا نملك أي شيء أحمر لأمكن أن ننزل الى السكة لنؤشر للقطار.

– لكن القطار لن يرانا الا بعد اجتياز الاستدارة. وعندما يصل يمكنه أن يرى انهيار الصخور مثلما يرانا.

قالت فيليس:

– أحسن، لأن الركام أكبر منا بكثير.

كرر بيتر القول:

– لو كانت لدينا فقط قطعة حمراء، لكان بامكاننا أن نذهب الى الاستدارة ونؤشر للقطار من هناك.

– يمكننا التأشير للقطار، على أية حال.

– سيتصورون أننا نلوح لهم كالعادة. على أية حال، هيا بنا ننزل الى السكة.

ونزلوا عن طريق السلم المنحدر. كانت بوبي شاحبة الوجه ترتجف. وبدا وجه بيتر أشد نحافة من المعتاد. وكانت فيليس محمرة الوجه تتصبب عرقا من شدة القلق. قالت:

– آه، ماأشد حرارتي! تصورت أن الجو سيكون باردا. ليتنا مالبسنا...

وتوقفت ثم أكملت جملتها بلهجة أخرى مختلفة:

– تنوراتنا الداخلية القطنية.

التفتت بوبي، وهي في أسفل السلم وصاحت:

– آه، نعم هي حمراء. فلنخلعها.

وخلعت الصبيتان التنورات الداخلية ولفت كل منهما تنورتها تحت أبطها وركضتا على السكة ودارتا من حول ركام الصخور والأتربة والشجيرات المنهارة على خط السكة وراحتا تركضان بأسرع ماتسطيعان يتقدمهما بيتر. ووصلوا أخيراً الى الاستدارة التي تبعد عن الركام مسافة نصف ميل تقريبا. قال بيتر، وهو يتناول أكبر التنورتين:

– والآن.

قالت فيليس، وهي تترنح من التعب:

– لن تفعل. لن تشقها، ها؟ فصاح بها بيتر بلهجة

صارمة:

– إخرسي.

قالت بوبي:

– آه، نعم. مزقها الى قطع صغيرة اذا شئت. ألا ترين يافيليس أننا إذا لم نستطع إيقاف القطار فسوف تحصل حادثة حقيقية، يموت فيها ناس. آه، شيءٌ مرعب! من هنا، بيتر، لايمكنك أبدا تمزيقها من عند الحزام!

وأخذت منه التنورة الحمراء وشقتها من موضع يبعد قليلا عن الحزام، ثم شقت التنورة الأخرى بالطريقة نفسها.

قالت بيتر، وهو يتولى تمزيق التنورات:

– هاكم!

وقسم كل تنورة الى ثلاث قطع:

– عندنا الان ستة أعلام.

ونظر الى ساعته ثانية:

– أمامنا سبع دقائق فقط. يجب أن نجمع أعوادا لشد الأعلام.

قلما تكون السكاكين التي تعطى للصبيان عادة، من الفولاذ الذي يبقى حادا. وكان لابد من قطع سيقان الشجيرات. فاضطر الاطفال الى انتزاع بعض الشجيرات من جذورها وقام بيتر بتجريدها من الأوراق بوساطة

السكين وقال:

– يجب أن نصنع ثقوبا في الاعلام ونمرر الاعواد في الثقوب.

وفتح ثقوبا في الاعلام بوساطة السكين. وركز الاطفال اثنين من الاعلام في أكوام الصخور الصغيرة بين دعامات السكة. ثم تناولت فيليس وروبرتا علمين ووقفتا على أهبة الاستعداد للتلويح بهما حال مايظهر القطار.

وقال بيتر:

– أنا أحمل العلمين الباقيين، لأن فكرة التأشير بأشياء حمراء كانت فكرتي.

قالت فيليس تجادله:

– لكنها تنوراتنا نحن و...

فقاطعتها بوبي:

– أوه، ماذا يهم أن يلوح هو بعلم أو أكثر مادام المهم أن نتمكن من انقاذ القطار؟

ربما لم يحسب بيتر بصورة صحيحة عدد الدقائق التي يحتاجها القطار لقطع المسافة من المحطة الى مكان وقوفهم، أو ربما كان القطار متأخراً. فقد بدا للأطفال، على أية حال، أنهم انتظروا طويلا. نفد صبر فيليس فقالت:

– اظن أننا ننتظر في مكان مغلوط. والقطار قد ذهب.

وتراخت وقفة بيتر البطولية وهو يحمل العلمين. وبدأت بوبي تشعر بالاعياء من شدة القلق والتوتر فقد تصورت أنها ظلت واقفة ساعات طويلة ممسكة بالعلم الأحمر الصغير السخيف الذي لاينتبه اليه أحد. فالقطار لن يهتم. سيمضي من أمامهم منطلقا بسرعة ويلف حول الاستدارة ويندفع ليصطدم بالركام. وسيقتل كل الركاب. شعرت بوبي بيديها تبردان وترتجفان حتى انها لم تستطع الامساك بالعلم. ثم جاء صوت هدير من بعيد وصرير حديد، وارتفعت دفقة بخار أبيض فوق السكة عن بعد.

هتف بيتر:

– قفا بثبات ولوحا بالأعلام بجنون! عندما يصل الى الدغل الذي هناك إرجعا الى الوراء، ولكن استمرا في التلويح! بوبي، لاتقفي على السكة!

وجاء القطار هادرا، منطلقا بأقصى سرعة. فصرخت بوبي:

– هم لايروننا! لن يروننا! لافائدة من ذلك أبدا!

وتأرجح العلمان الصغيران المنصوبان على السكة لدى اقتراب القطار، ثم مالبثت الأحجار الصغيرة التي تمسك بأحد العلمين أن تناثرت بفعل اهتزاز السكة، فتمايل بقوة ووقع.

فقفزت بوبي الى الأمام والتقطت العلم وراحت تلوّح به ولم ترتجف يدها هذه المرّة.

وبدا القطار منطلقاً بأقصى سرعة. وها هو يقترب. قال بيتر بلهجة قاسية:

– ابتعدي عن السكة، ايتها الوقواق الغبي! فقالت بوبي ثانية:

– لا فائدة من ذلك.

وصرخ بيتر:

– ارجعي الى الوراء!

وجر فيليس من ذراعها الى الوراء فجأة. لكن بوبي صاحت:

– ليس الآن، ليس الآن.

وقفت في وسط السكة تلوّح بالعلمين. وكانت مقدمة القاطرة سوداء هائلة الحجم، وصوتها عاليا مزمجراً.

صرخت بوبي: «آه، توقفوا، توقفوا، توقفوا!»ولكن لم يسمعها أحد، أو بيتر وفيليس على الاقل لم يسمعاها، لأن هدير القطار القادم طغى على صوتها عشرات المرات.

لقد ظلت بوبي، فيما بعد، تتساءل ماإذا كانت القاطرة قد سمعت صياحها. اذ يبدو أن القاطرة سمعتها فعلاً – فقد خفّضت سرعتها فجأة، خفضت سرعتها

وتوقفت على بعد عشرين ياردة تقريباً من بوبي. رأت بوبي القاطرة العملاقة تتجمد في مكانها، ولكنها لم تستطع التوقف عن التلويح بالأعلام. وبينما نزل السائق والوقاد من القاطرة وأسرع بيتر وفيليس اليهما ليحكيا لهما قصة الركام المخيف الذي انهار على السكة وراء الاستدارة، ظلت بوبي في مكانها تلوّح بالاعلام ولكنها كانت تترنح من شدة الاعياء.

عندما التفت اليها الاخرون وجدوها مطروحة على السكة ويداها مازالتا ممسكتين بالعلمين الاحمرين الصغيرين. رفعها سائق القاطرة وحملها الى القطار أراحها على أريكة وثيرة في احدى عربات الدرجة الاولى، وقال:

– اغمي عليك، ايتها المرأة الصغيرة المسكينة. لا غرابة في ذلك. سأذهب لألقي نظرة على هذا الركام الذي تتحدثون عنه، ثم نعود بكم الى المحطة ونعمل على علاجها.

كم كان مخيفا منظر بوبي وهي ملقاة على السكة فاقدة الوعي شاحبة اللون، ساكنة الاطراف، مفتوحة الفم، مزرقّة الشفتين. همست فيليس:

– أعتقد أن شكل الناس يصبح هكذا عندما يموتون. فزجرها بيتر قائلاً:

– اسكتي!

جلسا على الاريكة قرب بوبي وتحرك القطار عائداً وقبل وصوله الى المحطة تنهدت بوبي وفتحت عينيها وانقلبت على جنبها وراحت تبكي. فرح الاخرون لهذا المنظر فرحاً عظيماً. لم تكن هذه أول مرة تبكي فيها بوبي، لكنها المرة الاولى التي يرون فيها بوبي أو غيرها في حالة اغماء. ولذلك حاروا في الأمر لايدرون ماذا يفعلون، أما الان، وقد أصبحت المسألة مجرد بكاء.صار بالامكان أن يضربوها على ظهرها ويطلبوا منها الكف عن البكاء، كما يفعلون دائما. وما أن توقفت عن البكاء حتى اخذوا يضحكون عليها لأنها وقعت مغمى عليها لفرط جبنها.

حين وصل القطار الى المحطة استُقبل الابطال الثلاثة استقبالاً حماسياً. وصارت عبارات المديح والثناء تنهال عليهم لما أبدوه من «عمل حازم» و «تقدير جيد للعواقب» و «روح ابتكار وابداع» بحيث تطرب اي واحد وتملأ نفسه زهواً. استمتعت فيليس بهذا الاستقبال غاية الاستمتاع. إذ لم يحصل من قبل ابداً أن صارت بطلة حقيقية، واحمرت اذنا بيتر احمراراً شديداً، ولكن ذلك لم يمنعه من الاستمتاع بحرارة الاستقبال هو الاخر. الوحيد الذي لم يهتم بالاستقبال هي بوبي. كانت تريد الذهاب.

قال ناظر المحطة:

– ستكافئكم الشركة على هذا العمل.. لكن بوبي تمنت الا تسمع شيئا عن الموضوع ثانية. جرّت بيتر من سترته وقالت:

– أوه، هيا بنا، هيا نذهب! أريد العودة الى البيت.

وذهبوا. وأطلق ناظر المحطة والحمال والحراس وسائق القاطرة والركاب وراءهم الهتافات. فصاحت فيليس:

– آه، اسمعا. هذه الهتافات لنا!

فقال بيتر:

– نعم. أقول: أنا فرحان لأني فكرت بشيء أحمر نلوّح به.

– لحسن الحظ أننا لبسنا تنوراتنا الداخلية القطنية الحمراء!

لم تقل بوبي شيئاً. كان ذهنها مشغولاً بموضوع الركام الفظيع لو ان القطار السريع اصطدم به.

قال بيتر:

– نحن الذين انقذوا القطار.

قالت فيليس:

– ما أفظع المسألة لو ان الركاب ماتوا جميعاً! أليس كذلك يابوبي؟

فقالت بوبي:

– على اية حال لم نحصل على الكرز.
فتصوّر الآخران أنها انسانة بلا قلب.

الفصل السابع

هكذا الشجاعة

آمل ألاّ تملّوا حديثي الطويل عن روبرتا. الحقيقة أني أزداد تعلقا بها يوما بعد يوم. وكلما راقبتها اكثر ازداد حبّي لها. وأنا ألاحظ كل مايتعلق بها من أمور أحببها.

من ذلك أنها تهتم اهتماما بالغا بإسعاد الآخرين. وتحفظ الاسرار.، روح اجتماعية نادرة بكل معنى الكلمة. وهي تمتلك قدرة على التعاطف بصمت. أدري أن تعاطفا كهذا قد يبدو سخيفا، لكنه ليس سخيفا بالمرة. إنما هو يعني أن هناك إنسانا يشعر بحزنك ويفيض عليك من حبه من دون أن يزعجك بالحديث عن حبه لك وحزنه لأجلك. هكذا كانت بوبي. كانت تدري أن أمها حزينة وأنها لم تخبرها بالسبب. لذلك اكتفت بأن تحب أمها أكثر من السابق وأن لاتقول كلمة واحدة تجعل الأم تكتشف كم هي حزينة فتاتها الصغيرة لحزنها. ان مثل هذا السلوك يحتاج الى تدريب وممارسة، وليس سهلا كما تتصورون.

كانت بوبي – حتى في اثناء المناسبات السعيدة اللطيفة كالنزهات والألعاب وتناول الكعك المُحَلَّى مع الشاي – تفكر بحزن أمها: «ماما حزينة. لماذا؟ لاأعرف. ولاتريدني أن أعرف. لن أحاول معرفة السبب. لكنها غير سعيدة. لماذا؟ لاأدري.. وهي لاتريدني أن...». وتتكرر هذه التساؤلات وتتكرر مثل نغم لاتعرف أين يبدأ وأين ينتهي.

ومازال السيد الروسي يشغل جانبا كبيرا من تفكير الكل. فقد أجاب محررو الصحف وأمناء سر الجمعيات وأعضاء البرلمان جميعاً على رسائل الأم بكل مالديهم من مقتضيات اللياقة والأدب، ولكن لم يستطع أي منهم أن يعرف مكان زوجة السيد (شكابنسكي) وأطفاله. (ألم اخبركم من قبل بأن اسم السيد الروسي هو شكابنسكي؟).

وكانت لبوبي مزيّة أخرى ستسمعون عنها اراء مختلفة باختلاف الاشخاص. فهناك من يسميها تدخلا في شؤون الاخرين – وهناك من يعدّها «مساعدة الاخرين على الخروج من مأزق». ويصفها آخرون بأنها «حب ورأفة». إنما هي مجرد محاولة لمساعدة الاخرين.

راحت تعصر ذهنها للتوصل الى طريقة تساعد بها السيد الروسي في العثور على زوجته وأطفاله. كان الرجل



قد تعلم بضع كلمات انكليزية. فصار يقول «صباح الخير» و «طابت ليلتكم» و «رجاء» و «شكرا» و «جميل» عندما يجلب له الاطفال زهورا، و «جيد جداً» حين يسألونه عن نومه.

شعرت بوبي بأن الطريقة التي يبتسم بها حين يقول كلماته الانكليزية «عذبة الى حد كبير». وكانت دائمة التفكير بوجهه لأنها تصورت أن ذلك يساعدها على معاونة الرجل بشكل من الأشكال. لكنه كان وهما. ومع ذلك كان وجوده عندهم يملأ قلبها بهجة لأنه يفرح أمها.

قالت بوبي:

– ماما تحب دائما أن تجد من تعطف عليه، الى جانبنا نحن. أدري أنها تكره أن يرتدي ثياب والدي. أتصور أنها تعذب نفسها قليلا، والا مافعلت ذلك.

انقضت أيام وليال كثيرة على قيامها هي وبيتر وفيليس بانقاذ القطار من الكارثة باستعمال الاعلام الحمراء الصغيرة، لكنها ظلت تهب من نومها وتروح تصرخ وترتجف إذ ترى في أحلامها الركام الكبير على السكة والقطار آتيا بأقصى سرعة ليصطدم به وتقع كارثة – لتكتشف أن ذلك كابوس وأن كل شيء بخير. ثم يغمرها شعور بالسعادة حين تتذكر كيف أن الثلاثة وأعلام التنورات القطنية الحمراء استطاعوا فعلا أن ينقذوا القطار

وركابه من الهلاك.

في صبيحة أحد الأيام وصلتهم رسالة، معنونة الى بيتر وبوبي وفيليس. ففتحوها بلهفة وحماس لأنهم لايتلقون رسائل عادة. جاء فيها:

«سيدي العزيز، سيداتي العزيزات:

المفروض أن نقدم لكم هدية صغيرة تقديرا لعملكم الحازم والشجاع بتحذير القطار بتاريخ – الجاري، والحيلولة بالتالي دون وقوع حادث مروع، وفق المعايير الانسانية. وسيجري تقديم الهدية في المحطة في الساعة الثالثة من يوم (٣٠) الجاري اذا وجدتم الوقت والمكان مناسبين.

المخلص

جينز انغلوود

سكرتير شركة السكك الشمالية والجنوبية الكبرى»

لم يشعر الاطفال من قبل بمثل الفخر الذي شعروا به في تلك اللحظة. فأسرعوا الى أمهم حاملين الرسالة. وشعرت الأم بالفخر هي الاخرى وقالت لهم ذلك فزادهم ذلك فرحا على فرحهم.

قالت الأم:

– لكن اذا كانت الهدية نقودا. قولوا لهم: «شكرا، نفضل ألاّ نأخذها».

ثم أضافت:

– سأغسل ثيابكم، المصنوعة من الموسلين الهندي، حالاً. يجب أن تبدو أنيقين في مناسبة كهذه.

قالت بوبي:

– نستطيع، فيليس وأنا، أن نغسلها وأنت تكويها ياماما.

إن غسل الثياب متعة. لاأدري إن كنتم جربتم هذه المتعة؟ وقد تم غسل ثياب الموسلين في المطبخ الخلفي ذي الأرضية الحجرية وحوض غسل الصحون الحجري الكبير تحت النافذة. قالت فيليس:

– لنضع حوض الاستحمام فوق الحوض الحجري ثم نتظاهر بأننا غسالات ملابس في الهواء الطلق مثل اللواتي رأتهن ماما في فرنسا.

فقال بيتر، ويداه في جيبه:

– أولئك النساء كن يغسلن الثياب في ماء النهر البارد، لا بالماء الحار.

فقالت فيليس:

–اذن، هذا نهر حار. هيّا ساعدني على رفع الحوض، انت والغزالة الحبيبة.

فقال بيتر:

– يعجبني ان ارى غزالة حقيقية تساعدك.

قالت فيليس:

– والآن إفركوا وادعكوا.

ثم راحت تتقافز بمرح حول بوبي وهي تحمل غلاية الماء الثقيلة من على الموقد. فخافت بوبي بشدة وصاحت:

– آه، لا، لاتفركي الموسلين. ضعي الصابون المغلي في الماء الحار وحركيه الى ان تتكون رغوة كثيرة – عندئذ خضّي الموسلين في الرغوة واعصريه قليلا قليلا فيتخلص من الاوساخ. الاشياء الخشنة فقط مثل اغطية المائدة والفراش هي التي يجب ان تفرك عند غسلها.

وراحت ازهار البنفسج و ورود «مجد ديجون GLOIRE DEDIJON» تتمايل من وراء النافذة في النسيم العليل. قالت بوبي تتحدث كالبالغين:

– يوم مشمس جميل – هذه ناحية. آه، كم سنشعر بالفرح عندما نلبس اثواب الموسلين الهندي!

فقالت فيليس، وهي تخضّ الملابس في رغوة الصابون بطريقة الغسالات المحترفات:

– نعم، انا ايضا.

– الآن نعصر منها ماء الصابون. لا . . . بدون برم ثم نتقعها في الماء. ساحملها الى ان تنظفا انت وبيتر حوض الاستحمام وتملأاه بماء نظيف. قال بيتر، بينما انشغلت اختاه بغسل مشابك الغسيل ومسح الغبار عن الحبل وتعليق الثياب لتجفّ:

– هدية ! هذا يعني هدايا . أيا كان نوعها .

فقالت فيليس :

– قد تكون اي شيءٍ . ماكنت اريده دائما هو فيل رضيع، لكن اتصوّر انهم لايعرفون ذلك .

قالت بوبي :

– افرضوا انها ميداليات ذهبية على صورة قاطرة بخارية .

وقال بيتر :

– او ربما نموذج كبير لمنظر مكان الحادث ، مع نموذج مصغر لقاطرة ودمى لابسة ثيابا مثل ثيابنا والسائق والوقاد والركاب .

سألته بوبي ، بينما هي تجفف يدها بمنشفة خشنة كانت معلقة وراء باب خزانة الاواني والصحون :

– هل تحب . . . . هل تحب ان يكافئونا على إنقاذنا القطار ؟

فأجاب بصراحة :

– أجل ، أحب . ولا تحاولي التظاهر امامنا بأنك لاتحبين ذلك . لأني اعرف ان هذا غير صحيح .

فقالت بوبي بارتياب :

– نعم ، ادري انك تعرف . ولكن أليس الواجب ان نكتفي بكوننا انقذنا القطار ولانطلب اي شيءٍ زيادة على ذلك ؟

فقال لها اخوها :

– من طلب شيئا زيادة ياغبية ؟ الجنود الذين يمنحون (ميدالية صليب فكتوريا) لايطلبون ذلك . ولكنهم يمتلئون فرحا لنيل الميدالية . ربما يمنحوننا ميداليات . عندئذ ، حين اصبح شيخا عجوزا سأعرضها على احفادي واقول «كل ما هنالك اننا ادّينا واجبنا» . وسيفخرون بي كثيرا .

فقالت فيليس منبهة :

– عليك ان تتزوج ، والا لن يكون عندك احفاد .

قال بيتر :

– افترض اني لابد ان اتزوج في يوم من الايام . ولكن ما ازعج ان تكون المرأة ملازمة لزوجها طوال الوقت . انا افضل الزواج من سيدة تأخذها الغيبوبة ولا تفيق الا مرة او مرتين في السنة .

قالت بوبي :

– حتى تقول لك إنك نور عينيها ثم تغرق في نومها ثانية . نعم . . فكرة ليست سيئة .

قالت فيليس :

– عندما اتزوج سأشترط عليه ان يريدني ان اظل مستيقظة دائما لكي اسمعه يتحدث عن جمالي .

قالت بوبي



- كم هو جميل الزواج من رجل فقير للغاية وانت تقومين بكل اعمال البيت وهو يحبك بمنتهى الافراط ، وتتمتعين بمشاهدة دخان الحطب الازرق ينفتل خارجا بين الاشجار من موقد الكوخ ، وزوجك يعود مساء الى البيت من العمل . اقول - علينا ان نجيب على الرسالة ونقول لهم اننا موافقون على المكان والوقت . هاك الصابونة يابيتر . نحن نظيفتان كل النظافة . عندك دفتر الرسائل الوردي الذي جاءك هدية في عيد ميلادك يافيل .

استغرقت صياغة الرسالة فترة من الوقت . كانت الام قد عادت الى الانشغال بكتابة القصص . فأتلف الاطفال عدة اوراق رسائل ، وردية مذهبة الحاشية ومزينة في احدى الزوايا برسوم ازهار ، قبل ان يقرروا صيغة الرسالة . ثم كتبوها بثلاث نسخ وقّع كل واحد منهم نسخة منها . وجاء في الرسالة :

عزيزي السيد جيبز انغلوود

نشكركم شكرا جزيلا . ماكنا نريد مكافأة ، بل مجرد انقاذ القطار ، ولكننا مسرورون لانكم تفكرون بمكافأتنا ونشكركم شكرا جزيلا . الوقت والمكان اللذان

تقترحان مناسبان لنا تماما . نشكركم شكرا جزيلا .

صديقكم الصغير المحب

(او صديقتكم)

وبعده اسم المرسل ٠

ملاحظة : نشكركم شكرا جزيلا .

قالت بوبي وهي تنزل الثياب النظيفة من على حبل الغسيل:

– الغسل أسهل من الكي بكثير. كم أحب رؤية الاشياء نظيفة. آه، لا أدري كيف سننتظر الى الوقت الذي نعرف فيه ماهي الهدية التي سيقدمونها لنا!

عندما حل اليوم أخيراً – بعد انتظار بدا كأنه دهر طويل – ذهب الاطفال الثلاثة الى المحطة في الوقت المناسب. وكان كل الذي حدث يبدو غريبا في بالهم كأنه حلم. وخرج ناظر المحطة لاستقبالهم، مرتدياً أحسن ملابسه، كما لاحظ بيتر من النظرة الاولى – وصحبهم الى قاعة الانتظار التي لعبوا فيها مرة لعبة الاعلانات. لقد تغير شكلها تماما الان. فقد فرش فيها بساط، وكانت هناك آنية زهور على رف الموقد وعلى افريز النافذة، بينما عُلّقت أغصان مثل أكاليل الغار أو زينات أعياد الميلاد على اعلانات (سفرات كوك السياحية) ومناظر (ديفون) وباريس الخلابة. كان هناك نفر من الناس الى جانب

الحمال – سيدتان أو ثلاث بثياب جميلة انيقة وحشد من السادة بقبعات عالية وستْرات فروك رسمية – اضافة الى العاملين في المحطة جميعاً. وتعرف الاطفال بين الجمع على بعض ركاب القطار يوم الحادث. وكان أحلى منظر رؤيتهم صديقهم السيد العجوز بين الحاضرين. وبدت لهم قبعته وياقته مختلفتين كثيراً عما يلبسه الاخرون. صافحهم السيد العجوز، وجلس الجميع. ثم نهض سيد ذو عوينات – اكتشفوا فيما بعد أنه «ملاحظ المنطقة» – ليلقي خطبة طويلة ذكية جداً. أنا لا أنوي أن أسطر الخطبة هنا، أولاً لأنكم ستعدون هذا عملاً بليداً. و ثانياً لأنها جعلت الاطفال يحمرون خجلاً وتشتعل آذانهم حرارة الى الحد الذي يجعلني افضل الابتعاد في حديثي عن هذا الجانب من الموضوع. وثالثا لأن السيد الخطيب قال كلاماً كثيراً قليل المعنى لاوقت عندي لذكره.

قال الكثير من الكلمات الجميلة عن شجاعة الاطفال وحسن تصرفهم وبعدما فرغ من خطبته الطويلة جلس واستراح وصفق له الحاضرون كلهم وهتفوا اعجاباً.

ثم نهض السيد العجوز وتحدث عن اشياء تبدو مثل الحديث عن منح جوائز. ثم دعى الاطفال باسمائهم واعطى كل واحد منهم ساعة وسلسلة من الذهب جميلتين. وقد نقشت داخل كل ساعة، بعد اسم الملك

الجديد، عبارة «هدية من مدراء شركة السكك الشمالية والجنوبية الكبرى اعترافاً مع الامتنان بالعمل الحازم والشجاع الذي حال دون وقوع حادث بتاريخ ١٩٠٥».

كانت الساعات من أجمل ما يتصوره الانسان وكان لكل منها كيس جلدي أزرق تنام فيه عندما تبقى في البيت.

همس ناظر المحطة في اذن بيتر: «يجب أن تلقي كلمة الآن وتشكر الجميع على لطفهم» ثم دفعه الى الأمام قائلاً له: «إبدأ» ثم مخاطباً الحاضرين «سيداتي وسادتي..».

كان كل من الاطفال قد عبر عن الشكر بصورة لائقة. لم يقاوم بيتر دفعة الناظر، بل قال مع نفسه: «آه، يا الهي». وقف ساكتاً لحظة أحسَّ خلالها بأن قلبه يدق في بلعومه، ثم انطلق يتكلم بسرعة:

«سيداتي وسادتي. انه منتهى اللطف منكم وسوف نحتفظ بالساعات طول حياتنا – لكننا، في الحقيقة، لا نستحقها لأننا حقا لم نفعل شيئاً. على الاقل أعني أنها مسألة مثيرة للغاية. وما أريد أن أقوله – أشكركم جميعاً شكراً جزيلاً جزيلاً.».

صفق الناس لبيتر أكثر مما صفقوا للملاحظ المنطقة ثم صافحهم الجميع. وانطلق الأطفال، بعدما انتهى

الاحتفال، يرتقون التلال في طريق العودة الى بيت المدخنات الثلاث حاملين ساعاتهم بأيديهم.

كان يوماً رائعا – من نوع الأيام التي قل ما تمر بحياة كل الناس. قالت بوبي:

– كنت أريد التحدث مع السيد العجوز حول موضوع آخر، ولكن الناس كانوا كثيرين كما في كنيسة.

سألتها فيليس:

– بماذا اردت أن تحدثيه؟

فقالت بوبي:

– سأخبرك بعدما أفكر جيداً بالموضوع وهكذا، وبعد أن فكرت في الموضوع، كتبت رسالة تقول فيها:

«سيدي العجوز الاعز. تتملكني رغبة شديدة (هذا قول الرسالة لا انا) في أن أرجو منك معروفا. وهذا ممكن اذا نزلت من قطارك واخذت القطار التالي. أنا لا أريد أن تعطيني شيئاً. ماما لاتقبل ثم بعد هذا نحن لا نريد اية اشياء. أريد فقط أن اكلمك عن (سجين وأسير). صديقتك الصغيرة المحبّة.

«بوبي»

طلبت من ناظر المحطة أن يعطي الرسالة الى السيد العجوز. وفي اليوم التالي طلبت من بيتر وفيليس الذهاب معها الى المحطة وقت مرور القطار الذي يحمل السيد

العجوز. وشرحت لها فكرتها فأيداها تماماً.

غسل الثلاثة وجوههم وأيديهم ومشطوا شعرهم وصاروا على أحسن شكل ممكن. لكن فيليس، سيئة الحظ دائماً، أوقعت قنينة عصير ليمون فانسكب على ثوبها. كان الوقت ضيقاً. وراحت الريح القوية تحمل غبار الفحم المكوم في نهاية الرصيف فصار يلتصق بالثوب الدبق جاعلاً فيليس تبدو - كما قال بيتر - «مثل أطفال الأزقة».

وعلى هذا تقرر أن تظل فيليس واقفة الى الوراء بقدر المستطاع. قالت بوبي:

- لعل السيد العجوز لا يلاحظ ذلك. كبار السن في الغالب نظرهم ضعيف.

ولكن لم يكن نظر السيد العجوز ضعيفاً ولم يكن اي شيء فيه ينم عن الضعف حين نزل من القطار وراح يتطلع الى رصيف المحطة يمنة ويسرة.

في هذه اللحظة استولى على الاطفال الثلاثة شعور عميق بالخجل، ذلك النوع من الخجل الذي يجعل اذنيك حمراوين حارتين ويديك ساختنين رطبتين وطرف انفك وردياً متوهجاً.

قالت فيليس:

- آه، قلبي يدق مثل قاطرة بخارية - وتحت حزامي

ايضاً.

فقال بيتر:

- هراء. قلوب الناس لاتكون تحت الحزام.

فقالت فيليس:

- لا يهمني ذلك. قلبي أنا تحت حزامي.

قال بيتر:

- هل تريدين أن تتكلمي مثل دواوين الشعر؟ قلبي صار في حلقومي..

فقالت روبرتا :

- قلبي نزل الى رجلي ، اذا اردت الحقيقة . لكن ، تعالوا بنا والا اعتبرنا الرجل سخفاء .

فقال بيتر متشائما :

-«لن يكون مخطئا ان اعتبرنا هكذا». وتقدموا لاستقبال السيد العجوز . فقال وهو يصافحهم واحدا واحدا :

- مرحبا . هذا مبعث سرور عظيم لي .

فقالت بوبي بأدب ، وهي تتصبب عرقا :

-«كان لطفا منك ان تنزل من اجلنا». فأخذ بذراعها وقادها الى قاعة الانتظار التي لعبوا فيها لعبة الاعلانات يوم وجدوا الرجل الروسي . وتبعها بيتر وفيليس . سأل السيد العجوز ، وهو يربت بلطف على ذراع بوبي :

- حسنا ؟ حسنا ؟ ماالامر ؟

قالت بوبي :
– آه، ارجوك !
فقال :
– نعم ؟
قالت بوبي :
– قصدت أنْ اقول . .
قال السيد العجوز :
– نعم.؟
قالت :
–كل شيْ على احسن مايرام .
فقال :
– ولكن ؟
قالت :
– اودّ ان اقول شيئا .
قال :
– قولي .
قالت بوبي :
– حسنا ، اذن .

ثم سردت عليه حكاية الروسي الذي كتب رواية جميلة عن الفقراء ذهب بسببها الى السجن والى سيبريا .

وقالت :

– وما نريده اكثر من اي شيْ في العالم هو ان نعثر له على زوجته واطفاله . لكننا لاندري كيف . ولكن لابد انك بمنتهى الذكاء والبراعة والا ماصرت في «ادارة السكك». واذا كنت تعرف كيف – هل تعرف ؟ فهذا ما نريده اكثر من اي شيْ آخر في الدنيا . نحن مستعدون للتنازل عن الساعات . وحتى ، لو تستطيع ان تبيعها وتعثر على زوجته بثمنها .

وتحدث الآخران بنفس المعنى ، ولو ليس بمثل حماس بوبي . عدّل السيد العجوز صديريه ذا الازرار الذهبية الكبيرة وغمغم :

– م م م م . قلت مااسمه – فراينغبانسكي ؟ فقالت بوبي على الفور :

– لا ، لا . ساكتبه لك . في الحقيقة هو ليس هكذا الا حين تلفظه .

ثم سألته :

– عندك كسرة قلم وظهر مظروف ؟

اخرج السيد العجوز من جيبه علبة اقلام ذهبية ودفتر ملاحظات مغطى بجلد روسي اخضر جميل طيب الرائحة وفتح فيه صفحة جديدة ، وقال :

– هاك ، اكتبي هنا .

فكتبت اسم «سكبانسكي» وقالت :

– هكذا يكتب . . . ويدعى «شيبانسكي» .

فاستخرج السيد العجوز من جيبه عوينات محاطة باطار من الذهب وثبتها على انفه . وعندما قرأ الاسم تغيرت ملامحه ، وهتف قائلا :

– هذا الرجل ؟ يالهي ! عجبا ، لقد قرأت كتابه ! الكتاب ترجم الى اللغات الاوربية جميعاً . كتاب جميل

– كتاب نبيل . لذلك آوته امكم في بيتها كما فعل السامري الطيب . حسنا ، حسنا . اقول لكم شيئا ، ياصغار – ان امكم امرأة بالغة الطيبة .

فقالت فيليس باستغراب :

– بالطبع هي كذلك .

فقالت بوبي بأدب ، ولكن بخجل شديد :

– وانت رجل في منتهى الطيبة .

فقال الرجل العجوز ، وهو يرفع قبعته تحية :

– انت تجاملينني . والآن هل اقول لك رأيي فيك ؟

فاسرعت بوبي تقول :

– اوه ، لا ارجوك لاتفعل .

فسألها السيد العجوز :

– لماذا ؟

قالت بوبي :

– لاادري بالضبط . فقط – إذا كان فظيعا فلا اريد ان

اسمعه . واذا كان حسنا فالافضل الا تقوله .

فضحك الرجل العجوز ثم قال :

– طيب ، إذن ساكتفي بالقول بأني سعيد جدا لأنكم جئتم الي . . سعيد جدا بالفعل ولن يمر وقت طويل قبل ان اعثر على شيءٌ في هذا الشأن . انا اعرف الكثير من الروس في لندن والروس كلهم يعرفون هذا الاسم . حدثوني الآن عن اموركم .

عندما تحوّل لمخاطبة الباقين لم يجد سوى بيتر . اما فيليس فقد اختفت . فقال ثانية :

– حدثوني بكل ما لديكم .

ولكن بيتر ظل ، بطبيعة الحال ، ساكتا كالمصعوق .

قال السيد العجوز :

– حسنا . سأجري لكم امتحانا . انتما تجلسان على المنضدة وانا اجلس على المصطبة واطرح عليكما اسئلة .

وبدأت الاسئلة . فكانت الاجوبة بالاسم والعمر اولا ثم اسم الوالد وعمله ومدة سكناهم في بيت المدخنات الثلاث ومعلومات غيرها كثيرة .

وما ان بدأ الحديث ينتقل الى سمك السردين وانصاف البنسات ورطل الرصاص ورطل الريش حتى انفتح باب قاعة الانتظار بركلة حذاء . وعندما تقدم زوج الحذاء الى داخل القاعة لاحظ الجميع ان رباطه مفتوح.

– كانت تلك فيليس التي راحت تسير ببطء وحذر شديدين .

كانت تحمل وعاء معدنياً كبيراً بيد وقطعة خبز سميكة مغطاة بالزبد باليد الاخرى . وقالت بافتخار وهي تقدم الوعاء وقطعة الخبز الى السيد العجوز :

– شاي العصر .

فأخذهما وقال :

– باركنا يارب !

فقالت فيليس :

– نعم .

قال السيد العجوز :

– مبادرة منك جميلة جدا . . . . جدا .

قالت لها بوبي :

– كان من المفروض ان تجلبي كوبا وماعونا .

فقالت فيليس وهي تحمر خجلاً:

– بيركس دائماً يشرب من الوعاء. أعتقد أنه كان فضلاً منه أن أعطاني هذه كلها.

ثم أضافت:

– وفوق هذا أطلب أكواباً ومواعين؟!

فقال السيد العجوز:

– الحق معك.

ثم رشف قليلاً من الشاي وذاق قطعة الخبز والزبد وأزف موعد وصول القطار التالي ولما صعد اليه السيد العجوز ودعه الاطفال بفيض من عبارة «مع السلامة» والكلمات التوديعية الطيبة.

ظلوا وحدهم واقفين على رصيف المحطة بينما توارت أنوار القطار الخلفية وراء منعطف السكة.

قال بيتر:

– حسناً. أعتقد أننا أضأنا شمعة، اليوم – مثل (لا تيمر)، تعرفان، عندما أحرقوه – ستمتلىء سماء الروسي بالألعاب النارية سريعاً.

وهذا ما حصل فعلاً.

لم تمض عشرة أيام على لقاء الاطفال بالسيد العجوز في قاعة الانتظار. كان الثلاثة جالسين على صخرة كبيرة تطل على السكة يرقبون قطار الخامسة والربع يغادر المحطة متجهاً الى الوادي. من هناك رأوا بعض المسافرين الذين نزلوا من القطار يتسلقون بصعوبة الطريق الصاعد الى القرية. ورأوا ايضاً واحداً منهم يترك الطريق ويتوجه ليفتح البوابة التي تفضي الى درب بين الحقول يؤدي الى بيت المدخنات الثلاث، لا الى اي مكان آخر.

قال بيتر، وهو ينزلق نازلاً من على الصخرة:

– من هذا، بحق السماء؟

فقالت فيليس:
– لنذهب ونرَ.
وانطلقوا. وعندما اقتربوا على نحو يسمح لهم برؤية الرجل القادم بدرجة كافية وجدوا أنه السيد العجوز شخصياً. وكانت أزراره الذهبية تلمع في ضوء شمس العصر والصديري الابيض الذي يلبسه يبدو وسط خضرة الحقول أشد بياضاً من اي وقت مضى. هتف الاطفال: «هللو!» ولوحوا له بأيديهم فصاح السيد العجوز: «هللو!» ولوّح لهم بقبعته.
وركض الثلاثة نحوه. ولما وصلوا اليه كانوا يلهثون، وبالكاد استطاعوا أن يسلموا عليه:
– كيف حالك؟
قال:
– جئتكم بأخبار طيبة. وجدت زوجة صديقكم الروسي وطفله – ولم أستطع أن أقاوم اغراء المجيء بنفسي لاخباره. ولكن حين نظر الى وجه بوبي شعر بأنه يجب أن يقاوم ذلك الإغراء. فقال لها:
– هيا، انطلقي لتخبريه. الاثنان الاخران سيدلاني على الطريق.
ركضت بوبي. ولكن حين نقلت الخبر، وهي منقطعة الانفاس، الى الروسي وأمها الجالسين في الحديقة الهادئة

– وحين أشرق وجه الأم اشراقة بالغة الجمال وقالت بضع كلمات سريعة بالفرنسية للروسي المنفي – تمنت بوبي لو أنها لم تحمل النبأ. ذلك أن الروسي هب من مكانه وأطلق صرخة جعلت قلب بوبي ينخلع وجسمها يرتجف – صرخة حب وشوق لم تسمع مثلها من قبل. وتناول يد الأم وراح يقبلها بلطف واحترام عميق – ثم ألقى نفسه على كرسيه وغطى وجهه بيديه وراح يبكي. تسللت بوبي مبتعدة، فما كانت تريد في تلك اللحظة أن ترى احداً.

لكنها فرحت كالآخرين عندما انتهى الحديث الطويل بالفرنسية، فانطلق بيتر الى القرية ليجلب كعكاً محلّى وفطائر، فيما أعدت الفتاتان الشاي وحملتاه الى الحديقة.

كان السيد العجوز أكثر الجميع بهجة وسروراً. وظهر أنه يستطيع التكلم بالفرنسية والانكليزية في آن واحد. ولم تكن الأم بأقل قابلية منه، كانت لحظات سعيدة. وشعرت الأم كأنها لا تقدر على ايفاء السيد العجوز حقه من الثناء والاطراء، ولذا فقد وافقت في الحال حين استأذنها في تقديم بعض «الطيبات» لأصدقائه الصغار.

كانت الكلمة جديدة على الأطفال – لكنهم حزروا أنها تعني حلوى. ذلك أن العلب الكبيرة ذات اللونين الوردي والاخضر، الملفوفة بأشرطة خضراء، التي

استخرجها من حقيبته كانت تحوي اصنافاً لم يعرفوها من الحلوى الجميلة.

تم حزم الحاجيات القليلة العائدة للسيد الروسي وقام الجميع بتوديعه في المحطة. عندئذٍ التفتت الأم الى السيد العجوز وقالت:

– لا أدري كيف أشكرك على كل شيء. لقد أسعدتني رؤيتك حقاً. نحن نعيش هنا بهدوء وأنا شديدة الأسف لأني لا أستطيع أن أدعوك لزيارتنا ثانية.

اعتبر الاطفال كلام أمهم قاسياً جداً. فعندما يحصلون على صديق – مثل هذا الصديق – لابد أن يميلوا كثيرا الى أن يأتي ويراهم ثانية.

لم يستطيعوا، بالطبع، أن يعرفوا بماذا فكر الرجل. أما هو فقال:

– أنا أعتبر نفسي محظوظاً، ياسيدتي، لأنك استقبلتني مرة في بيتك.

قالت الأم:

– آه. أدري أني أبدو بهذا الموقف خشنة وناكرة للجميل، ولكن...

فقال السيد العجوز، وهو ينحني لها ثانية:

– أنت لا يمكن أن تكوني سوى سيدة شديدة الجاذبية والوقار.



ولما تحركوا نحو التلال باتجاه البيت رأت بوبي وجه أمها، فقالت:
– مامي، أنت تعبانة جداً اتكئي عليَّ.
فأسرع بيتر يقول:
– هذا دوري أنا، لأن أعطي ذراعي لأمي.
أنا رجل العائلة في غياب والدي.
فتأبطت الأم ذراعي الاثنين. قالت فيليس وهي تتقافز بمرح:
– ما أحلى أن أتخيل صورة الروسي العزيز يعانق زوجته بعد الفراق الطويل. لابد أن طفلته قد كبرت كثيراً منذ ذلك الحين.
قالت الأم:
– أجل.
ومضت فيليس، وهي تتقافز بمرح أشد:
– ترى هل يفكر بابا بأني كبرت! أنا كبرت.
أليس كذلك ياماما؟
قالت أمها:
– أجل، آه، أجل.
وشعر بيتر وبوبي بها تضمها اليها بقوة. قال بيتر:
– أنت متعبة يا أمي العجوز المسكينة.
قالت بوبي:

– هيا يا فيل نتسابق حتى البوابة.
وانطلقت تتسابق، ولو أنها ما كانت تحب ذلك. انتم لا تدرون لماذا فعلت بوبي ذلك. اعتقدت الأم أن بوبي سئمت من المشي ببطء. ولكن حتى الامهات، اللاتي يحببنكم أكثر من أي إنسان آخر في الوجود، لا يفهمنكم دائماً.

الفصل الثامن

الاطفائي الهاوي

قال بيركس الحمال:

– هذا الذي تحملينه ياانسة أقرب الى دبوس الصدر. لاأظنني رأيت من قبل شيئا كأنه زهرة القرنفل الأصفر وهو ليس زهرة قرنفل.

ففرحت بوبي وتهلل وجهها وقالت:

– أجل. أنا دائما أراه أقرب بالشكل الى زهرة القرنفل من الزهرة الحقيقية – ولم أفكر أبدا بأن يصبح لي، ملكي أنا، ثم قدمته لي ماما هدية في عيد ميلادي.

فسألها بيركس:

– آه، كان عندك عيد ميلاد؟

وبدا عليه الاستغراب كأن الاحتفال بعيد ميلاد امتياز لايحق لغير القلة المرفهة من الناس، أجابت بوبي:

– أجل. متى يصادف عيد ميلادك يامستر بيركس؟

كان الاطفال يشربون الشاي مع مستر بيركس في غرفة الحمالين ومن حولهم مصابيح الاشارة والعديد من

نسخ دليل السكك. وكانوا قد جلبوا معهم أكوابهم وبعض الكعك المحلى بالمربى. أعد المستر بيركس الشاي في علبة بيرة فارغة، كالعادة، وشعر الجميع بالسعادة الغامرة والعلاقة الحميمة.

قال المستر بيركس، وهو يصب المزيد من الشاي الداكن في كوب بيتر:

– عيد ميلادي؟ لقد كففت عن التفكير بعيد ميلادي قبل أن تأتوا الى الدنيا.

فقالت فيليس بنباهة:

– ولكن لابد أنك ولدت في أحد الايام.. تفهم قصدي.. حتى لو كان قبل عشرين سنة – ثلاثين، أو ستين أو سبعين.

فأجاب بيركس، مصطنعا الابتسام:

– لا الى هذا الحد ياآنستي. إذا كنتم تريدون حقا أن تعرفوا فقد ولدت قبل اثنين وثلاثين عاما، يصادف الخامس عشر من هذا الشهر.

فسألته فيليس:

– إذن لماذا لاتهتم به؟

فقال بيركس باختصار:

– عندي ماأهتم به غير أعياد الميلاد.

فسألته فيليس بلهفة:

– اه! ماذا؟ أسرار؟

قال بيركس:

– لا. الأطفال والسيدة.

هذا الحديث هو الذي جعل الاطفال يفكرون ويدرسون الأمر في الحال. كان بيركس أعز أصدقائهم. لم يكن بمثل عظمة ناظر المحطة، لكن الوصول اليه أسهل – وهو أقل سلطة من السيد العجوز، ولكن أكثر حميمية.

قالت بوبي:

– شيء فظيع أن لايحتفل الانسان بعيد ميلاده. أيمكننا أن نفعل شيئا؟

قال بيتر:

– لنذهب الى جسر القناة ونتباحث. حصلت على خيط صيد جديد، صباح اليوم، من ساعي البريد. أعطانياه مقابل باقة من الورد أعطيته إياها ليقدمها لحبيبته المريضة.

فقالت بوبي باستياء:

– كان من الافضل، باعتقادي، أن تقدم لها الورد بلا مقابل.

فدمدم بيتر ساخطا: «نيانغ، نيانغ!» ووضع يديه في جيوبه. فأسرعت فيليس تقول:

– هذا مافعله، بالطبع. حال ماسمعنا بأنها مريضة جئنا

بالورود ووقفنا ننتظر عند البوابة. عندما كنت أنت تحضرين الخبز المحمص.

عندما قال: «أشكركم» على الورود – مرات عديدة أكثر من اللازم – أخرج من جيبه خيط الصيد وقدمه الى بيتر. لم يكن بالمقابل، بل شعورا بالامتنان.

قالت بوبي:

– آه، أرجو المعذرة يابيتر. أنا شديدة الأسف.

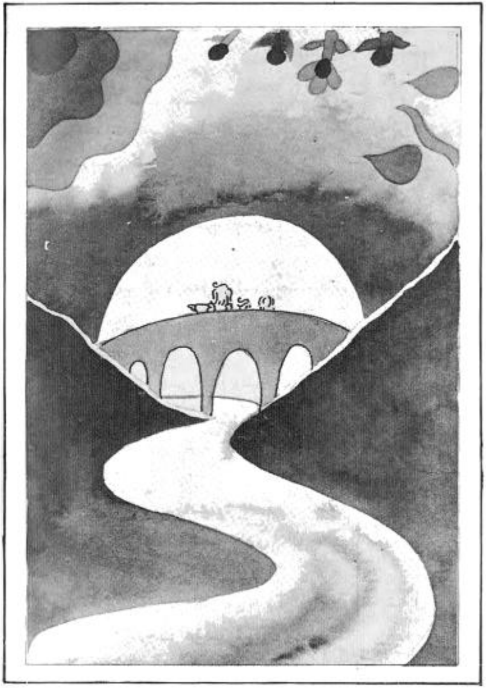
فقال بيتر بعظمة:

– لابأس عليك. كنت أدري أنك لابد ستعتذرين. ثم انطلق الثلاثة الى جسر القناة. كانت الفكرة أن يصطادوا السمك من على الجسر، لكن الخيط لم يكن طويلا بما يكفي لذلك. قالت بوبي:

– لايهم. دعونا نجلس هنا ونتمتع برؤية ماحولنا. كل شيْ جميل، جميل جدا.

كان ذلك حقا. كانت الشمس الغاربة تصبغ الأفق، من وراء التلال الرمادية الارجوانيه، بحمرة زاهية. وكانت القناة تمتد تحتهم ناعمة لامعة في ظل التلال المحيطة. وكان سطح الماء رائقا لايعكره شيْ. كانت أشبه بشريط من حرير رمادي بين حرير الحقول الخضر الداكنة الممتدة على جانبيها.

قال بيتر:



-كل شيْ جميل. لكنّي دائما أرى الاشياء تزداد جمالا حين أقوم بعمل ما. هيّا بنا ننزل الى الجرف لنصطاد السماك من هناك. تذكرت فيليس وبوبي كيف كان صبيا القواب يرميان قطع الفحم عليهما .ولما عبرت الفتاتان عن خوفهما قال بيتر:

-هراء. لا أولاد هناك الان. وإن تحرّش بكما أحد فسوف أعاركه.

تلطفت شقيقتا بيتر فلم تذكّراه بعدم معاركته الاولاد الذين رموا عليهم قطع الفحم، بل قالتا:

«حسنا، اذن». ثم بدأتا تهبطان المنحدر الشديد بحذر نحو الجرف. هناك وضعوا طعما جيدا في الصنارة وراحوا ينتظرون بصبر. ومر نصف ساعة من دون جدوى. ولم تهتز الصنارة داخل الماء حتى ولو هزة خفيفة تنعش آمالهم.

كانت عيونهم مركزة على الماء الجاري ببطء شديد الذي يصرّ، كما يبدو، على عدم اعطائهم حتى السمكة الصغيرة، حين انبعثت صيحة خشنة عالية جعلتهم يجفلون. قال الصوت الخشن باستياء شديد:

-أنتم هناك! إبتعدوا من هنا. الا تقدرون؟

كان هناك حصان أبيض عجوز يدب، على بعد بضع ياردات منهم، فوق درب جرّ السفن الموصل بجانب القناة. فهب الاطفال من مكانهم وركضوا

ليتسلقوا منحدر الجرف.

قالت بوبي:

-سننزل ثانية بعدما يذهب.

ولكن، ياللحسرة، وقف المركب تحت الجسر، على طريقة المراكب الاعتيادية. قال بيتر:

-سيلقي بالمرساة. يالحسن الحظ.

لكن المركب لم يلق بالمرساة، لان المرساة ليست من محتويات مراكب القناة. عند الرسو يشد المركب من الامام والوراء بحبال تشد بدورها الى أوتاد تثبت في الجرف. صاح ربان المركب في الاطفال بخشونة:

-فيم تحدقون؟

فقالت بوبي:

-نحن لانحدق. لسنا قليلي ذوق. قال الرجل:

-كيف تكون قلة الذوق؟ اذهبوا من هنا!

فقال بيتر:

-اذهب أنت. لنا حق في هذا المكان مثل غيرنا.

فقد تذكر بيتر حديثه عن استعداده لمعاركة الاولاد. فضلاً عن شعوره بالامان وهو في أعلى الجرف.

قال الرجل:

-آه، لكم حق فعلا! سنرى الان أي حق هذا. وعبر سطح المركب وبدأ ينزل الى الجرف. فصاحت بوبي

وفيليس بصوت خائف واحد:
–آه، هيا بنا، يابيتر، هيا بنا!
فقال بيتر:
–أنا لا. اذهبا أنتما.

تسلقت الفتاتان الى أعلى الجرف ووقفتا هناك على أهبة الاستعداد للركض صوب البيت حال ما يصبح أخوهما في مأمن من الخطر. كان البيت في نهاية المنحدر المقابل. وكانتا تحسنان الركض ، في حين لم يكن ربان المركب يبدو خفيف الحركة. فهو رجل بدين، ثقيل الجثة أحمر الوجه.

ولكن ماإن وضع الرجل قدميه على الجرف حتى اكتشف الاطفال أنهم كانوا مخطئين في الحكم عليه.

ففي قفزة واحدة الى منحدر الجرف استطاع الامساك بساق بيتر وجره الى الاسفل. وسحب الصبي عن الارض بقوة وأوقفه على قدميه– ثم جر اذنه وقال بحزم:

–الان، قل ماذا تقصد بذلك؟ ألا تعلم أن هذه المياه خاضعة للحماية؟ لايحق لك صيد السمك هنا؟ هذا عدا..

صار بيتر فيما بعد يفتخر بأنه ظل شجاعا وقال الحقيقة بالرغم من أصابع الرجل التي تسحق شحمة أذنه، ووجهُه الاحمر الغاضب يحدق فيه وأنفاسُه الحارة تشوي رقبته.

قال بيتر:
–لم أكن اصطاد السمك.
قال الرجل:
–ليست غلطتك. أنا واثق من ذلك. وفرك أذن بيتر – من غير شدة إنما هي فركة أذن.

لبثت بوبي وفيليس ممسكتين بالسياج العلوي تنظران الى المشهد بقلق. وفجأة عبرت بوبي من تحت السياج وركضت نازلة المنحدر الحاد نحو بيتر باندفاع شديد جعل فيليس، التي نزلت وراءها بهدوء وتوازن، تخشى أن تسقط أختها في مياه القناة. وكانت بوبي ستقع في ماء القناة فعلا لو لم يترك ربان المركب أذن بيتر ويتلقاها بذراعه. وقال وهو يسندها ويساعدها على الوقوف:

–على من تهجمين؟
فقالت بوبي لاهثة:
–آه، أنا لاأهجم على أحد. على الاقل لم أقصد ذلك. أرجوك لاتغضب من بيتر. القناة قناتك بالطبع. نحن متأسفون ولن نصطاد منها سمكا بعد الان. لم نكن ندري أنها تعود لك.
فقال الربّان:
–هيا، اذهبوا.
فقالت بوبي على الفور:

-نعم، سنذهب بالتأكيد. ولكننا نرجو المعذرة بالحقيقة نحن لم نصطد أية سمكة. كنت سأخبرك مباشرة لو كنا اصطدنا واحدة.أقسم أني كنت سأخبرك.

ورفعت يدها بالقسم وقلبت فيليس جيوبها الفارغة لتؤكد له أنها لاتخفي أية سمكة. فقال ربان المركب بلهجة ألين من السابق:

-حسنا، اذهبوا اذن، ولاتفعلوا هذا ثانية. انتهى الموضوع.

فأسرع الاطفال يتسلقون منحدر الجرف. صاح الرجل:

-ناولينا سترة ياماريا.

فخرجت من باب كابينة السائق امرأة حمراء الشعر ملتفة بشال أخضر مخطط، حاملة الى صدرها طفلا رضيعا، ورمت بالسترة للرجل. فلبسها وتسلق منحدر الجرف وتوجه الى الجسر المؤدي الى القرية. ثم صاح يخاطبها من على الجسر:

-تجديني في (الوردة والتاج) بعدما تنيمين الطفل.

وما ان توارى الرجل عن انظار الاطفال حتى عادوا بهدؤ تحت إصرار بيتر الذي قال:

-قد تكون القناة ملكه، ولو أني لاأعتقد بذلك. لكن الجسر ملك الكل. الدكتور فوريست اخبرني بأنه

مرفق عام. لن يرميني هو خارج الجسر ولا أي واحد غيره. أنا واثق مما أقوله.

كانت أذن بيتر موجوعة مثل مشاعره. وتبعته الفتاتان كما يتبع جنود شجعان قائد عملية إنتحارية، مكتفيتين بالقول: الأفضل أن تترك هذه الفكرة.

فقال بيتر:

-عودا الى البيت اذا كنتما خائفتين. إذهبا عني. أنا لست خائفا. تلاشى وقع أقدام الرجل وهو يمضي مبتعدا على الدرب الهادئ. ولم تكسر هدوء ساعة الغروب زقزقة عصافير البردي ولاصوت زوجة الربان وهي تغني لطفلها حتى ينام. وكانت أغنية حزينة تدعو فيها زوجها (بيل بيلي) للعودة.

أتكأ الاطفال بأذرعهم على سياج الجسر وقد فرحوا لاستعادتهم الهدوء بضع دقائق بعدما كانت قلوبهم تخفق بشدة من الخوف.قال بيتر باصرار:

-أنا لن اسمح لأي ربان مركب عجوز بأن يطردني. لن اسمح.

فقالت فيليس تطيّب خاطره:

-لا، طبعا. أنت لم تتراجع أمامه! والآن علينا أن نعود الى البيت. ألا تعتقد؟

لبثوا صامتين في مكانهم، بينما خرجت المرأة من

كابينة المركب وتسلقت الجرف ومضت لتعبر الجسر. وأبطأت قليلا، نظرت الى ظهور الاطفال ثم قالت: «أحم».

ظل بيتر على وقفته موليا ظهره اليها بينما التفتت أختاه. قالت المرأة:

-لاتهتموا أبدا بكلام زوجي «بيل». نباحه أسوأ من عضته. بعض أولاد «درب فارلي» لعينون بمعنى الكلمة. أحدهم هو الذي راح يسبه ويستفزه من على جسر مارلو.

فسألتها فيليس:

-من فعل ذلك؟

قالت المرأة:

-لاأدري. لاأحد يعرف! ولكن هذا حصل بشكل من الاشكال ولاأعرف شيئا عن الاسباب وغير ذلك. كلمات تسمم نفس أي قبطان. لاتهتموا بما قال. وهو لن يعود قبل ساعتين على الاقل. يمكنكم اصطياد كمية كبيرة من الاسماك قبل عودته. الضوء كاف وكل شيء حسن.

قالت بوبي:

-شكرا. أنت انسانة طيبة جدا. أين طفلك؟

فقالت المرأة:

-نائم في الكابينة، بأتم راحة. لن يفيق من نومه قبل

الثانية عشرة. مظبوط مثل ساعة الكنيسة.

قالت بوبي:

-باللاسف. كنت أود أن أراه... عن قرب.

فقالت المرأة مشرقة الوجه:

-هو أجمل مما تتصورين، ولو أني أنا أقول هذا.

سألها بيتر:

-الاتخافين أن تتركيه وحده؟

فأجابت المرأة:

-باركك الرب .. لا. من يفكر بايذاء طفل صغير مثله؟ ثم هناك «سبوت». وداعا!

وذهبت المرأة. سألت فيليس:

-هل نعود الى البيت.

فقال بيتر باختصار:

-يمكنك العودة. أنا سأصطاد سمكا.

فقالت فيليس:

-كنت أعتقد أننا جئنا هنا لنتحدث عن عيد ميلاد بيركس.

-لاخير في ذلك على عيد ميلاد بيركس.

وهكذا نزلوا ثانية الى جرف القناة وراح بيتر يصطاد السمك. فلم يصطد سمكة واحدة.

أوشك الظلام أن يهبط. وشعرت الفتاتان بالتعب.

وما أن قالت بوبي أنهم تأخروا على موعد النوم، حتى صرخت فيليس فجأة:

–ماهذا؟

وأشارت الى المركب. كانت خيوط رقيقة من الدخان تتصاعد من مدخنة الكابينة وتتلاشى في هواء المساء العذب. لكنها صارت الان دفقات كثيفة لاتخرج من المدخنة، بل تندفع من باب الكابينة نفسها. قال بيتر بهدوء:

–الكابينة تحترق. يستحق ذلك.

فصاحت فيليس به:

–آه، كيف يطاوعك قلبك على مثل هذا الكلام؟ فكر بالكلب اللطيف المسكين.

صرخت بوبي مرعوبة:

– الطفل !

فانطلق الثلاثة بسرعة البرق الى المركب. كانت حبال الارساء راخية. ومع ان الهواء كان قليل الحركة الا انه استطاع ان يدفع مقدمة المركب نحو الجرف. كانت بوبي اول من تسلق الى المركب. تلاها بيتر. غير ان قدمه زلت ووقع في ماء القناة. وغطس حتى وصل الماء الى رقبته ولم تلامس قدماه الارض. لكن الذي انقذه هو انه تمسك بالمركب. اسرعت فيليس تجره من شعره وساعدته على

الخروج بالرغم مماسببه ذلك له من ألم. وتسلق صاعدا الى المركب. ولحقت به فيليس. صاح بيتر بأخته بوبي:

– لا انت ! انا، لانيّ مبلل.

وامسك بيتر ببوبي عند بوابة الكابينة ودفع بها جانبا بخشونة واضحة. لو انهم كانوا يلعبون لجعلتها تلك الخشونة تبكي بدموع الغضب والالم. اما الآن فقد اختلف الامر. صحيح أنه دفعها بعيدا بقوة اوقعتها ارضا واصابت ركبتها وذراعها برضوض، الا انها صاحت:

– لا – لا انت – انا.

وحملت نفسها على الوقوف، ولكن ببطء.

كان بيتر قد هبط درجات سلم الكابينة وسط سحب الدخان الكثيف. توقف لحظة ليتذكر كل ماسمعه عن الحرائق. فسحب منديله المبلل من جيب الصدر وشده حول فمه. ثم انزله قليلا ليقول لاختيه:

– لاداعي للخوف. لااكاد ارى نارا ابدا. كان ذلك التصرف من جانب بيتر حسنا، ولو انه قال كذبا. فقد اراد به ان يمنع بوبي من الاندفاع وراءه الى الاذى. لكن الكذبة لم تنجح، بالطبع كانت الكابينة تتوهج بضوء احمر. وكان هناك مصباح زيتي يرسل نورا ضعيفا من ضباب برتقالي اللون. رفع بيتر المنديل عن فمه لحظة وصاح:

– مرحى . . انت ياصغيري . . . اين انت ؟

وحبس الدخان انفاسه . فصاحت بوبي ، التي لحقت به :

– آه ، دعني اذهب اليه .

فدفعها بيتر الى الوراء دفعة اقوى من سابقتها . وتقدم الى داخل الكابينة .

لا ادري ماذا كان سيحصل لو ان الطفل لم يبكِ – لكن الذي حصل انه بكى في تلك اللحظة . فتلمس بيتر طريقه خلال الدخان القاتم ليعثر على شيء صغير ورقيق ودافئ ونابض بالحياة . فالتقطه وارتد الى الوراء حتى كاد ان يتعثر بأخته بوبي الواقفة خلفه مباشرة . وزمجر كلب بالقرب من ساقيه – وحاول ان ينبح ، لكن الدخان خنق صوته .

قال بيتر وهو ينزع المنديل عن فمه ويسرع متعثرا نحو السطح .

عثرت بوبي على المكان الذي صدر عنه النباح ، فلمست بيديها كلبا ذا ظهر سمين وشعر ناعم . ادار الكلب رأسه وعضّ على يدها ، ولكن عضة رقيقة كأنه يريد ان يقول لها : «واجبي ان انبح واعض الغرباء الذين يدخلون كابينة سيدي ، ولكنك لاتنوين شرا لذلك فإني لن اعضك فعلا» .

طرحت بوبي الكلب ارضا وقالت :

– حسنا ، ايها الشيخ العجوز . كلب طيب . اسمعني يابيتر . هات الطفل . انت مبلل وستسبب له زكاما .

وقد فرح بيتر فرحا عظيما بالتخلص من اللفة الصغيرة الغريبة التي كانت تتلوى وتئن بين ذراعيه . قالت بوبي بسرعة :

– والآن اركض رأسا الى (الوردة والتاج) واخبرهما . انا وفيليس سنبقى مع الغالي . هش ، ياعزيزي ، يابطتي ، ياحبيبي ! هيا يابيتر الآن ! اركض !

فقال بيتر بصورة قاطعة :

– لااستطيع الركض بهذه الثياب . ثقيلة كالرصاص . سامشي .

فقالت بوبي :

– إذن سأركض أنا . فيل انزلي الى الجرف حتى اناولك الطفل العزيز .

واوصلت الطفل بعناية الى فيليس التي جلست على الجرف وراحت تحاول ان تهدهده . وعصر بيتر الماء من كميه وسرواله بقدر المستطاع ، فيما انطلقت بوبي مثل الريح عابرة الجسر نحو الدرب الطويل المؤدي الى حانة «الوردة والتاج» ، الذي بدأت تخيم عليه ظلمة المساء . ثمة غرفة عتيقة في الحانة يجلس فيها اصحاب



المراكب وزوجاتهم يشربون بيرة العشاء ويشوون قطع الخبز والجبن على كومة كبيرة من جمر الفحم داخل موقد جداري كبير ينشر جوا من الدفء والجمال والراحة . مكان لم ارَ مثيلا له من قبل .

كان هناك جمع سعيد من ربابنة المراكب حول النار .

قد لاتعدّه جمعا سعيدا ، إنما هو كذلك لأنه يضم أصدقاء ومعارف. يحبون الاشياء نفسها ويتحدثون بنفس الاحاديث. ذلك هو السر الحقيقي للمجتمع البهيج السعيد. فهذا (بيل) ، ربان المركب الذي رآه الأطفال شخصا بغيضا ، يعُدّ رجلاً لطيف المعشر في نظر أصحابه. كان يروي لهم حكاية أخطائه واعتداءاته — موضوع مثير دائما. وكان حديثه منصبا ، هذه المرة ، على مركبه :

— أرسل يطلب مني أن «أصبغ المركب من الداخل والخارج» من دون أن يذكر لون الصبغ الذي يريد.. أرأيتم؟ لذا جئت بكمية كبيرة من الطلاء الأخضر وصبغتها من طرف الى الطرف الاخر. وصدقوني أنها صارت رائعة. ثم يجئ هو ويقول :

«لماذا صبغتها كلها بلون واحد؟».. يقول. وأقول أنا ، أنا أقول له : «لأنها هكذا تبدو درجة أولى» أقول : «ومازلت أعتقد بهذا». ويقول : «تعتقد؟ إذن فأنت تدفع

ثمن هذا الصبغ الزاهي» يقول. وأنا اضطررت الى دفع الثمن.

وتدور في أرجاء المكان غمغمة استياء وعطف على ربان المركب. ثم طغت على صوت اللغط ضجة. فقد اندفعت بوبي، في تلك اللحظة، من الباب الدوار لاهثة وصرخت:

– بيل! أريد القبطان بيل.

خيم صمت مذهل على الجميع. وجمدت الأيدي التي تحمل أقداح البيرة في الهواء، وكأنها أصيبت بالشلل. وإذ رأت بوبي زوجة بيل أسرعت اليها قائلة:

– كابينة مركبكم شبت فيها النار. اسرعي. فانتفضت المرأة واقفة، واضعة يدها الحمراء الكبيرة على الجانب الأيسر من أسفل الصدر، حيث موضع القلب، حين يستولي عليك الخوف أو الحزن. وصرخت بصوت رهيب:

– ريجينالد هوراس! ولدي ريجينالد هوراس!

قالت بوبي:

– لاتقلقي، إذا كنت تقصدين إبنك. أنقذناه. الكلب أيضا.

كانت ماتزال تلهث من شدة الركض، فلم تستطع أن تضيف سوى عبارة: «إذهبي – الحالة بخير». ثم ألقت

بنفسها على إحدى المصطبات محاولة أن تلتقط أنفاسها بعدما جاءت تركض بسرعة الريح، لكنها شعرت كأن نفسها انقطع تماما.

نهض الربان (بيل) ببطء وتثاقل. كانت زوجته قد ابتعدت مسافة مئة ياردة على الطريق صوب القناة قبل أن يفهم الرجل ماحدث.

كانت فيليس ترتجف من البرد على الجرف. ولم تكد تسمع وقع الأقدام السريعة تقترب حتى فوجئت بالمرأة تلقي بنفسها من وراء سياج الجرف وتتدحرج نازلة وتختطف الطفل منها. فقالت لها فيليس تؤنبها:

– ماهكذا. كنت سأجعله ينام.

بعد ذلك جاء بيل، وصار يحكي بلغة غريبة على اذان الأطفال تماما. ثم قفز صاعدا الى المركب فتناول دلوا وراح يغرف به الماء وساعده بيتر في إطفاء النار. بينما تكدست فيليس والمرأة وبوبي، ومعهن الطفل، على الجرف التماساً للدفء. راحت المرأة تقول وتكرر:

– رحمتك ياالهي! أنا لم أترك شيئا قابلا للاشتغال.

نعم، لم تكن هي المسؤولة، بل الذنب ذنب الربان بيل الذي نفض غليونه، قبل ذهابه.. فسقط الرماد الذي لم يخمد بعد على بساط قريب من الموقد فصارت جمرة ثم شبت النار في نهاية الأمر. كان الرجل منصفا

عادلاً بالرغم من قسوته وعناده، فلم يلق اللوم على زوجته كما يفعل أغلب النوتية وربابنة المراكب وغيرهم من الرجال عادة.

* * *

حين عاد الاطفال الثلاثة الى بيت المدخنات الثلاث وجدوا امهم فريسة للقلق. كانوا مبللي الثياب، ويبدو أن بيتر حاول اختلاق سبب وتحمل المسؤولية. ولكن عندما استطاعت الأم أن تستخلص حقيقة ماحدث من كلامهم المتناقض، قالت لهم إن مافعلوه كان صحيحا تماما ولايمكن الاعتراض عليه. كما أنها لم تعترض على قبولهم دعوة ودية من الربان قبل ان يودعوه عائدين. قال لهم:

– تعالوا الى هنا في السابعة من صباح الغد. سآخذكم في سفرة بالمركب حتى (فارلي) وأعود بكم. نعم سأفعل، ومجانا. تسعة عشر ناظماً!

لم يفهم الأطفال معنى «ناظم»، الا أنهم جاؤوا الى الجسر في السابعة ومعهم سلة فيها خبز وجبن ونصف فطيرة صودا هشة وقطعة كبيرة من لحم الضأن.

كان يوما رائعا. راح الحصان الابيض العجوز يشد

على الحبال، وراح المركب ينزلق بسهولة واستقامة على صفحة الماء الساكن. كانت السماء زرقاء صافية وكان السيد بيل يعامل الاطفال بأقصى مايمكن من اللطف والكياسة، بحيث لايمكن لأحد أن يتصور أن هذا الرجل هو الرجل الفظ نفسه الذي جر أذن بيتر. أما السيدة بيل فقد كانت طيبة دائما، كما قالت بوبي، بل حتى الكلب (سبوت) عامل الأطفال بلطف، ولو شاء لكان مزقهم بأسنانه. وكانوا، عند عودتهم الى البيت سعداء جداً، تعبانين جداً، وسخين جداً. قال بيتر:

– كانت رحلة مدهشة، ياأماه، من خلال ذلك السد المدهش. والنواظم – كيف أصفها لك... أنت تغطسين الى القاع... وعندما تشعرين بأن المركب سيغطس نهائيا تنفتح بوابتان سوداوان كبيرتان تدريجياً، تدريجياً واذا أنت في القناة ثانية كما من قبل.

قالت الأم:

– أعرف. هناك نواظم على نهر التيمز. بابا وأنا كنا نتنزه في قارب حتى (مارلو) قبل زواجنا.

وقالت بوبي:

– والطفل – البطة الحبيبة العزيزة – تركني أعتني به وأرعاه طوال الوقت – ماأجمل ذلك. ماما، أتمنى لو أن عندنا طفلاً رضيعاً يسلينا.

قالت فيليس:

– كلهم عاملونا بلطف. كل من التقينا بهم. وقالوا إنهم يسمحون لنا بالصيد متى مانريد. بيل سيدلنا على الطريق عندما نذهب الى هناك ثانية. يقول إننا لانعرف الطريق فعلا.

فرد عليها بيتر:

– قال عنكِ أنت. لكن ياماما، الرجل قال إنه سيخبر كل أصحاب المراكب والنوتية عنا ليعاملونا كأصدقاء طيبين، وهكذا كنا حقا.

فقاطعته فيليس:

– ثم كنت سأقول إننا سنحمل شريطا أحمر، كل واحد منا، حين نذهب لنصطاد السمك في القناة، لكي يعرفوا أننا نحن، وأننا أصدقاؤهم الحقيقيون فيعاملونا بلطف!

فقالت الأم:

– إذن، فقد كونتم مجموعة أخرى من الأصدقاء. أولاً في المحطة، ثم في القناة!

فقالت بوبي:

– آه، نعم. أعتقد أن كل واحد في الدنيا يمكن أن يصبح صديقاً إذا عرفت كيف تحصلين على صداقته وتبينين له أنك لاتريدين معاداته.

قالت الأم، وهي تتنهد:

– ربما كان ماتقولين صوابا. هيا، يافراخي، حان موعد النوم.

قالت فيليس:

– نعم. آه، واسفاه – ذهبنا الى هناك لنتحدث عما يجب أن نفعله لعيد ميلاد بيركس. ولم نقل كلمة واحدة عن هذا الموضوع!

قالت بوبي:

– لااريد أن أطيل الكلام. لكن بيتر أنقذ حياة ريجينالد هوراس، وأعتقد أن هذا كثير بالنسبة ليوم واحد.

فقال بيتر بأمانة:

– كانت بوبي ستنقذه لولا أني دفعتها بعيداً. مرتين.

قالت فيليس:

– كنت سأنقذه أنا أيضاً لو كنت أعرف ماالعمل.

فقالت الأم:

– أجل، أنتم أنقذتم حياة الطفل. أعتقد أن هذا يكفي الان. آه، اشكروا الله، ياأحبائي، على سلامتكم جميعا!

الفصل التاسع

عزة نفس بيركس

كانت ساعة الفطور . وكان وجه الام طافحا بالبهجة عندما صبت لهم الحليب والثريد . قالت :

– بعت قصة اخرى يا أفراخي . قصة (الملك والقواقع) . ولذا ستحصلون على كعك محلى مع الشاي . يمكنكم الذهاب لشراء الكعك حال مايخرج من الفرن ، يعني في الساعة الحادية عشرة تقريباً ، أليس كذلك ؟

تبادل بيتر وفيليس وبوبي النظرات في مابينهم . ست نظرات بمجموعها . ثم قالت بوبي :

– ماما ، أعندك مانع في تأجيل شراء الكعك الى اليوم الخامس عشر من الشهر؟ اي الخميس القادم ؟

قالت الام :

– لامانع عندي ان تشتروه اليوم او في مابعد . لكن لماذا ؟

فقالت بوبي :

– لانه يصادف عيد ميلاد بيركس . لقد بلغ الثانية

والثلاثين ويقول انه لم يعد يهتم بيوم مولده ، لأن عنده اشياء اخرى يهتم بها – لا ارانب ولا اسرار – بل الجداء والسيدة . . .

قالت امها :

– تقصدين زوجته واطفاله .

فقالت فيليس :

– اجل . نفس الشيءْ ، أليس كذلك ؟

قال بيتر :

– وقد فكرنا في حفلة عيد ميلاد لطيفة له . لقد كان في منتهى الطيبة والمودة معنا ، تدرين بهذا ياماما ، وقد اتفقنا على ان نخصص الكعك المحلى التالي له . . كنا سنسألك الموافقة .

فقالت الأم :

– افرضوا انكم ماحصلتم على الكعك المحلى قبل الخامس عشر من الشهر ؟

– آه ، عندئذ كنا سنرجوك ان تسمحي لنا بأن نستبق المناسبة ونتنازل عن الكعك المحلى هذه المرة .

فقالت الأم :

– تستبقون ؟ فهمت . يمكنكم ذلك بالتأكيد . يستحسن ان تضعوا اسمه على الكعك بالكريم الوردي . أليس هذا افضل ؟

فقال بيتر :

– بيركس ! اسم غير جميل .

فقالت فيليس :

– اسمه الاول «آلبرت» . سألته عنه مرة .

فقالت الام :

– يمكننا ان نكتب الاحرف الاولى من اسمه «اي – بي» . سأوضح لكم الطريقة في وقتها .

كان كل شيءْ يسير حسنا حتى ذلك الحين . ولكن أربع عشرة كعكة ، ذات سعر نصف بنس ، مكتوب عليها بالاحرف الاولى بوساطة الكريم الوردي ، لاتشكل احتفالا كبيرا حقا .

عندما عقد الثلاثة اجتماعا لبحث الموضوع في مخزن التبن العلوي ، حيث توجد ماكنة سحق القش العاطلة وصف الفتحات التي يرمى منها التبن الى معالف الخيل في الاسفل ، قالت بوبي :

– سنقدم له الزهور ايضا بالطبع .

فقال بيتر :

– عنده ، هو ، الكثير من الزهور .

فقالت بوبي :

– لكن جميل دائما ان تقدم لك زهور ، ولوكان عندك الكثير منها . نستطيع الاستفادة منها في عمل الزينات

لعيد الميلاد . لابد من وجود بعض الزينات الى جانب الكعك .

قالت فيليس :

– فلنهدأ ونفكر . لايتكلم احد منا الا عندما يأتي بفكرة .

وهكذا لبثوا هادئين ساكتين ساكنين حتى ان فأرا رماديا ظن ان لااحد في مخزن التبن فخرج بكل جرأة ، وعندما عطست بوبي ذعر ذعرا شديدا ولاذ بالفرار مقتنعا بأن مخزن التبن ، بما يمكن ان يجري فيه ، مكان لايصلح لفأر متقدم في السن محترم يميل الى الحياة الهادئة . صاح بيتر فجأة :

– هورا ! وجدتها .

وقفز من مكانه وراح يرفس القش بقدمه . فسألته اختاه بتلهف :

– ماذا ؟

– بيركس انسان طيب مع الجميع . لابد ان في القرية كثيرين يودون المساهمة في الاحتفال بعيد ميلاده . فلنذهب الى القرية ونسألهم كلهم .

فقالت بوبي :

– ماما لاتسمح لنا بطلب اشياء من الناس .

فقال بيتر :

– تقصدين : نطلب لنفسنا ، ياغبية ، لالغيرنا .

ساطلب المساعدة من السيد العجوز ايضا . سترين كيف افعل .

قالت بوبي :

– لنسأل ماما اولا .

– فقال بيتر :

– أوه ، ماالفائدة من ازعاج ماما بكل صغيرة وكبيرة ، خاصة وهي مشغولة . هيا بنا . لنذهب الى القرية ونبدأ من الآن .

وذهبوا . قالت السيدة العجوز التي تدير مكتب البريد إنها لاترى سببا لاحتفال بيركس بعيد ميلاده دون غيره من الناس . فقالت بوبي :

– لا . انا اود ان يحتفل كل الناس بأعياد ميلادهم . كل ماهنالك اننا لانعرف متى يصادف عيد ميلاد بيركس .

فقالت العجوز :

– عيد ميلادي انا يوم غد ولن ينتبه اليه احد . اذهبوا عني .

فتركوها وذهبوا .

بعض الناس عاملهم بلطف وبعض عاملهم بخشونة . وبعضهم اعطى وبعض لم يعطِ شيئا . مهمة صعبة ان تدور على الناس تسألهم شيئا ، حتى لو كان ذلك لأجل الآخرين . جرب هذا ، عزيزي القارئ ،

وستجد انه امر صعب من دون شك .

حين عاد الاطفال الى البيت وراحوا يحصون ماحصلوا عليه من هدايا ومن وعود ، وجدوا انهم حققوا نتائج لابأس بها في اليوم الاول . وقام بيتر بتسجيل قائمة بالهدايا في دفتر ملاحظاته الصغير الذي يدون فيه ارقام القاطرات ، فكانت القائمة الآتية :

الهدايا الحاصلة :

غليون تبغ من دكان الحلويات .

نصف ليبرة من الشاي من العطار .

لفّاف صوفي حائل اللون قليلا من بائع الاقمشة المجاور للعطار .

سنجاب محنّط من الطبيب .

الوعود :

قطعة لحم من القصاب .

ست بيضات طازجة من المرأة التي تعيش في الكوخ العتيق على ناصّية الشارع الرئيس .

قليل من العسل وستة اشرطة احذية من الاسكافي ومجرفة حديدية من الحداد .

نهضت بوبي مبكرة جدا صباح اليوم التالي واوقظت فيليس . كانت الفتاتان قد اتفقتا على عدم إخبار بيتر بمشروعها خشية ان يعتبره عملا سخيفا . ثم اخبرتاه بعد

تنفيذ المشروع ونجاحه .

فقد قامتا بجمع باقة كبيرة من الورود ووضعها في سلة ومعها كتاب فن الحياكة الذي صنعته فيليس لاختها بوبي في عيد ميلادها وربطة عنق زرقاء جميلة من عند فيليس . ثم كتبتا على ورقة «الى السيدة رانسوم ، مع اطيب المشاعر ، بمناسبة عيد ميلادها» ووضعتا الورقة في السلة وذهبتا بها الى مكتب البريد فوضعتاها امام مدخل المكتب ولاذتا بالفرار قبل مجيء السيدة العجوز للدوام .

عندما عادتا الى البيت وجدتا ان بيتر قد انصرف الى مساعدة امه في تحضير الفطور وحكى لها عن خطتهم لعيد ميلاد بيركس . فقالت الام :

– لاضير ، انما هي تعتمد على كيفية قيامكم بتنفيذها . كل ماارجوه ان لاتجرح شعور الرجل ويعتبرها صدقة . تدرون ان الفقراء عندهم عزة نفس .

فقالت فيليس :

– نحن لانفكر بعيد ميلاده لانه فقير ، بل لاننا نحبه .

قالت الأم :

– سأبحث عن بعض الثياب التي صغرت على فيليس . . ان كنتم واثقين من انكم تستطيعون تقديمها اليه من دون جرح لشعوره . يسرني ان اعد له هدية ما لانه كان طيبا جدا معكم . لن تكون هدية كبيرة لاننا ، أنفُسنا ،

فقراء . ماذا تكتبين يابوبي ؟

اجابت بوبي :

– لاشيءُ معين . انا واثقة بأنه سيعجب بالهدايا . وفجأة راحت تخربش على ورقة .

انفق الاطفال صباح الخامس عشر من الشهر بمنتهى السعادة بين المجيء بالكعك المحلّى ومراقبة امهم تكتب عليه بالكريم الوردي الحرفين الاولين من اسم بيركس . تعرفون كيف تكتب الحروف بالطبع ؟ نأتي ببياض البيض ونمزجه بالسكر المسحوق ونضيف الى المزيج بضع قطرات من صبغة قرمزية . ثم نصنع قمعا من ورق ابيض نظيف ونعمل في رأسه فتحة صغيرة ونصب مزيج السكر في القمع . فيخرج ببطء على شكل خيط من الفتحة الصغيرة فيمكننا كتابة الاسماء به كما لو كان قلما كبيرا حبره من معجون السكر الوردي اللون .

بدت قطع الكعك جميلة وهي مزينة بالاحرف الاولى من اسم بيركس . وعندما وضعتها الام في فرن خافت الحرارة لتجفف الزينة الوردية ، انطلق الاطفال الى القرية لجلب العسل والمجرفة وغيرهما من الهدايا الموعودة .

كانت السيدة العجوز صاحبة مكتب البريد واقفة على عتبة المكتب . حياها الاطفال قائلين «صباح الخير»

بأدب و تابعوا مسيرهم فقالت لهم :

– انتظروا لحظة ياالولاد .

فتوقفوا . قالت :

– تلك الورود .

سألتها فيليس ، وهي تتقافز فرحا :

– هل اعجبتك ؟ كانت ورودا يانعة فعلا . انا صنعت كتاب اشغال الابرة (الحياكة) ، ولكنه هدية بوبي .

قالت السيدة العجوز :

– هاكم ، خذوا سلتكم .

ودخلت الى المكتب وعادت حاملة السلة ملأى بالكشمش الاحمر الريّان ، وقالت :

– لعل اطفال بيركس يحبونه .

فقالت فيليس ، وهي تلف ذراعيها الصغيرين حول خصر العجوز السمينة :

– يالك من عجوز حبيبة . بيركس سيفرح .

فقالت السيدة العجوز وهي تربت على كتف فيليس :

– لن يفرح بمقدار فرحي بالكتاب والربطة والورود الجميلة وكل شيءُ . انتم ارواح صغيرة طيبة . . هكذا انتم . اسمعوني . . عندي عربة اطفال موجودة في الكوخ الخشبي وراء المكتب . كنت اشتريتها لعيد ميلاد حبيبتي

ايمي التي لم تعش اكثر من ستة اشهر . بودي ان تأخذ السيدة بيركس العربة . ستساعدها على حمل رضيعها الضخم . هل يمكنكم ايصالها لها ؟ فهتف الاطفال بصوت واحد :

– آه !

مضت العجوز الى الكوخ الخشبي وعادت بالعربة الكبيرة ذات المظلة ونزعت عنها قطع الورق التي كانت تغطيها بعناية ونفضت عنها الغبار وقالت :

– ها هي . لاادري ماذا كنت سأعطي المرأة لو لم افكر بالعربة ! إنما لاادري ان كانت ستقبل الهدية مني . اخبروها بأنها عربة حبيبتي الصغيرة ايمي .

– أوه ، اليس جميلا التفكير بأن العربة ستحمل طفلا حيا ثانيا !

فقالت السيدة رانسوم ، وهي تتنهد ثم تضحك :

– بلى . صبرا سأعطيكم بعض حلوى النعناع للصغار . . . والآن اذهبوا بسرعة قبل ان اعطيكم سقف بيتي والثياب التي على جلدي . شحن الاطفال الهدايا التي جمعوها لعيد ميلاد بيركس في عربة الأطفال . وفي الثالثة والنصف دفع الثلاثة العربة امامهم في الطريق الى البيت الاصفر الصغير الذي تقيم فيه أسرة بيركس .

كان البيت بمنتهى النظافة والترتيب . واصطفت على



افريز النافذة بعض اصص تحمل ازهارا برية متنوعة .

وكان صوت رشاش ماء يأتي من الحمام . وفي تلك اللحظة اطل طفل مبلل برأسه من الباب وقال :

– ماما تبدل ثيابها .

وجاء صوت من فوق ، عبر سلم ضيق مغسول حديثا :

– لحظة وانزل .

انتظر الاطفال . وفي اللحظة التالية صارت درجات السلم تئز ونزلت السيدة بيركس ، وهي مازالت تزرر الجزء الصدري من ثوبها . كان شعرها الناعم مسرّحا ومشدودا الى الخلف ووجهها يلمع بفعل الماء والصابون . قالت مخاطبة بوبي :

– تأخرت في تغيير ثيابي ، يا آنسة ، بسبب التنظيف الإضافي ، اليوم ، بيركس يقول إنه يوم عيد ميلاده . لاادري ماذا ادخل هذه الفكرة في رأسه . نحن نحتفل بأعياد ميلاد الاطفال بالطبع . اما عيد ميلاده هو وانا – لقد كبرنا على هذه الحكايات . هكذا حال الناس .

قال بيتر :

– علمنا ان اليوم عيد ميلاده . وجئنا له ببعض الهدايا . . . في عربة الاطفال عند الباب .

ولما أفرغوا الهدايا من العربة شهقت السيدة بيركس.

وعندما تم فتح لفائف الهدايا كلها ألقت المرأة بنفسها على كرسي خشبي وانفجرت بالبكاء على نحو أدهش الأطفال وأرعبهم. قال الجميع :

– أوه، بالله عليك، لاتبكي! أوه، لاتبكي رجاء!

وأضاف بيتر قائلاً بشيء من نفاد الصبر:

– ماذا جرى؟ لا أظنك تريدين بهذا، القول بأنك لاتحبين الاحتفال بالمناسبة؟

صارت السيدة بيركس تنشج فيما وقف صغارها عند باب الحمام، بوجوههم اللامعة من النظافة، ينظرون باستياء الى الغرباء المتطفلين. ساد صمت، صمت مطبق.

ربّتت بوبي وفيليس على ظهر السيدة بيركس، بينما سألها بيتر ثانية:

– ألا يعجبك ذلك؟

توقفت المرأة عن البكاء فجأة مثلما بدأت، ثم قالت:

– صبرك، صبرك. لا تفكروا بي. أنا على مايرام. لايعجبني؟ عجباً! عيد ميلاد لم يرَ بيركس مثله في حياته، حتى وهو صبي يعيش عند عمه، بائع الحبوب الميسور الحال.

افلس فيما بعد. يعجبني؟ أوه...

ومضت المرأة تتكلم فقالت الكثير من الأشياء التي لن

اذكرها هنا لأني واثقة بأن بيتر وبوبي وفيليس لا يحبذون ذكرها. والتهبت آذان الأطفال حرارة وزاد احمرار وجوههم خجلاً أمام كلمات الشكر والمديح من السيدة بيركس، شاعرين بأنهم لم يفعلوا ما يستحقون عليه كل ذلك الثناء.

قال بيتر في نهاية الأمر:

– انتبهي اليّ. نحن مسرورون لسرورك. لكن اذا استمريت بهذا الكلام فسوف نعود الى بيتنا. نحن نريد البقاء لنرى هل سيفرح المستر بيركس هو الآخر. ولكننا لا نستطيع تحمل هذا المديح.

قالت السيدة بيركس باسمةً:

– لن أضيف كلمة واحدة بعد، لكن هذا لا يمنعني من التفكير، أليس كذلك؟ لأنه اذا حصل... فقطعت بوبي عليها كلامها قائلة:

– نريد اناء للكعك.

فأسرعت السيدة بيركس تعدّ المائدة للشاي. فنشرت عليها أوان تحمل الكعك والعسل والكشمش ووضعت الورود في وعائي مربى زجاجيين. فصارت مائدة الشاي – على حد قول السيدة بيركس – «تليق بالأمراء». قالت:

– عندما أفكر!... كان عليّ أن أبكر بتنظيف البيت وترتيبه والصغار يأتون بالزهور البرية وكل شيء، ولكن لم

يخطر ببالي أن سيكون هناك شيء سوى «أونس» التبغ المفضل الذي أوفر لاشتريه له بهذه المناسبة. ليباركنا الله! هاهو قادم، مبكراً!

همست بوبي:

– أوه، لنختبىء في نهاية المطبخ واخبريه أنت عن الاحتفال، ولكن قدمي له التبغ اولاً لأنه هديتك أنت. وبعدما تخبريه بموضوع الهدايا نخرج نحن كلنا ونهتف «عيد ميلاد سعيد!».

كانت خطة حسنة، الا أنها لم تنجح النجاح المطلوب. اولاً اضطر بيتر وبوبي وفيليس، بسبب ضيق الوقت الى الاسراع بدخول الحمام ومعهم صغار بيركس ولم يكن لديهم الوقت الكافي لسد الباب وراءهم. ولذا صاروا يسمعون، دون قصد، كل ما يجري في المطبخ. كان الحمام صغيراً لايكاد يتسع لأطفال بيركس وأطفال بيت المدخنات الثلاث، فضلاً عن لوازم الحمام بما فيها السخان النحاسي ومجففة الملابس. سمع الأطفال صوت بيركس يقول:

– مرحباً ياعجوز! أرى مائدة حافلة!

أجابت السيدة بيركس:

– هذه مائدة شاي عيد ميلادك يا بيرت. وهذا قليل من تبغك المفضل. اشتريته لك يوم السبت، عندما تذكرت

أنت عيد ميلادك.

– ياللفتاة العجوز الطيبة'

وكان هناك صوت قبلة.

– ولكن ما معنى وجود هذه العربة هنا؟ ما هذه الرزم؟ من أين جئت بهذه الحلويات... و – لم يسمع الأطفال جواب السيدة بيركس. فقد اجفلت بوبي في تلك اللحظة واستولى عليها رعب شديد عندما مدت يدها في جيبها.

قالت هامسة:

– آه، ماذا نفعل؟ نسيت أن أضع البطاقات على الهدايا! لن يعرف هدية من هذه أو تلك. سيظن أن كل الهدايا من عندنا وأنا نحاول أن نكون من الشخصيات أو المحسنين أو غير ذلك من الأشياء الفظيعة.

قال بيتر:

– صه!

عندئذ سمعوا صوت المستر بيركس يدوي بغضب:

– لا يهمني. أنا لا أتحمل ذلك. وأقول لك هذا مباشرة.

فقالت السيدة بيركس:

– كل هذه الضجة على الاطفال – اطفال بيت المدخنات الثلاث!

فقال بيركس بإصرار:

– لا يهمني. حتى لو كان الفاعل ملاك من السماء.

عشنا كل هذه السنين من دون أن نحتاج الى أفضال الناس، ولا أحتاج وأنا في هذا العمر الى صدقات. أليس كذلك يانيل؟

فقالت السيدة بيركس المسكينة:

– أوه، اسكت! أمسك لسانك السخيف، بالله عليك يابيرت. الأطفال ثلاثتهم هنا، في الحمام، يسمعون كل كلمة تقولها.

فقال بيركس الغاضب:

– اذن سأجعلهم يسمعون شيئاً. لقد قلت لهم رأيي سابقاً وسأقول لهم هذا ثانية.

وخطا خطوتين واسعتين نحو باب الحمام فدفعه بقوة ومن ورائه الاطفال، وقال:

– اخرجوا. اخرجوا وقولوا لي ماذا تقصدون. هل اشتكيت لكم يوماً من الحاجة حتى تأتوني بهذه الصدقات؟

فقالت فيليس:

– آه، ظننت أنك ستفرح. لن اكون طيبة مع أي انسان من الأن فصاعداً. لا، لن أكون، مطلقاً.

وانفجرت بالبكاء. وقال بيتر:

– لم نقصد أن نجرح شعورك.

فقال بيركس:

– ليس المهم ماتقصدون، بل ما تفعلون.

فصاحت به بوبي، محاولة أن تكون أشجع من فيليس، وأن تقول اكثر مما قاله بيتر:

– آه، كفى! كنا نعتقد بأنك ستفرح للهدايا. نحن نتلقى دائماً هدايا في أعياد ميلادنا.

فقال بيركس:

– أوه، أجل. من معارفكم.. هذا شيء مختلف.

فأجابت بوبي:

– آه، لا. لا من أقاربنا. كل الخدم في بيتنا كانوا يقدمون لنا هدايا ونحن نعطيهم الهدايا في أعياد ميلادهم.

عندما جاء عيد ميلادي أهدتني ماما دبوس صدر على هيئة باقة زهور وأعطتني السيدة فيني وعائين زجاجيين جميلين، ولم يفكر أحد، بموضوع الصدقات والاحسان.

فقال بيركس:

– لو كانت هذه المسألة مسألة آنية زجاجية ما كنت قلت شيئاً. لكن مع كل هذه الاكوام من الاشياء، فأنا لا أطيق ذلك – لا أحد يطيق ذلك.

فقال بيتر:

– لكن هذه الاشياء ليست كلها من عندنا. كل ما هنالك أننا نسينا وضع بطاقات التهنئة عليها. إنها مرسلة

من سكان القرية جميعاً.

فسأل بيركس:

– من طُلب منهم؟ أريد أن أعرف.

فقالت فيليس:

– نحن. ماذا في ذلك!

استلقى بيركس على الكرسي ذي المساند وراح ينظر اليهم نظرات، وصفتها بوبي فيما بعد بأنها تنطق بالحزن واليأس.

– إذن، كنتم تدورون في القرية تخبرون الناس بأننا لا نقدر على تدبير معيشتنا؟

طيب. الآن، بعدما شوّهتم سمعتنا الى أقصى حد في المنطقة، يمكنكم أن تعودوا بكيس الحواة هذا من حيث جئتم. أنا ممنون لكم، بالتأكيد لا أشك في طيبة قصدكم، لكني لن أسلم عليكم بعد الان اذا كان لايهمكم سلامي أو عدمه.

ثم أدار كرسيه بقصد وأعطاهم ظهره. وكان صرير أرجل الكرسي على أرضية المطبخ المبلطة بالآجر هو الصوت الوحيد الذي كسر الصمت. وفجأة قالت بوبي:

– اسمع. هذا فظيع للغاية.

فقال بيركس من دون أن يلتفت:

– هذا نفس رأيي.

فقالت بوبي بيأس:
– اسمعني. سنذهب إن احببت – ولا داعي لأن تكون صديقنا اذا لم ترغب، ولكن...
فقالت فيليس بعنف:
– سنبقى أصدقاء لك مهما عاملتنا بسوء فهمس بيتر بحدة:
– أسكتي.
تابعت بوبي كلامها الحافل بالاستياء:
– لكن قبل أن نذهب، دعني أريك البطاقات التي كنا سنضعها على الهدايا.
فقال بيركس:
– لا أريد رؤية اية بطاقات، سوى البطاقات المثبتة على الامتعة وحقائب السفر. تتصورين أني حافظت على احترام الناس وعدم الاقتراض على الراتب وزوجتي تضطر الى العمل كغسالة، حتى أضحي بكل هذا وأجعل من نفسي أضحوكة بين كل الجيران؟
قال بيتر:
– اضحوكة؟ اذن أنت لا تعلم.
فقالت فيليس باكية:
– أنت سيد متسرع جداً. تدري أنك اخطأت قبل هذه المرة، يوم تصورت أننا اخفينا عنك سر السيد الروسي. اصغ الى بوبي تخبرك عن البطاقات!

فقال بيركس متذمراً:
– حسناً، تفضلي!
راحت بوبي تبحث في جيبها المنتفخ بأصابع مضطربة، وقالت:
– حسناً، اذن. لقد كتبنا كل كلمة قالها الناس عندما قدموا الهدايا، مع اسماء القائلين، لأن ماما نبهتنا الى أنك قد تتأثر.. لأنه، لكني دونت ما قالته بالحرف الواحد – سترى ذلك بنفسك.
اختنق صوت بوبي فلم تستطع القراءة رأساً. وبلعت ريقها مرة أو مرتين قبل أن تتمكن من القراءة.
ظلت السيدة بيركس تبكي منذ أن فتح زوجها باب الحمام. فتوقفت عن البكاء وبلعت ريقها وقالت:
–لاتكدّري نفسك ياآنستي الصغيرة. أدري أن قصدكم طيب، ولو أنه لايفهم ذلك.
سقطت دموع بوبي على القصاصات وهي تحاول فرزها وقالت بصوت تخنقه العبرة:
–أأقرأ البطاقات؟ أولأكلمات ماما.
قالت: «ملابس صغيرة لاطفال بيركس. سأبحث عن بعض الثياب التي صغرت على فيليس اذا كنتم متأكدين أن ذلك لن يجرح شعور المستر بيركس ولايعدّه نوعا من الصدقة. يسرني أن أعد له هدية ما لانه كان طيبا

جدا معكم. لن تكون هدية كبيرة لأننا، نفسنا، فقراء».
توقفت بوبي، فقال بيركس:
- هذا حسن. أمك سيدة أصيلة. سنحتفظ بالثياب الصغيرة...وماذا غير هذا يانيل؟
قالت بوبي:
-ثم هناك عربة الاطفال والكشمش والحلوى.
من السيدة رانسوم. قالت: «لعل أطفال بيركس يحبون الحلوى. والعربة لصغيرتي المي - التي لم تعش سوى ستة أشهر ولم تنجب غيرها - بودي أن تأخذ السيدة بيركس العربة ستساعدها على حمل طفلها الجميل. كنت ساعطيها العربة من قبل لو أني كنت متأكدة من أنها ستقبلها».
وأضافت بوبي:
-طلبت مني أن أخبركم بأن هذه هي عربة إلمي.
فقالت السيدة بيركس:
-لايمكن أن أعيد العربة، ولن أفعل. فلا تطلب مني
...
فرد بيركس عليها بخشونة:
-أنا لاأطلب شيئا.
قالت بوبي:
-ثم المجرفة. المستر جيمس صنعها لك بنفسه.

وقال-أين صارت القصاصة؟ آه، ها هي! - قال: «اخبري المستر بيركس بأني مسرور لان أقدم هذا الشئ المتواضع لرجل يتمتع بهذه الدرجة الكبيرة من الاحترام». ثم قال إنه يتمنى لو يستطيع دق حدوات في أرجل أطفال بيركس وأطفاله كما يفعلون مع الخيل، لانه، يعرف كم تكلف الاحذية الجلدية
فقال بيركس:
-جيمس فتى طيب حقا.
فأسرعت بوبي الى القول:
-ثم هناك العسل وأشرطة الأحذية. قال عنك:
«إنه رجل محترم يتجنب الديون» وقال القصاب الشئ نفسه. وقالت العجوز صاحبه الكوخ الذي على ناصية الطريق إنك ساعدتها مرارا في تنظيم حديقتها أيام كنت صبيا وأن الأوان قد حان لرد بعض الجميل. وكل من قدم هدية قال أنه يحبك وكلهم أعجبوا بفكرتنا. ولم يتحدث أحد عن صدقة أو أي شئ فظيع من هذا النوع.
والسيد العجوز أعطى بيتر جنيها ذهبيا ليقدمه لك قائلا انك رجل مخلص في عمله. وأنا ظننت أنك تحب أن تعرف كم يحبك الناس. ولكني لم أشعر في حياتي بمثل ماأشعر به من تعاسة الان. وداعا. آمل أن تغفر لنا خطأنا في يوم من الايام.

لم تستطع أن تضيف شيئا واستدارت لتذهب. فقال بيركس، وهو مازال موليا ظهره لهم:

–توقفوا! أنا أسحب كل كلمة قلتها تخالف ماتريدون. نيل، سخني الماء للشاي.

فقال بيتر:

–سنعيد الاشياء إن كانت تسبب لك حزنا.

لكن أعتقد أن الجميع سيصابون بخيبة أمل شديدة مثل خيبتنا.

قال بيركس:

–لست حزينا. لاأدري.

ثم استدار بكرسيه فجأة فبدا وجهه عابسا بشكل غريب وأضاف: – ماشعرت من قبل بمثل سروري الان. لابسبب الهدايا، ولو أنها من الطراز الاول، بل بهذا الاحترام الكبير من جيراننا. اليس كذلك يانيل؟

فقالت السيدة بيركس:

–اعتقد أن كل شيْ يستحق ، وأنت أثرت ضجة سخيفة بلا سبب يابيرت. اذا أردت رأيي. فقال بيركس بصورة قاطعة:

–لا، لاأريد. اذا لم يحترم المرء نفسه لايحترمه أحد.

فقالت بولي:

–ولكن الجميع يحترمونك. كلهم قالوا هذا.

وقالت فيليس بنباهة:

–كنت أعلم أن المسألة ستعجبك حين تفهمها.

غمغمت السيدة بيركس ثم قالت:

–هلا بقيتم لتناول الشاي؟

تلا ذلك أن شرب بيتر نخب صحة المستر بيركس. واقترح بيركس نخبا اخر. وكان شراب الانخاب كلها من الشاي. كان نخب بيركس: «ليديم الله خضرة الصداقة» وكانت تلك لغة شعرية لم يتوقعها أحد منه.

قال بيركس لزوجته، وهما يمضيان الى النوم:

–صغار لطيفون طيبون أولئك.

فقالت زوجته:

–ماأحسنهم! بارك الله نفوسهم. أنت الوحيد الذي يهول الامور ويخلق المشاكل. لقد أخجلتني... صدقني.

–لاداعي لذلك ، يارفيقتي العجوز. لقد تنازلت عن موقفي بسرعة حال مافهمت أنها ليست صدقات. الصدقة مسألة لم أقبلها، ولن أقبلها.

كل انواع الناس سعدوا بعيد الميلاد ذاك. فأُسرة بيركس أسعدتها الهدايا اللطيفة والفكرة الحسنة التي يحملها الجيران وفرح اطفال «المدخنات الثلاث» بنجاح خطتهم بالرغم من التأخير الذي صادفها. وصارت السيدة رانسوم تبتهج كلما رأت طفل بيركس السمين في

العربة. ودارت السيدة بيركس على الناس تشكرهم على هداياهم الكريمة وكانت تخرج من كل زيارة بصديق أطيب مما كانت تتصور.

قال بيركس، متأملا ماحدث:

-أجل.. صحيح إن مانفعله قد لايتفق دائما مع مانقصده. هذا رأيي. لو كان الامر صدقة... فقالت السيدة بيركس:

-أوه، لعن الله الصدقات. لاأحد يمكن أن يعطيك صدقة، مهما اشتدت حاجتك اليها. أراهنك. تلك مجرد روح ودّية. تلك هي.

يوم جاء الكاهن لزيارة السيدة بيركس، روت له ماجرى ثم سألته:

-كانت من باب المودّة، أليس كذلك ياسيدي؟

فقال رجل الدين:

-أظن أنها مما يسميه الناس أحيانا «الطيبة / المحبّة».

وهكذا ترون أن كل شيء انتهى نهاية طيبة. ولكن اذا أراد أحدكم أن يفعل شيئا من هذا القبيل، فعليه أن يفعله بطريقة صحيحة. فقد أصاب بيركس بقوله، بعدما تأمل المسالة جيدا، أن مايفعله الانسان قد لايتفق مع مايقصده.

الفصل العاشر

السر الرهيب

يوم ذهبت الأُسرة للعيش في بيت المدخنات الثلاث، تحدث الاطفال كثيراً عن والدهم وسألوا عنه كثيراً: ماذا يفعل وأين هو الآن ومتى يعود الى البيت؟ وكانت الأم تجيب على أسئلتهم بأحسن ماتكون عليه الإجابة. وبمرور الزمن قلّ حديث الأطفال عن أبيهم. فقد شعرت بوبي، منذ البداية تقريباً، بأن هذه الاسئلة تؤذي أمها وتحزنها لأسباب بائسة غريبة. وشيئاً فشيئاً بدأ الطفلان الآخران يشاركانها الشعور نفسه، وإن عجزا عن التعبير عنه بالكلمات.

في أحد الايام، كانت الأم مستغرقة في العمل كل الاستغراق. فحملت بوبي الشاي اليها في الغرفة الكبيرة العارية من الاثاث التي تدعى «مكتب الأم». لم يكن في الغرفة من أثاث سوى طاولة كتابة وكرسي وسجادة، ولكن كان هناك العديد من أصص الزهور على أفاريز

النوافذ وفوق رف الموقد. وكان الأطفال يتولون العناية بتلك الزهور. وكانت النوافذ الطويلة العارية من الستائر تطل على المروج والأراضي المتموجة الجميلة والتلال البعيدة التي تبدو بنفسجية اللون عند حد الأفق والتغير الأبدي في شكل الغيوم وصفحة السماء. وقالت بوبي :

–جئتك بالشاي ياأمي الحبيبة. اشربيه قبل أن يبرد.

رمت الأم قلمها بين الأوراق المتناثرة على الطاولة، أوراق مكتوبة بخطها الجميل الذي يشبه حروف الطباعة، بل وأجمل. ومررت أصابعها بشدة في خصلات شعرها كأنها توشك أن تنزعه من رأسها. فقالت بوبي :

–ياللرأس الحبيب المسكين. هل تشعرين بوجع.

قالت الأم :

–لا. نعم، قليلاً. بوبي.. تعتقدين أن بيتر وفيل بدآ ينسيان الوالد؟

فقالت بوبي باستياء :–كلا. لماذا؟

–ماعدتم تسألون عنه الآن.

أخذت بوبي تراوح على قدميها ثم قالت :

–غالباً ما نتحدث عنه حين نخلوا لأنفسنا.

فقالت أمها :

–ولكن لاتسألوني عنه. لماذا؟

لم تجد بوبي ما تجيب به على هذا السؤال وقالت في حيرة :

– أنا –أنت...

سكتت. ثم مضت الى النافذة وراحت تتطلع الى الخارج.

نادتها أمها :

–تعالي يا بوبي.

فجاءت. طوّقت الأم ابنتها بذراعيها وأراحت رأسها الموجوع على كتفها وقالت :

–حاولي أن تتذكري ياعزيزتي.

تململت بوبي قليلاً...

–أخبري ماما.

فقالت بوبي :

–حسناً، إذن. شعرت بأنك تعيسة لعدم وجود بابا معنا. ولاحظت أنك تتألمين أكثر عندما أتحدث عنه. ولذا بطلّت السؤال عنه.

–واخوك واختك؟

قالت بوبي :

–لا أدري عنهما. لم أقل لهما شيئاً قط عن هذا الموضوع، ولو أني أتوقع أنهما يحملان الشعور نفسه.

قالت الأم، هي ماتزال مريحة رأسها على كتف

ابنتها :

– بوبي ياعزيزتي، ساخبرك. أنا وأبوك نحمل في نفسنا حزناً عظيماً، الى جانب حزن الفراق.. آه، شيء رهيب، أسوأ من أي شيء يمكن أنْ تتصوريه. كنتُ في البداية أتعذب عندما أسمعكم تتحدثون عن الوالد، كأن لم يحدث شيء. لكن أفظع أمر في نظري هو أن تنسوا والدكم. هذا أسوأ شيء على الاطلاق.

قالت بوبي بصوت ضعيف للغاية :

–المشكلة أني أخذت على نفسي عهداً بأن لا أسألك أي سؤال. ولم أسألك أبداً، أليس كذلك؟ لكن... المشكلة هي... هل سيغيب عنا الى الأبد؟

فقالت الأم :

–لا. سينتهي حزننا عندما يعود الوالد الينا.

قالت بوبي :

–كم أتمنى أن أخفف عنك حزنك.

–آه، ياعزيزتي، تتصورين أنك لاتخففين عني؟ ماذا كنت سأفعل بدونكم – أنت وأخويك؟ هل تتصورين أني لم ألاحظ حسن تصرفكم – فلا تتشاجرون كالسابق، وهذه الخدمات اللطيفة التي تقدمونها لي – الزهور، تلميع أحذيتي والاسراع الى ترتيب فراشي قبل أن أمد يدي لترتيبه؟

كانت بوبي تسائل نفسها أحياناً ماإذا كانت أمها تلاحظ هذه الأشياء. قالت :

–هذا لاشيء بالنسبة الى...

حضنتها أمها مرّة أخيرة وقالت :

–يجب أن أكمل عملي. لاتقولي شيئاً لأخويك.

قبل أن يذهب الاطفال الى الفراش، في ذلك المساء، روت لهم أمهم حكايات عن الالعاب التي كانت هي والوالد يلعبانها وهم صغار يسكنون الريف قريباً من بعضهم البعض – وحكايات عن مغامرات الوالد مع أخوال الأطفال يوم كانوا صبياناً. كانت ظريفة جداً ضحك الأطفال لسماعها. سألت فيليس، بينما أشعلت الأم شموع غرفة النوم :

–الخال ادوارد مات صبياً، أليس كذلك؟

فأجابت الأم :

–أجل ياعزيزتي. كنت ستحبينه بالتأكيد. كان ولداً شجاعاً كل الشجاعة شديد الولع بالمغامرة. كان دائماً يثير المشاكل ومع ذلك يحبه الجميع. وخالك (ريجي) في سيلان الآن – أجل ووالدك غائب أيضاً. لكني أعتقد بأنهم جميعاً يعجبهم أن نتحدث عنهم وعما كانوا يفعلونه في صباهم. ألا تعتقدين هكذا؟

فقالت فيليس بصوت خائف :

-عدا الخال ادوارد. هو في الجنة الآن.

-لاتتصوري أنه نسينا أو نسي أيام زمان لأن الله أخذه. إن ينسانا فلأننا ننساه. أوه، لا. هو يتذكرنا. لقد غادرنا لفترة قصيرة من الزمن. سنراه في يوم من الأيام.

فسأل بيتر :

-والخال ريجي وبابا أيضاً؟

فقالت أمه :

-أجل. الخال ريجي وبابا أيضاً. طابت ليلتكم ياأحبائي.

فأجاب الثلاثة : «طابت ليلتك».وعانقت بوبي أمها بقوة أكثر من المعتاد وهمست في أذنها «آه، أحبك ياماما.. أحبك، أحبك».

لم تحاول بوبي أن تسأل ماهي المشكلة، لكنها لم تستطع أن تبعد الموضوع عن بالها. فوالدها لم يمت، مثل الخال ادوارد، هذا ماقالته أمها. وليس مريضاً والا كانت الأم الى جواره تسهر على راحته. أن يكون فقر الخال هو المشكلة فغير ممكن. أدركت بوبي أن هناك مسألة تمس الشعور أكثر من مسألة النقود.

قالت لنفسها:

– لابد لي من التفكير بالمسألة. لا، يجب الاّ أفعل. أنا سعيدة لأن ماما لاحظت أننا لانتشاجر كثيرا كالسابق. سنحافظ على هذه الصورة.

لكن، واأسفاه! ففي عصر ذلك اليوم دخلت بوبي مع بيتر في ماوصفاه بأنه شجار من الدرجة الأولى.

فبعد اسبوع تقريباً من وصولهم الى بيت المدخنات الثلاث رجا الأطفال أمهم أن تعطي .كل واحد جزءٌ من الحديقة لاستعماله الشخصي،فوافقت الأم وقامت بتقسيم الجانب الجنوبي، حيث أشجار الخوخ، الى ثلاث قطع وسمحت لكل واحد منهم بأن يزرع مايريد في قطعته.

فزرعت فيليس «العطري» والنسطورتيوم وشجرة فرجينيا، في أرضها. وتفتحت البذور وخرجت منها نبتات صغيرة تشبه الأعشاب، الا أن فيليس ظلت تعتقد بأن هذه النبتات ستحمل زهورا في يوم من الأيام. وأيدت شجرة فرجينيا اعتقادها فأزهرت بسرعة واكتست حديقتها ببساط من زهور وردية وبيضاء وحمراء وبنفسجية صغيرة زاهية. وكانت فيليس تقول براحة بال:

– لاأستطيع قلع الطفيليات والحشائش الضارة خشية أن أقتلع الشتلات بدلها.

زرع بيتر في أرضه بذور تخضراوات – من جزر وبصل ولفت (شلغم). وكان قد أخذ البذور من المُزارع الذي يسكن في البيت الخشبي الجميل المطلي باللونين الأبيض والأسود، وراء الجسر، ويربي في حديقة بيته

الديك الرومي والدجاج الحبشي، وكان انسانا طيباً ودوداً. الا أن بذور بيتر لم تعط الثمار المطلوبة، وذلك لأنه أخذ الكثير من تربة حديقته الصالحة ليجعلها طيناً يصنع منه بيوتاً وقلاعاً وجنوداً ولعباً أخرى، ولم يعط البذور من التربة ماتحتاجه لتنبت وتتفتح.

أما بوبي فقد زرعت في حديقتها شجيرات ورد، ولكن أوراق الشجيرات كلها ذبلت وسقطت ربما لأن بوبي اقتلعت الشجيرات من مكانها الاصلي وغرستها في أرضها في شهر أيار، وهو وقت لايصلح لنقل شتلات الورد من مكانها. لكنها لم تقتنع بأن الشتلات ماتت وظلت تعيش على الأمل الى أن جاء بيركس، في أحد الأيام، ليرى الحديقة فأخبرها بأن الشجيرات ميتة لانبض فيها مثل مسامير مغروسة في أبواب. قال:

– تصلح حطبا للنار فقط ياآنسة. اقتلعيها وأشعليها وسأعطيك أنا بعض الجذور الطرية الجيدة من حديقتي – بنفسج وفرجينيا وصفصاف حلو وأذن الفأر. حضّري الحديقة وسأجلبها لك غدا.

في اليوم التالي راحت تعمل على تهيئة الحديقة لغرس الشتلات الجديدة، وحدث في ذلك اليوم أن شكرت الأم أطفالها الثلاثة على عدم الشجار. اقتلعت بوبي الشجيرات الميتة وألقت بها في الجانب الآخر من الحديقة

حيث جمعوا كوماً كبيراً من النفايات ليشعلوا فيه النار بمناسبة عيد (غاي فوكس)(*)

في الوقت نفسه قرر بيتر ان يهدم القصور والقلاع التي بناها من طين حديقته ويسوي الأرض تمهيدا لانشاء نموذج سكة قطار بما تمر عليه من أنفاق وجسور وقنوات وغير ذلك.

وحين عادت بوبي بعد رمي اخر شجيرات ورد ميتة وجدت بيتر قد أخذ أداة تسوية التربة (المذراة) فقالت:

– أنا كنت أعمل بها.

فقال بيتر:

– طيب. أنا أعمل بها الان.

فقالت بوبي:

– لكن أنا سبقتك.

فقال بيتر:

– إذن، فقد جاء دوري الآن.

وهكذا بدأ الشجار. قال بيتر بعد جدال حام بينهما:

– أنت دائما غير راضية دون ماسبب. فاستاءت بوبي وأمسكت بمقبض المذراة وقالت متحدّية:

(*) مناسبة تقع في الخامس من تشرين الثاني وفيها يحرق الناس دمية تمثل شخصية (غاي فوكس) الذي ألقي القبض عليه وهو يحاول نسف مبنى البرلمان البريطاني عام ١٦٠٥.

– أنا قبلك.

– ألم أقل لك، منذ الصباح، إني أريد استعمالها؟ ألم أقل ذلك يافيل؟

قالت فيليس إنها لاتريد أن تكون طرفا في مشاحناتهما، لكنها سرعان ماشتركت في الشجار.

– قولي، ان كنت لازلت تتذكرين.

– بالطبع لاتتذكر – لكنها قد تؤيد كلامك.

قال بيتر:

– كم أتمنى لو كان عندي أخ بدل أختين صغيرتين حمقاوين.

كانت هذه العبارة تدل دائما على وصول غضب بيتر الى أقصى درجة. فردت بوبي عليه بنفس ردها كلما قال بيتر عبارته تلك. قالت:

– لاأدري ماالحكمة من خلق الأولاد الصغار أساساً.

وما أن قالت عبارتها هذه حتى رفعت رأسها فوقع نظرها على النوافذ الطويلة لغرفة مكتب أمها يتوهج زجاجها تحت أشعة الشمس الحمراء. وذكرها المنظر بكلمات أمها وهي تثني عليهم قائلة:

– ماعدتم تتشاجرون كالسابق.

صرخت بوبي: «اه!» كأنها تلقت ضربة موجعة أو عصر الباب إصبعها أو أحست بوخزة حادة مؤلمة لوجع

أسنان. سألتها فيليس:

– مابك؟

ارادت بوبي أن تقول: «لاتجعلونا نتشاجر. ماما تكره ذلك»، لكنها لم تستطع بالرغم من المحاولات، وذلك لأن نظرة بيتر كان فيها من الاحتقار مالايمكن السكوت عليه. كل الذي استطاعت أن تقوله هو:

– خذ الالة اللعينة، إذن.

ورفعت يدها عن المقبض فجأة. وكان بيتر، في الوقت نفسه، يمسك بالالة ويجرها بقوة اليه. فلما أرخت بوبي يدها عنها سقط بفعل قوة الجذب ووقع على ظهره وصارت أسنان الالة بين رجليه..

قالت بوبي، قبل أن تتمالك نفسها من الغضب:

– تستحق هذا.

ظل بيتر مطروحا لايتحرك مدة نصف دقيقة – مدة كافية لاقلاق بوبي. ثم أخافها اكثر عندما نهض – وصرخ ألما مرة واحدة – واصفر لونه ثم انطرح ثانية وراح يصرخ من الألم صرخات ضعيفة كأنها صراخ خنزير يذبح على بعد ربع ميل.

أطلت الأم من النافذة. وماهي الا أقل من دقيقة حتى كانت في الحديقة راكعة بجانب بيتر الذي لم يكف لحظة عن الصراخ. سألت الأم:



– ماذا حدث يابوبي؟

قالت فيليس:

– آلة تسوية التربة. بيتر كان يجرها اليه وكذلك بوبي. وهي جرت يدها فوقع بيتر الى الوراء.

قالت الأم:

– كفى ضجة يابيتر. هيا، اسكت حالا.

فأخذ بيتر نفسا عميقا بعد الصرخة الأخيرة وزفره بهدوء.

سألته أمه:

– والآن.. هل تأذيت؟

فقالت بوبي، وهي ماتزال ترتجف غضبا:

– لو كان تأذى حقا لما كان فعل كل هذه الضجة. هو ليس جبانا!

قال بيتر بكبرياء:

– اعتقد ان قدمي كسرت.. هذا كل ماهنالك. واستوى جالسا. ثم غاض الدم من وجهه حتى صار ابيض. فأحاطته أمه بذراعها وقالت:

– انه مصاب. لقد اغمي عليه. تعالي يابوبي اجلسي وضعي رأسه في حجرك.

وبادرت الام تفك اشرطة حذاء بيتر ثم نزعت الفردة اليمنى عن قدمه فسقط شيء منها على الارض. كان ذلك

دماً قانياً . ولما نزعت أمّه الجوارب عنه ظهرت ثلاثة جروح حمراء في قدمه وكاحله ، حيث اصابته اسنان الآلة . وكانت قدمه مغطاة ببقع حمراء لزجة . قالت الأم :

– اسرعي واجلبي لي ماء . . وعاء كبيراً .

فاسرعت فيليس لتأتي بالماء . وبددت أكثره بسبب الاستعجال فعادت تجلب المزيد منه في ابريق .

لم يفتح بيتر عينيه ثانية الا بعد ان ربطت أمّه قدمه بمنديلها وتعاونت مع بوبي على حمله واراحته على كرسي خشبي طويل ذي مساند في غرفة الطعام . في تلك الآونة كانت فيليس قد انطلقت لاستدعاء الطبيب .

جلست الأم بجانب بيتر وراحت تغسل قدمه وتلاطفه ، بينما ذهبت بوبي لاعداد الشاي . واخذت تحدّث نفسها :

– آه ، ماذا لو ان بيتر مات او عاش اعرج طول حياته او صار يمشي على عكازات او وضعوا في حذائه قطعة خشب سميكة بدل النعل !

ظلت واقفة عند الباب الخلفي في هذه الاحتمالات المخيفة وتنظر بذهول الى برميل الماء . هتفت بصوت عالٍ :

– ليتني لم أولد .

جاء صوت يسأل :

– لماذا ؟ رحمتك يارب ! ما الداعي لهذا القول ؟ واذا بها ترى بيركس واقفاً امامها حاملاً سلة كبيرة ، محاكة من العيدان ، مملوءة بالشتلات الخضراء والتربة الزراعية الناعمة .

قالت :

– أهذا انت ؟ بيتر جرحت قدمه بالمذراة . ثلاثة جروح كبيرة مفتوحة كجروح الجنود . الذنب ذنبي انا الى حد ما .

فقال بيركس :

– أما هذا فغير صحيح وانا اراهن على ذلك . هل فحصه الطبيب ؟

– فيليس ذهبت تستدعيه .

قال بيركس :

– سيكون على مايرام . تأكدي . علامَ القلق . مرّة جرحت مذراة ابن عم والدي جرحاً عميقاً . . شقت بطنه . ومع ذلك شفي في بضعة اسابيع . كل ما هنالك انه صار سريع الاصابة بالدوار في ما بعد . قالوا ان سبب ذلك ضربة الشمس لاالجرح الذي اصابه . مازلت اذكره جيداً . كان إنساناً طيب القلب ، لكن قد تعدّينه ضعيفاً .

حاولت بوبي ان تبتهج بهذه الذكريات الممتعة . قال بيركس :

– حسناً . لا اراك تريدين ان تزعجي نفسك باشغال البستنة الآن . دليني على حديقتك وانا اغرس لك الشتلات . لاتغيبي عني ، فقد اغتنم الفرصة لأرى الطبيب عند خروجه واسمع مايقول . لاتحزني يا آنستي . اراهنك من جنيه استرليني على انه لم يصب بأذى . . شيء طفيف .

لكن الواقع كان غير ذلك . فقد جاء الطبيب وفحص القدم وداواها وضمدها تضميداً بديعاً وطلب من بيتر ان لايدوس عليها لمدة اسبوع على الأقل . سألته بوبي عند الباب خافقة القلب :

– لن يصبح اعرج او يمشي على عكازات او قدم اصطناعية ، اليس كذلك ؟

فأجاب الدكتور فوريست :

– لا ، ياعمتي ! سيعود الى القفز على قدميه بكل رشاقة في مدى اسبوعين . لاتقلقي ياأوزتي الصغيرة .

وما ان رافقت الام الطبيب الى الباب لتستمع الى آخر تعلياته العلاجية وذهبت فيليس لتملأ غلاية الشاي بالماء ، حتى وجد بيتر وبوبي نفسها بمفردهما قال بوبي :

– يقول انك لن تصبح اعرج او اي شيء .

فقال بيتر بمعنويات عالية :

– اوه ، بالطبع لا ، ياغبية .

قالت بوبي ، بعد سكتة قصيرة :

– آه ، يابيتر ، انا شديدة الأسف .

فقال بيتر بعظمة :

– لاعليك .

قالت بوبي :

– الغلطة كلها غلطتي .

قال بيتر :

– هراء

– لو لم نتشاجر لما حدث هذا . أدري ان الشجار خطأ . أردت ان اقول لك ، لكني لم اتمكن .

قال بيتر :

– لا تخرفي . ماكنت سأقتنع لو انك قلت لي ذلك . احتمال ضعيف . ثم ، ماعلاقة شجارنا بما حصل لي ؟ قد تكسر المجرفة قدمي او تسحق ماكنة درس الحبوب اصابعي او تمزق الالعاب النارية انفي . في هذه الحالة كنت سأتعرض لإصابة سواء كنا نتشاجر أم لا .

فقالت بوبي باكية :

– لكني كنت ادري ان الشجار خطأ . . . وها انت قد تأذيت و . . . .

فقال بيتر بحزم :
– والآن ، انتبهي اليّ . كفكفي دموعك ولا تدّعي الصدق والامانة مثل أدعياء الدين .
– لااقصد ان ادعّي الصدق والامانة ، ولكن كيف يمكن للإنسان ان لايكون اميناً عندما يريد فعل الخير ! (قد يكون القارئ الموقّر عانى هذه المعضلة هو الآخر)
قال بيتر :
– الشيءُ الجميل في المسألة ان الجروح لم تصبكِ انتِ . انا مسرور لأني المصاب . رباه ! لو كنتِ انت ، لكنت الآن متمددة على الاريكة مثل ملاك معذب وكل من في البيت قلق عليك مشغول بك . انا لاأطيق مثل هذا المشهد .
قالت بوبي :
– ماكنت لأفعل شيئا من هذا القبيل .
قال بيتر :
– بل تفعلين
– قلت لك : لاأفعل
– اقول لكِ : تفعلين
فجاء صوت الأم من عند الباب :
– آه ، ياالطفال ، عدتم تتشاجرون ؟ بهذه السرعة ؟
قال بيتر :

– نحن لانتشاجر – حقاً . أرجوك لاتظني اننا نتشاجر كلما اختلفنا في الرأي !
وما ان ذهبت الأم حتى انفجرت بوبي قائلة :
– بيتر ، انا متأسفة لما اصابك . ولكنك وحش حين تتهمني بأني ادعّي التقوى .
فقال بيتر بصورة غير متوقعة :
– حسناً. قد اكون وحشاً. لكنك أنت نفسك قلت عني اني لا أخاف قول الحق، حتى لو غضبت أشد الغضب. الشيء الوحيد هو – أن لا تنافقي. هذا كل ما هنالك. راقبي نفسك وكلما شعرت بأنك بدأت تنافقين كفّي عن ذلك في الحال. تفهمين؟
أجابت بوبي :
– أجل، أفهم.
قال بيتر برحابة صدر:
– فليكن هذا عهد سلام بيننا. لنعقد صلحاً ولنتصافح. أقول لك يابوبي، يازميلتي القديمة، أنا تعبان مرهق.
والحق أن هذا الارهاق لازمه اياماً طويلة. وكان يتقلب بألم على الأريكة بالرغم من الوسائد والحشايا الناعمة التي وضعت تحته ومن حوله. كم هو فظيع أن يعجز عن الخروج. فقامت أمه وأختاه بدفع الأريكة الى قرب النافذة. ومن هناك استطاع بيتر أن يرى دخان

القطارات المارة في الوادي، أما القطارات نفسها فلا.

كانت بوبي تريد أن تعامل بيتر بلطف، لكنها شعرت بصعوبة ذلك، خشية أن يظنها تنافق و تتزلف. الا أن هذا الشعور سرعان مازال وصارت هي وفيليس زميلتين لطيفتين في نظرة، كانت أمه تجلس معه حين تخرج شقيقتاه. وجعلت عبارة «هو ليس جباناً» بيتر يصمّم أن لا يشكو كثيراً من الأوجاع ولو أنها كانت شديدة، وخاصة في الليل. ذلك ان المديح يشد من عزيمة الانسان كثيراً في بعض الأحيان.

صار الناس يزورونه. فجاءت السيدة بيركس تسأل عن صحته. وجاء ناظر المحطة وعدد من أهالي القرية لكن الوقت كان يمر ببطء شديد. قال بيتر:

– ليتني أجد شيئاً أقرأه. الكتب التي لدي قرأتها خمسين مرة.

قالت فيليس

– سأسأل الطبيب. حتماً عنده بعض الكتب.

قال بيتر:

– لا أتوقع عنده غير التي تحكي عن الأمراض وأحشاء الإنسان الفظيعة.

قالت بوبي:

– بيركس عنده أكداس من المجلات التي يتركها

المسافرون في القطارات بعدما يملون من قراءتها. ساركض اليه وأسأله.

وهكذا انطلقت الفتاتان، كل في وجهتها.

وجدت بوبي بيركس مشغولاً بتنظيف المصابيح و سألها:

– وكيف حال السيد الشاب؟

أجابت بوبي:

– أحسن من السابق. شكراً. لكنه يعاني من الضجر. جئت أسألك إن كانت عندك مجلات يمكن أن تعيرها له.

قال بيركس آسفاً، وهو يحك أذنه بخرقة تنظيف مدهّنة وسخة:

– يا آلهي! كيف غاب هذا عن بالي ؟ هذا الصباح فكرت في أن آخذ اليه شيئاً يسليه. لم يخطر على بالي سوى فأر تجارب مختبر. وقد كلفت أحد اصدقائي بأن يصطاد له واحداً، عصر هذا اليوم.

– ما أروع ذلك! فأر تجارب! سيفرح به كثيراً ولكنه يحب المجلات ايضاً.

قال بيركس:

– بالضبط. أرسلت قبل قليل رزمة منها الى إبن سنغسون

– بعد شفائه من الـ...

لكن مازالت عندي أكداس من المجلات المصوّرة. والتفت الى كوم من الأوراق في ركن الغرفة فتناول منه

كمية كبيرة وقال:

– هالكِ! سأغلفها وأربطها بخيط.

وسحب من الكوم صحيفة قديمة نشرها على الطاولة و وضع عليها الأوراق ولفّها بطريقة بارعة وقال:

– تفضلي فيها كثير من الصور يمكنه، اذا أراد، أن يلوّنها بألوان مائية أو بالطباشير الملون أو أي شيء. له كل الحرية. أنا لا أريدها.

قالت بوبي:

– ما أطيبك.

وأخذت الرزمة وخرجت. كانت الرزمة ثقيلة. وعندما وصلت الى تقاطع الطريق مع السكة وقفت في انتظار مرور القطار. في هذه الاثناء وضعت الرزمة على بوابة التقاطع لتريح يدها قليلاً ونظرت، دون قصد، الى الصحيفة التي تغلف الرزمة.

فجأة تشبثت بالرزمة بقوة وانحنت عليها كان ما رأته يشبه حلماً مرعباً. راحت تقرأ – لكن الجزء الاخير من العمود كان ممزقاً، فلم تستطع قراءة المزيد.

لا تذكر قط كيف وصلت الى البيت. في حينها مشت الى غرفتها على اطراف أصابعها واقفلت الباب وراءها. ثم فكت الرزمة وأخذت الصحيفة وعادت تقرأ ذلك العمود. كانت جالسة على حافة السرير، يداها

وقدماها باردة كالثلج ووجهها يشتعل حرارة. وعندما انتهت من القراءة شهقت شهقة طويلة. كان العمود المنشور في الصحيفة يحمل عنوان (نهاية المحاكمة / قرار الإدانة / الحكم).

كان اسم الرجل الذي حوكم هو اسم أبيها والقرار: مذنب، والحكم «خمس سنوات مع الاشغال الشاقة».

همست، وهي تسحق الصحيفة بأصابعها بقوة:

– آه، بابا. هذا غير صحيح. لا أصدق. أنت لم تفعل ذلك أبداً! أبداً، أبداً!

كان هناك طرق على الباب. سألت بوبي:

– ماذا؟

فجاء صوت فيليس يقول:

– هذه أنا. الشاي جاهز. وأحد الأولاد جلب فأر تجارب لبيتر. هيا انزلي.

فاضطرت بوبي الى النزول.

الفصل الحادي عشر

كلب الطراد ذو الفانيلة الحمراء

عرفت بوبي السر الآن. جانب من صحيفة عتيقة ملفوفة بها رزمة – مجرد صدفة صغيرة كهذه – كشف لها السر. ومع ذلك كان عليها أن تنزل لشرب الشاي وتتظاهر بعدم وجود شيءٌ. وحاولت بقوة أن تتظاهر، لكن المحاولة لم تنجح كل النجاح.

فحين جاءت رفع الجميع رؤوسهم عن اكواب الشاي ونظروا اليها فرأوا أجفانها المحمّرة ووجهها الشاحب وآثار الدموع على خديها. قفزت أمها من وراء صينية الشاي وصاحت:

–ياحبيبتي، ماالأمر؟

فقالت بوبي:

–عندي صداع.

وكان عندها صداع حقا. سألتها أمها:

–هل حدث شيء؟

فقالت بوبي:

–لاشيءَ ياماما. صدقيني.

لكنها بعثت بعينيها المتفختين رسالة استعطاف الى أمها تقول فيها: «لا أمام الآخرين!»

لم تكن جلسة الشاي ممتعة. فقد شعر بيتر بالغم اذ أحسّ بأن شيئا فظيعا قد حدث لبوبي،ولم يجد مايقوله سوى أن يكرر عبارة «اعطيني مزيدا من الخبز والزبد أرجوك» بايقاع سريع مثير للأعصاب. وراحت فيليس تربت على يد أختها تحت المائدة للتعبير عن عطفها فقلبت كوب حليبها من جراء هذه الحركة. وقد خفف من حزن بوبي بعض الشيءُ انشغالها برفع شرشف المائدة ونفض الحليب عنه. ومع ذلك شعرت كأن جلسة الشاي ستستمر الى الابد.

لكنها انتهت أخيرا، كما تنتهي كل الاشياء. وعندما حملت الام صينية الشاي وخرجت بها تبعتها بوبي. قالت فيليس لبيتر:

–في طريقها الى الاعتراف. ماذا فعلت ياترى!

قال بيتر:

–أخمّن أنها كسرت شيئا. لكن علام كل هذا السخف!

ماما لاتوبخ أحدا على حادث. إصغي! أجل. ها

هما تصعدان الى فوق. أخذت ماما لتريها ما فعلت– ابريق الماء المزين برسوم اللقالق... أتوقع ذلك.

في المطبخ أمسكت بوبي بيد أمها وهي تضع أدوات الشاي في المغسل. سألتها أمها:

–مابك؟

–تعالي معي الى فوق. تعالي الى هناك حتى لايسمعنا أحد.

وعندما صارت أمها معها وحدها في الغرفة أقفلت الباب، ثم لبثت ساكنة لاتنطق بكلمة.

كانت طوال جلسة الشاي تفكر في مايجب أن تقوله. و قررت أن جملة «أعرف كل شيءٌ» أو «كل شيءُ بات واضحا أمامي» أو « السر الرهيب لم يعدّ سرا» تفي بالغرض. ولكن ماأن خلت بأمها في الغرفة، ومعها الصحيفة المخيفة، حتى وقفت عاجزة عن الكلام.

فجأة ركضت الى إمها وطوقتها بذراعيها وراحت تبكي ثانية. ولم تجد ماتقوله سوى عبارة «أوه، ماما–أوه، ماما!» التي راحت ترددها مرات عدة، فضمتها أمها الى صدرها بقوة ولبثت تنتظر.

وفجأة أفلتت من ذراعي أمها وذهبت الى سريرها. وسحبت من تحت الحشيّة الصحيفة المخبأة هناك ودفعت بها الى أمها وهي تشير الى اسم والدها باصبع وبنظرة

خاطفة أدركت الأم مافي الصحيفة فصرخت:

–اه، يابوبي. أنت لاتصدقين هذا؟ هل تعتقدين أن بابا يفعل ذلك؟

فكادت بوبي أن تصرخ بصوت عال: «لا». وكفت عن البكاء قالت الأم:

–هذا هو الواقع. ليس ماقيل صحيحا. نعم، وضعوه في السجن. ولكنه لم يرتكب ذنبا. أبوك رجل جيد ونبيل وشريف، وهو رب عائلتنا. علينا أن نتذكر ذلك ونفخر به... وأن ننتظره.

تعلقت بوبي بامها ثانية. ومرة ثانية لم تجد ماتقوله سوى كلمة واحدة، كانت «بابا» هذا المرة. فراحت تردد «أوه، بابا– أوه، بابا–أوه، بابا!» مرات ومرات.

وفي الحال سألت أمها:

–ماما، لماذا لم تخبريني؟

سألتها أمها:

– هل تخبرين الاخرين؟

لا.

–لماذا؟

–لأن...

قالت الأم:

–بالضبط. إذن فأنت تفهمين لماذا لم أخبرك. علينا

نحن الاثنتين أن نتعاون على الصمود.

قالت بوبي:

–أجل. ماما هل يحزنك أكثر أن تخبريني بالموضوع كله؟ أريد أن أفهم.

وجلستا. والتصقت بوبي بأمها. وعندها سمعت «الموضوع كله». فعرفت أن الرجلين اللذين جاءا لمقابلة الوالد في تلك الليلة الاخيرة التي لاتنسى، حين كان يصلح قاطرة بيتر، كانا قد جاءا لاعتقاله بتهمة بيع بعض اسرار الدولة للروس– أي بتهمة التجسس والخيانة. وعرفت كيف جرت المحاكمة وعن الادلة الثبوتية – الرسائل التي عثر عليها في أدراج مكتبه بالدائرة، رسائل أقنعت المحكمة بذنب الوالد. فبكت بوبي وقالت:

–اه، كيف يمكنهم، حين تنظرون الى والدي، أن يصدقوا ذلك! وكيف يمكن لأي إنسان أن يفعل مثل هذا الأمر!

فقالت الأم:

–نعم. كيف وصلت الرسائل الى أدراج مكتبه؟

–أحدهم دسها هناك. الشخص الذي وضعها هناك هو المذنب الفعلي.

قالت بوبي بتأمل:

–لابد أنه يحس بتأنيب الضمير الان.

فقالت أمها بغضب:

–لا أعتقد أنه يملك أي إحساس. ماكان ليعمل عملا شائنا كهذا لو كان يملك إحساسا..

–ربما أخفاها في المكتب عندما فكر بأن أمره سينكشف.

لماذا لاتخبرين المحامين أو غيرهم بأن ذلك الشخص هو المجرم؟ مامن أحد كان يفكر بايذاء والدي عن قصد. أليس كذلك؟

–لاأدري، لاأدري. الرجل الذي يعمل تحت إشراف والدك وأخذ مكانه حين– حين حدثت المسألة المحزنة – هذا الرجل كان يغار من الوالد دائما لأنه إنسان جيد والكل يقدرونه غاية التقدير . وكان الوالد لايثق بذلك الرجل مطلقا.

–الا يمكننا توضيح هذه المسألة لبعض الناس؟

قالت الأم بمرارة وحزن:

–لن يصغي الينا أحد. لااحد بالمرة. طرقت كل الابواب، ماذا تتصورين؟ لا، ياعزيزتي، لانستطيع أن نفعل شيئا. كل الذي يمكننا أن نفعله هو أن نكون كلنا، أنت وأنا وبابا، شجعانا وصابرين.

وأن – قالت العبارة الاخيرة بمنتهى اللطف – نصلي يابوبي العزيزة.

قالت بوبي فجأة:

– ماما، صرتِ نحيفة جدا.

– قليلاً، ربما.

قالت بوبي:

– و.. اه، أعتقد أنك اشجع وأحسن إنسان في العالم!

سألتها أمها:

– لن نتكلم في هذا الموضوع ثانية، أليس كذلك ياعزيزتي؟ يجب أن نتحمّل ونتصرّف بشجاعة. و... حاولي، ياحبيبتي، أن لاتفكري به. إذا أردت أن تخفّفي عني فافرحي وتمتعي بحياتك. اغسلي وجهك المدور الصغير المسكين، ودعينا نخرج الى الحديقة لنروّح عن أنفسنا قليلاً.

عامل بيتر وفيليس اختهما بمنتهى الدماثة، ولم يسألاها عما حصل. تلك كانت فكرة بيتر التي أقنع بها فيليس، ولولاه لكانت طرحت مئة سؤال.

بعد اسبوع من تلك الحادثة استطاعت بوبي الإنفراد ومرة ثانية كتبت رسالة. ومرة ثانية كانت الرسالة موجهة الى السيد العجوز.

ياصديقي العزيز (هذا كلامها). أترى مافي هذه الصحيفة؟ ليس هذا صحيحا. الوالد لم يفعل قط شيئا من هذا. ماما تقول إن أحدهم دس الاوراق في مكتب

والدي وتقول إن الشخص، الذي كان يعمل تحت ادارة والدي وأخذ مكانه فيما بعد، كان يغار من أبي وأن أبي كان يشك به منذُ زمن بعيد. ولكن لاأحد يصغي لكلمة واحدة مما تقول. لكنك رجل طيب وذكي جدا واستطعت العثور على زوجة السيد الروسي مباشرة. ألايمكنك اكتشاف الخائن؟ هو ليس والدي وأقسم لك بشرفي، فوالدي رجل انكليزي لايقدر على ارتكاب مثل هذه الأفعال. عندئذٍ يطلقون سراحه من السجن. هذا شيءٌ فظيع ووالدتي تزداد نحافة. طلبت منّا مرّة أن نصلي من أجل كل السجناء والأسرى. الآن عرفت. آه، ساعدني. لاأحد يعلم بالأمر سوى ماما وأنا. وليس باستطاعتنا أن نفعل شيئا. بيتر وفيليس لايعرفان. سأدعو لك مرتين كل يوم طيلة حياتي لو أنك حاولت فقط – لمجرد أن تحاول معرفة الحقيقة. فكر: لو أن أباك هو السجين فماذا يكون شعورك. آه، ساعدني أرجوك، أرجوك. وتقبل حبي. ودمت لك الصديقة الصغيرة المحبّة.

روبرتا

ملاحظة: كانت ماما ستبعث لك بأطيب تمنياتها لو أنها علمت بكتابتي هذه الرسالة – ولكن لافائدة من اخبارها

بموضوع الرسالة في حالة عدم استطاعتك أن تفعل شيئا. ولكني أدري أنك تستطيع.

مع اطيب التحيات.

بوبي

واقتطعت من الصحيفة التقرير الذي يتحدث عن محاكمة والدها مستعينة بمقص والدتها ووضعته مع الرسالة في مظروف. ثم انطلقت به الى المحطة، سالكة طريقاً ملتوياً بعيداً حتى لايراها أخواها ويرغبان في الذهاب معها. وهناك اعطت الرسالة الى ناظر المحطة ليسلمها الى السيد العجوز صباح اليوم التالي. ناداها بيتر من على سياج الحوش حيث جلس هو وفيليس.

– أين ذهبت؟

أجابت بوبي:

– الى المحطة طبعاً. إعطني يدك يابيتر.

ووضعت قدمها على قفل بوابة الحوش فيما مد بيتر يده ليساعدها على الصعود. وعندما صعدت تساءلت باستغراب...

– ماهذا؟

فقد كان بيتر وفيليس ملطخين بالطين وبينهما، على قمة الجدار كتلة من الطين الليّن (الصلصال). وكانا يمسكان بمساطر صغيرة من الصخر بأيديهما الوسخة، بينما

اصطفت وراء ظهر بيتر عدة أشكال من الطين، اسطوانية غريبة كأنها نقانق عملاقة ولكن مجوّفة ومسدودة من أحد طرفيها. قال بيتر:

– هذه أعشاش. أعشاش عصافير. سنجففها في الفرن ونعلقها بخيوط عند جدران الاصطبل.

قالت فيليس:

– أجل. كما أننا سنجمع كل مايمكن من صوف وشعر وعندما يأتي الربيع نبطّن به هذه الأعشاس، كم ستفرح العصافير بذلك!

وقال بيتر بلهجة أهل الفضيلة:

– كثيرا مافكرت بأن الناس لايرأفون بالحيوان.

أعتقد أنه كان على الناس أن يصنعوا أعشاشا للعصافير الصغيرة المسكينة قبل هذا الوقت بكثير.

فقالت بوبي بلهجة غامضة:

– أوه، لو فكرنا كل واحد بكل شيءٌ لما بقي لأحد شيءٌ يفكر به.

سألتها فيليس، وهي تمد يدها من وراء بيتر لتمسك بأحد تلك الاعشاش:

– انظري اليها، أليستِ جميلة؟

فصاح بها أخوها:

– انتبهي يافيل، ياعنزة!

لكن التحذير جاء متأخراً فقد أطبقت أصابعها الصغيرة القوية على أحد تلك الأعشاش فسحقته.

قال بيتر:

– أنظري ماذا فعلت!

فقالت بوبي:

– لاتهتم.

فقالت فيليس:

– هذا واحد من أعشاشي، فلا حاجة الى الكلام الجارح يابيت. نعم. لقد حفرنا الحروف الأولى من أسمائنا على كل واحد حتى تعرف العصافير من تشكره وتحبه.

فقال بيتر:

– العصافير لاتستطيع القراءة، ياغبية.

فردت عليه فيليس بغضب:

– الغبي أنت كيف لك أن تعرف؟

فصاح بيتر بها:

– على أية حال، من فكر بعمل الأعشاش؟

فصرخت فيليس:

– أنا.

فرد عليها بيتر معترضا:

– لا. أنت فكرت بأعشاش من القش تعليقها على أغصان اللبلاب كانت ستتلف قبل موسم التفريخ بوقت

طويل. أنا صاحب فكرة «أعشاش الطين والعصافير».
– لايهمني ما قلت .
قالت بوبي :
– انظري . لقد اصلحت العش . هات عود الكتابة لأحفر الحرف الأول من اسمك عليه . لكن كيف تفرقان بين الاسمين ؟ كلاكما تبدئان بالحرف (بي) نفسه . (بي)
– بيتر و (بي) – فيليس .
فقالت الطفلة الصغرى :
– أنا حفرت حرف (فاء) لإسمي . هكذا يُلفظ . العصافير لن تلفظ اسم فيليس بحرف (بي) . أنا واثقة – متأكدة .
فأصرّ بيتر على كلامه :
– العصافير لاتقدر على تهجي الحروف مطلقاً .
– إذن ، لماذا نراها دائماً على بطاقات المعايدات والتهاني تحمل رسائل حول رقبتها ؟ كيف تعرف إلى أين تتجه لو لم تكن تعرف القراءة ؟
– هذا في الصور فقط . أرأيت في الواقع عصفوراً يحمل رسالة معلقة حول رقبته ؟
– طيب . عندي حمامة ، اذن . على الأقل بابا يقول انها تحمل رسائل . سوى انها تحمل الرسائل تحت جناحها لاحول رقبتها . فالنتيجة ، نفس الشيء و . . . فقطعت بوبي عليها كلامها :

– أقول . . هناك لعبة «سباق ارانب وكلاب» غداً .
سأل بيتر :
– من ؟
– المدرسة الثانوية . بيركس يعتقد بأن الأرانب سينطلقون أول الأمر . فلنذهب الى الممر الجبلي . نستطيع ان نرى لمسافة بعيدة من هناك . وسرعان ماوجد الأطفال في سباق الأرانب والكلاب مادة للحديث أمتع من قدرة العصافير على القراءة . وكان هذا ماتريده بوبي . وفي صباح اليوم التالي سمحت لهم امهم بأن يأخذوا معهم غذاءهم ويذهبوا لقضاء اليوم في التمتع بمشاهدة السباق . قال بيتر :
– اذا ذهبنا الى الممر الجبلي امكننا ان نرى عمال السكك ، حتى لو فاتتنا مشاهدة السباق . من الطبيعي ان تستغرق أعمال تطهير السكة من انقاض الصخور والاشجار التي تولدت عن الانهيار ، وقتاً طويلاً . أنتم تذكرون ، بالطبع ، ذلك الحادث الذي عمل فيه الاطفال الثلاثة على انقاذ القطار من كارثة محتملة بفضل التلويح بستة اعلام حمراء صغيرة . شيءٌ ممتع دائماً ان تشاهد الناس في اثناء العمل ، وخاصة عندما يعملون بأدوات ممتعة للعين كالمساحي والمعاول والمجارف والجسور الخشبية السميكة وعربات نقل الانقاض ذات العجلة

الواحدة . وعندما يشعلون نيراناً متوهجة في اوعية حديدية مثقبة الجوانب وفوانيس حمراء يعلقونها قرب مواقع العمل في الليل . ان الأطفال لايخرجون من البيت ليلاً بأية حال من الاحوال . ولكن ، في احدى المرات خرج بيتر ، بعد الغروب ، من كوة السقف الى سطح البيت فرأى الفوانيس الحمْر تتلألأ عن بعد عند حافة الممر الجبلي . كان الاطفال يذهبون الى موقع العمل هذا دائماً ، لكن رؤية المعاول والمجارف والمساحي وعربات نقل الانقاض يدفعها العمال فوق الجسور الخشبية ، في هذا اليوم ، انستهم موضوع السباق تماما . ولذلك أجفلوا وقفزوا مذعورين عندما صاح صوت لاهث من خلفهم مباشرة : «اسمحوا لي بالمرور» . كان واحدا من الارانب – صبي ضخم العظام لين الاطراف ذو شعر اسود ناعم يتدلى على جبينه المبلل بالعرق . وكان يحمل على كتفه كيسا مملوءً بقصاصات الورق . تراجع الاطفال الى الوراء وانطلق الارنب مع امتداد السكة ، فيما إتكأ بعض العمال على معاولهم وراحوا ينظرون اليه . ومضى يركض الى ان اختفى في داخل النفق . قال رئيس العمال :

– هذا مخالف للقوانين .

فقال اكبر العمال سناً :

– علامَ القلق ؟ انا اقول دائما «عِش ودعْ غيرك يعيش» . ألم تكن انت صبيا في يوم من الايام يا مستر بيتس ؟

قال رئيس العمال :

– لابد ان ابلّغ عنه .

– أنا اقول دائماً «لماذا نفسد متعة الرياضة ؟» فغمغم رئيس العمال بشيءْ من التردد :

– ممنوع على المسافرين عبور خطوط السكك بأية ذريعة .

قال احد العمال :

– الولد ليس مسافراً .

وقال آخر :

– وهو لم يعبر السكة . لم نَرَه يفعل ذلك .

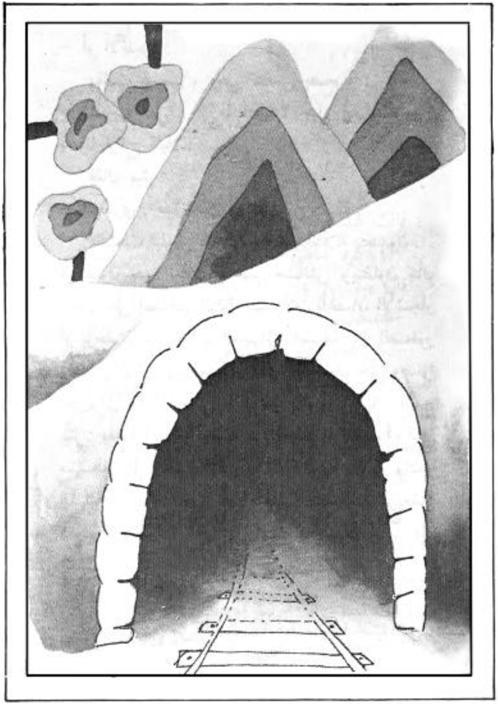
وقال ثالث :

– ولم يتذرع بشيءْ .

فقال العامل العجوز :

– ولم نعد نراه الآن . وأنا اقول دائما : «ما لاتراه بعينك لاتحتاج الى ان تفكر به» .

وجاء الصبيان الكلاب ، يتبعون اثر الارنب مستعينين بقصاصات الورق التي يرميها في اثناء ركضه . كانوا ثلاثين ، نزلوا جميعا عن طريق الدرج الترابي الشديد الانحدار أفراداً وأزواجا وجماعات . واحصى الاطفال عددهم في اثناء مرورهم . توقف السابقون قليلا



عند اسفل السلم وما ان وقعت انظارهم على قصاصات الورق المنثورة على امتداد السكة حتى استداروا وانطلقوا صوب النفق . وسرعان ماتواروا عن الانظار في عتمة النفق . آخرهم كان يمكن تمييزه في الظلمة بفضل فانيلته الحمراء . قال رئيس العمال :

– لايعرفون ماذا ينتظرهم . ليس سهلاً الركض في الظلام . النفق لايمتد باستقامة ، بل فيه منعطفان أو ثلاثة .

سأله بيتر :

– أتظن أنهم سيستغرقون وقتاً طويلاً لاجتياز النفق ؟

– لن استغرب إذا ظلّوا ساعة او اكثر .

قال بيتر لأختيه :

– إذن فلنصعد ونذهب الى فتحة النفق المقابلة سنصل قبل خروجهم بوقت طويل .

بدت الفكرة لطيفة فتحركوا للذهاب . تسلقوا الدرج الترابي الصعب الذي جمعوا منه ، من قبل ، زهور الكرز البري ليجعلوا منها اكليلا لقبر الارنب البري . وما ان بلغوا قمة الممر الجبلي حتى توجهوا الى التلال التي يمر النفق من تحتها . وكانت عملية تسلق مرهقة . قالت بوبي لاهثة :

– كأنها جبال الالب .

وقال بيتر :
– أو الآنديز .
وقالت فيليس ، وهي تتنفس بصعوبة :
– تشبه «الهمي . . . ما اسمها ؟ جبل إيفرلاستنغ » ؟ دعونا نرتاح قليلا .
فقال بيتر :
– استمري . سترتاحين في اقل من دقيقة .
فاقتنعت فيليس بالفكرة واستمر الثلاثة يتقدمون . . فيركضون حين تكون امامهم حشائش وينتقلون بتأنٍ وحذر على الصخور الزلقة متمسكين بأغصان الأشجار أو يزحفون من خلال الفجوات الضيقة بين الصخور وجذوع الاشجار ، وهكذا ظلوا يصعدون حتى وصلوا أخيراً الى قمة التل التي طالما تمنوا الصعود اليها . صاح بيتر : «قفوا !» وألقى بنفسه على العشب . كانت قمة التل منبسطة مثل الهضبة تكسوها الاعشاب الندية وتتناثر عليها بعض الصخور التي تغطيها الطحالب وبعض شجيرات الدردار الجبلي . واستلقت البنتان أيضاً على العشب .
قال بيتر لاهثاً :
– امامنا متسع من الوقت . البقية مازالوا تحت التل . بعدما استراحوا مدة كافية واستقاموا جالسين ،

راحوا ينظرون الى ما حولهم ، فصاحت بوبي :
– آه ، أنظرا !
سألت فيليس:
–ماذا؟
قالت بوبي :
–المنظر
قالت فيليس:
–أنا أكره المناظر. وأنت أيضا يابيتر، أليس كذلك.
قال بيتر:
–فلنذهب.
–لكن هذا ليس مثل المناظر التي تحملنا اليها عربات القطار حين نذهب الى شاطئ البحر. لاشئ سوى البحر والرمال والتلال الجرداء. هذا المنظر مثل صور «الأقاليم الملونة» في أحد كتب الشعر عند ماما.
قال بيتر:
–بل أحلى من ذلك. انظري الى النواظم ممتدة عبر الوادي كأنها «أم أربع وأربعين» عملاقة. وهذه أبراج كنيسة المدينة تبرز من بين أعالي الشجر كأنها رؤوس أقلام مغموسة. أعتقد أنه أقرب الى قول الشاعر:
هناك يمكننا أن نرى الاعلام الزاهية لاثنتي عشرة مدينة جميلة .

قالت بوبي:

–منظر جميل، يستحق مشقة الصعود الى هنا.

فقالت فيليس:

–السباق هو الذي يستحق اذا لم نتأخر عنه. هيا بنا.لابد أنهم وصلوا الى نهاية النفق الان.

قال بيتر:

–قلت لكما ذلك قبل عشر دقائق.

فقالت فيليس:

–طيب. أنا قلت الآن. هيّا.

قال بيتر:

–أمامنا متسع من الوقت.

وكان ذلك صحيحا. فعندما نزلوا الى مستوى يوازي فتحة النفق من أعلى، وجدوا أنهم يبعدون مايقرب من مئتي ياردة عن المكان المطلوب وكان عليهم أن يزحفوا على صفحة التل الى تلك البقعة – ولم يكن هناك من أثر للارنب أو الكلاب. لما أطلوا من فوق الحاجز المبني بالاجر الذي يعلو فتحة النفق قالت فيليس:

–ذهبوا منذ وقت طويل بالطبع.

فقالت بوبي:

–لاأظن. لكن حتى لو راحوا، فهذا المكان رائع. وسوف نرى القطارات تخرج من النفق كأنها تنانين

تخرج من مغاراتها. ستكون أول مرة نرى فيها القطارات من هذا المكان.

قالت فيليس شبه راضية:

–لاأكثر من هذا.

والحقيقة أن المكان كان مثيرا جدا. من هناك بدت لهم قمة النفق أعلى بكثير مما كانوا يتوقعون. كانوا كالواقف على جسر عال، انما جسر تنبت عليه ومن حوله الشجيرات والادغال والحشائش والزهور البرية. ظلت فيليس تردد كل دقيقتين:

–أدري أن السباق انتهى منذ وقت طويل.

وكانت حائرة بين الرضا والشعور بخيبة الامل حين صاح بيتر وهو يطل من فوق سياج النفق:

–أنظرا. هاهو قادم!

فأطل الثلاثة من فوق السياج الذي دفّأته الشمس ليروا الارنب خارجا من ظل النفق يركض ببطء شديد. قال بيتر:

–هاكم. الم أقل لكما؟ الآن ستأتي الكلاب!

وسرعان ماجاءت الكلاب – أفراداً وأزواجاً وجماعات – وكانوا يركضون ببطء. باديا عليهم التعب الشديد، فيما جاء اثنان أو ثلاثة منهم في الاخير يجرون أرجلهم جرا بعدما سبقهم زملاؤهم بفترة طويلة.

قالت بوبي:

–انتهى...هذا كل ماهنالك – الان ماذا نفعل؟

فقالت فيليس:

–نذهب الى تلك الاحراش العالية لنتغذى. من هناك نستطيع رؤيتهم الى مسافة أميال.

فقال بيتر:

–صبرا. هؤلاء ليسوا آخر المتسابقين. الولد ذو الفانيلة الحمراء لم يخرج من النفق بعد. لننظر حتى يخرج آخرهم.

ولبثوا ينتظرون. وانتظروا وانتظروا ولكن الصبي ذو الفانيلة الحمراء لم يظهر.

قالت فيليس:

–آه، دعونا نتغذى. بطني صار يؤلمني من الجوع. لابد أن الولد ذا الفانيلة الحمراء قد خرج مع الباقين ولم تنتبها اليه.

لكن بوبي وبيتر أصرا على أنه لم يخرج مع الاخرين.

قال بيتر:

–لننزل الى مدخل النفق. عندئذ ربما نلاقيه خارجا. أتوقع أن يكون قد أصابه الاعياء فلجأ الى إحدى الفجوات الجانبيَة داخل النفق ليستريح.

ظلي هنا يابوبي وراقبي. وعندما أعطي إشارة من

الاسفل إنزلي. قد لانستطيع رؤيته من بين كل هذه الاشجار في أثناء نزولها.

وهكذا نزل بيتر وفيليس، بينما ظلت بوبي في مكانها إلى أن أعطيت الاشارة. فانحدرت، هي أيضا، على الدرب الزلق المغطى بالطحالب والعشب الندي. وتدلت، آخر الأمر، من بين شجيرتين لتنضم الى الاثنين عند خط السكة. ولم يظهر حتى تلك اللحظة أي أثر للكلب ذي الفانيلة الحمراء.

صاحت فيليس بتوجع:

–آه، ارجوكما، دعونا نأكل شيئا. سأموت إن لم آكل وسوف تندمان.

فقال بيتر باستياء ولكن من غير قسوة:

–اعطيها السندويتشات، بالله عليك، وسدّي فمها السخيف. وأضاف مخاطبا بوبي:

–لحظة. ربما يستحسن أن نأكل نحن أيضا سندويتشة.

قد نحتاج الى كل طاقتنا. لاأكثر من سندويتشة واحدة لكل منا. الوقت ضيق.

سألته بوبي، وفمها مملوء بالطعام، اذ لم تكن أقل جوعا من فيليس:

–لماذا؟

فقال بيتر بطريقة مؤثرة:
-ألاترين؟ الكلب ذو الفانيلة الحمراء مصاب. تلك هي المسألة. بينما نضيع الوقت في الكلام يكون هو ملق الان على السكة، معرّض لأن يسحقه أي قطار قادم.

فصرخت بوبي، وهي تبتلع اللقمة الاخيرة من السندويتشة:
-أوه، لاتتكلم مثل الروايات. تعالي بنا يافيل.

امشي ورائي مباشرة. اذا جاء القطار السريع فالتصقي بجدار النفق وتمسكي بتنورتك جيدا.

توسلت فيليس:
- اعطيني سندويتشة أُخرى وسأفعل كما تقولين.

قال بيتر:
- سأسبقكم. الفكرة فكرتي.

ودخل النفق.

انتم تعرفون طبعا ماذا يشبه الدخول في نفق؟ تطلق القاطرة صفيرا حادا ثم ينبعث فجأة ضجيج القطار القادم وصوت احتكاك العجلات بالسكة وتزداد هذه الاصوات وتتغيّر الى حد كبير. فيبادر البالغون من المسافرين الى سد النوافذ وربطها بالاحزمة الخاصة. وتغرق العربات فجأة في مايشبه ظلمة الليل. وتضاء المصابيح بالطبع، الا اذا كنتم مسافرين في احد

القطارات المحلية البطيئة، التي لاتملك مصابيح دائما. ثم شيئا فشيئا تبدأ الظلمة في الخارج بالانكسار وتتخللها دفقات من ضوء باهت، ثم ترون ضوءاً ازرق على جدران النفق، ثم تتغير اصوات حركة القطار ثانية، وتكونون بذلك قد غادرتم النفق الى الهواء الطلق، فيبادر البالغون الى ارخاء احزمة النوافذ فتروح زجاجات النوافذ، المكسوّة بطبقة من بخار اصفر في اثناء المرور في النفق، بالاهتزاز ثم تنزل لتستقر في مواضعها. ثانية ترون اعمدة البرق وهي تركض الى الوراء بجانب السكة وحواجز اشجار الزعرور البري المشذبة والشجيرات الفتية المنبثقة عنها تركض هي الاخرى بعكس اتجاه القطار بمسافة ثلاثين ياردة بين حاجز وآخر.

هذا كله، بالطبع، هو مايعنيه النفق عندما تمر منه في قطار. لكن هذه الصورة تختلف تماما حينما تدخل النفق ماشيا، وتروح تدوس على حصى زلقة متحركة في ممر محفور مثل مجرى ماء بين سكة القطار اللامعة وجدار النفق. ثم ترى خيوطا دقيقة من ماء طيني تنساب من الجانبين، وتلاحظ ان الآجر الذي يبطن النفق ليس احمر اللون او بنيّاً كما هو عند المدخل، بل ذا لون اخضر لزج مقزز. وعندما تتكلم تجد صوتك يختلف تماما عنه في الخارج. كما ان الظلمة تهبط على النفق قبل حلولها في

الخارج بوقت طويل .

لم يكن الظلام قد خيّم على النفق حين تشبثت فيليس بتنورة بوبي فشقت جانبا منها ، لكن احدا لم ينتبه لذلك في حينه . قالت :

– اريد ان ارجع . لااحب هذا المكان . ستظلم الدنيا بعد قليل . لن استمر في الظلام . لايهمني ماتقولان . لن استمر .

فقال بيتر :

– لاتكوني سخيفة حمقاء . معي بقية شمعة واعواد ثقاب و . . . ماهذا ؟

كان «هذا» صوت طنين خفيف يصدر عن حديد السكة واهتزاز للاسلاك الممتدة بجانبها . ثم صار الطنين اقوى واوضح اذ اصغوا اليه بانتباه . قالت بوبي :

– انه قطار .

– أيّ خط ؟

صاحت فيليس وهي تحاول الافلات من قبضة بوبي

– دعوني ارجع .

قالت بوبي :

– لاتكوني جبانة . لاخطر عليك . فقط ارجعي الى الوراء .

نادى بيتر بصوت عالٍ ، وهو متقدم بضع ياردات :

– تعالي . اسرعي ! الفجوة الجانبية !

علا هدير القطار القادم ، الآن ، حتى صار يفوق الضجة التي تسمعها حين تغطّس رأسك تحت الماء في حوض استحمام من الصفيح وانت فاتح حنفيتي الماء على آخرهما وتروح تضرب بعقب قدميك على جانبي الحوض . لكن بيتر صاح بأعلى صوته ، وسمعته بوبي . فتقدمت الى الفجوة الجانبية وهي تجر فيليس . وتعثرت فيليس بالاسلاك ، بالطبع ، وخدشت ساقيها لكن بوبي ظلت تجرها وراءها ، حتى وصل الثلاثة الى التجويف الجانبي الكبير المظلم بينما كان هدير القطار يعلو أكثر فأكثر ويصم الآذان . وكان باستطاعتهم ان يروا من بعيد عينيه الناريتين تكبران لحظة بعد لحظة .

فصرخت فيليس :

– هذا تنين . كنت دائما اقول ذلك . هنا في الظلام يأخذ شكله الحقيقي .

لكن احدا لم يسمعها . فالقطار ، كما ترون ، كان يصرخ هو الآخر ، وكان صوته يعلو على صوت البنيّة .

وها هو القطار يتقدم ويزأر ويهز الارض من تحته جارا وراءه ذيلا متلألئا من النوافذ المضاءة ، مطلقا في الجو رائحة دخان وسحابة من البخار . تمسكت بوبي وفيليس الواحدة بالاخرى ، وحتى بيتر امسك : هو

الآخر ، بذراع بوبي ، موضحا في ما بعد بأنه فعل ذلك «وقاية لها اذا ما تملكها الخوف» .

ثم راح ذيل الانوار يصغر شيئا فشيئا والضجيج يضعف تدريجيا حتى خرج القطار من النفق فعاد الصمت يخيم على الجدران الرطبة والسقف الذي ينزّ منه الماء . قال الاطفال معا بصوت هامس : «أوه !» . وراح بيتر يوقد الشمعة بيد راجفة وقال :

– تعالوا .

لكنه اضطر الى ان يسعل ليستعيد صوته الطبيعي

قالت فيليس :

– آه ، ماذا لو ان الولد صاحب الفانيلة الحمراء وقع امام القطار !

فقال بيتر :

– علينا ان نذهب لنبحث عنه .

فسألت فيليس :

– ألا يمكننا العودة وإرسال احد ما من المحطة ؟

فقالت لها بوبي بلهجة شديدة وضعت حدا للجدال :

– هلاّ انتظرت هنا ؟

وهكذا راح الثلاثة يتوغلون في ظلمة النفق ، يتقدمهم بيتر حاملا الشمعة عاليا لينير لهم الطريق . كان

الشمع الذائب يسيل على اصابعه نزولا الى كم سترته . وعندما أوى الى النوم مساء ذلك اليوم ، وجد خيطا طويلا منه يمتد من رسغه الى كوعه .

على بعد مئة وخمسين ياردة من المكان ، الذي وقفوا فيه عندما مرّ القطار ، توقف بيتر لحظة ونادى «هللو» ثم انطلق يركض . ثم توقف حين لحقت به اختاه . . . توقف على بعد ياردة ممن نزلوا الى النفق يبحثون عنه . وإذ رأت فيليس طيف لون احمر اغمضت عينيها بقوة . فهناك ، في الممر المنخفض المكسو بالحصى اللامع بجانب خط السكة ، تمدد كلب الطراد ذو الفانيلة الحمراء . كان متكئا بظهره الى جدار النفق ، ذراعاه ممدودتان الى جانبه بارتخاء وعيناه مغمضتان .

سألت فيليس ، وهي تطبق اجفانها بقوة اشد :

– هل اللون الاحمر دم ؟ هل هو مقتول .

فقال بيتر :

– مقتول ؟ هراء ! لايوجد شيءٌ احمر سوى فانيلته . هو مغمى عليه فقط . ماذا علينا ان نفعل ، بحق السماء ؟

سألته بوبي :

– هل يمكننا نقله ؟

– لا ادري . إنه ولد ضخم .

– ما رأيك بأن نبلل جبينه بالماء . لا ، ادري اننا لانحمل

ماء معنا . لكن الحليب يفي بالغرض . عندنا قنينة مملوءة .

قال بيتر :

– اجل . واعتقد انهم يفركون يد المصاب ايضا .

قالت فيليس :

– ويحرقون الريش ، حسب علمي .

– مافائدة هذا الكلام مادمنا لانملك اي ريش !

فقالت فيليس بلهجة المنتصر الغاضب :

– باللمصادفة ! عندي كرة ريشة في جيبي . هاك ! راح بيتر يفرك يدي الصبي ذي الفانيلة الحمراء . واحرقت بوبي ريشات الكرة واحدة تلو الاخرى قرب انف الصبي ، فيما اخذت فيليس ترش الحليب الدافئ على جبينه . وطفق الثلاثة يرددون بسرعة وحماس :

– آه ، انظر اليّ ، كلمني ! تكلم إكراما لخاطري !

الفصل الثاني عشر

ماذا جلبت بوبي الى البيت

ظلّ الاطفال يرددون جملة «آه، انظر إليّ، كلّمني! كلمني، أكراماً لخاطري» مرات ومرات على مسامع الكلب ذي الفانيلة الحمراء الغائب عن الوعي، الذي ظل مستلقياً في مكانه مغمض العينين شاحب الوجه. قالت بوبي :

–بللي أذنيه بالحليب. هكذا يفعلون مع الناس المغمى عليهم – بماء الكولونيا. لكن أعتقد أن الحليب لايقل فائدة.

فأخذوا يبللون أذنيه، وسال بعض الحليب على رقبته الى باطن الفانيلة الحمراء. كان الظلام شديداً في النفق. ولم تكد نتفة الشمعة، التي أشعلها بيتر ووضعها على حجارة، تنير شيئاً. قالت فيليس :

–آه، ارفع رأسك أرجوك. إكراماً لخاطري! أعتقد أنه ميت.

أعادت بوبي القول :

-أكراماً لخاطري. لا، ليس ميتاً.

قال بيتر وراح يهز ذراع الفتى المصاب :

-اكراماً لي.. استفق، أرجوك.

في تلك اللحظة تنهد الفتى ذو الفانيلة الحمراء وفتح عينيه ثم أغمضهما ثانية وقال بصوت ضعيف جداً :

-كفى.

-آه، هو ليس ميتاً. عرفت أنه لم يمت.

صارت تبكي. قال الفتى :

-مابك؟ أنا بخير.

قال بيتر بحزم، وهو يدفع فوهة قنينة الحليب الى فم الفتى :

-اشرب هذا.

قاوم الفتى هذه الحركة فانسكب بعض الحليب قبل أن يتمكن من تخليص فمه ليقول :

-ماهذا؟!

قال بيتر :

-حليب. لاتخف. أنت بين أصدقاء. فيل، كفى ثغاء الآن.

قالت بوبي بلطف :

-اشربه من فضلك. سينفعك.

فشرب الحليب، بينما وقف الثلاثة جانباً صامتين.

همس بيتر :

-دعوه يستعيد وعيه. سيعود الى وضعه الطبيعي حال مايجري الحليب في عروقه مثل النار.

وصحّ ماقال بيتر. فقد قال الفتى :

-أنا أحسن الآن. أتذكر كل ماحدث.

وحاول أن يتحرك الا أن محاولته انتهت بأنين. أضاف :

-اللعنة! أعتقد أن ساقي كُسِرت، سألته فيليس، وهي تعطس :

-هل تعثرت ووقعت؟

فقال الفتى باستياء :

-لا، بالطبع. أأنا طفل؟ أحد تلك الاسلاك الشيطانية أوقعني، وعندما حاولت النهوض لم أقدر على الوقوف. لذلك جلست. رحماك ياإلهي! تؤلم حقاً. كيف عثرتم عليّ؟

قال بيتر متباهياً :

-رأيناكم تدخلون النفق كلكم فعبرنا من فوق التل لنراكم تخرجون من الجهة الأخرى. خرج الجميع الا أنت. وهكذا فنحن فريق إنقاذ.

فعلق الفتى قائلاً :

– أقول –عندكم شجاعة.

فقال بيتر بتواضع :

–أوه، هذه بسيطة. أتعتقد أنك تقدر على المشي إذا ساعدناك؟

قال الفتى :

–يمكن أن أحاول.

وحاول، لكنه لم يستطيع الوقوف سوى على قدم واحدة، بينما ظلت القدم الثانية مرتخية بشكل فظيع. قال :

–صبراً. دعوني أجلس. أشعر كأني أموت. اتركوني.. اتركوني بسرعة.

وانطرح أرضاً واغمض عينيه. تبادل الآخرون النظر على ضوء الشمعة الخافت، وقال بيتر :

–ياللبلية!

قالت بوبي بسرعة :

–اسمعني. يجب أن تذهب وتأتي بالعون. إذهب الى أقرب بيت

فقال بيتر :

–أجل. هذا هو الشيء الوحيد. هيّا بنا.

–اذا حملته أنت من قدميه، وأنا وفيل من رأسه أمكننا أن ننقله الى داخل الفجوة.

وحملوه فعلاً. وربما كان ذلك تأميناً لسلامة المصاب الذي أغمي عليه ثانية. قالت بوبي :

–سأبقى معه أنا، وأنت خذ معك أطول قطعة باقية من الشمع و.... آه، أسرع فهذه القطعة لاتدوم طويلاً.

–لاأظن ماما تقبل أن أتركك وحدك. أنا أبقى واذهب أنت وفيل.

قالت بوبي :

–لا، لا، تذهب أنت وفيل. أعرني سكينتك. سأحاول أن أنزع عنه حذاءه (جزمته) قبل أن يفيق ثانية.

فقال بيتر :

–آمل أن يكون ما نفعله صحيحاً.

فقالت بوبي بنفاد صبر :

–بالطبع صحيح. ماذا كنت ستفعل غير هذا؟ تتركه هنا وحده لأن الظلام حلّ؟ هراء. أسرع. هذا كل ما هنالك.

فانطلق بيتر وفيليس مسرعين. راحت بوبي تراقب، الطفلين المعتمين وضوء الشمعة الباهت فتملكها شعور بأن كل شيء انتهى. وفكرت أنها عرفت الآن ماهو شعور الراهبات اللواتي يحكم عليهن بالدفن، وهن على قيد الحياة، في جدران الاديرة. وفجأة اعترتها رجفة صغيرة. قالت تحدث نفسها :

«لاتكوني بنيّة حمقاء». كانت دوماً تستاء إذا ناداها

أحد بكلمة «بنيّة»، حتى لو لم ترافق الكلمة صفة «حمقاء»، بل «حلوة» أو «طيبة» أو «ذكية». المرة الوحيدة التي لم تنزعج فيها من الكلمة هي حين استبدبها الغضب فسمحت لـ (روبرتا) بأن تطلق هذه التسمية على بوبي.

ثبتت بوبي نتفة الشمعة على كسرة آجر عند قدمي الفتى ذي الفانيلة الحمراء. ثم فتحت سكين بيتر. كانت دوماً تجد صعوبة في ذلك – وتستعين بمسكوكة من فئة نصف بنس لسحب نصل السكين وفتحها. هذه المرة، تمكنت من فتحها باظفر إبهامها. فكان أن أنكسر أظفرها وتألمت الماً لايطاق. وقامت بتقطيع أشرطة حذاء الفتى ونزعته عن قدميه. وحاولت نزع الجوارب، لكن ساقه كانت متورمة بدرجة فظيعة جعلت شكلها مشوهاً. لذا لجأت الى قص الجوارب بالسكين بتأنٍ وعناية شديدين. كانت جوارب صوفية محاكة بنية اللون. وتساءلت بوبي من، ياترى، حاكها وماإذا كانت أمه حاكتها وما إذا كانت قلقة عليه في تلك اللحظة وماذا سيكون شعورها حين يحملونه الى البيت مكسور الساق. وعندما أزاحت بوبي الجوارب ورأت ماحل بالساق المسكينة شعرت بالنفق يزداد ظلاماً والارض تهتز تحت قدميها وكل شيء يبدو غائماً من حولها. قالت روبرتا لبوبي: «بنيّة

حمقاء!» فاستعادت بوبي تماسكها، وقالت لنفسها: «ياللساق المسكينة. يجب أن توضع تحتها وسادة.. ها!»

تذكرت يوم شقت هي وفيليس تنورتيهما الداخليتين الحمراوين لتعملا منها إشارات تحذير لإيقاف القطار ومنع وقوع حادث. إن تنورتها الداخلية بيضاء، اليوم. غير انها لاتقل نعومة عن تنورتها الحمراء السابقة. فنزعتها. قالت:

–آه، كم هي مفيدة التنورات القطنية! الرجل الذي اخترعها يستحق أن ينصبوا له تمثالاً.

قالت ذلك بصوت عالٍ. ذلك لأن سماعها لأي صوت، حتى صوتها هي، كان مبعث شعور بالطمأنينة في ذلك الظلام. سأل الفتى فجأة بصوت واهن جداً:

– ماذا يجب تكريماً؟ لمن؟

فقالت بوبي:

– آه، أنت أحسن الآن! أطبق أسنانك ولا تستسلم للألم. الآن!

كانت قد طوت التنورة، فلما رفعت ساقه دفعت تحتها التنورة المطوية، أَنَّ الفتى متألما فقالت بوبي:

– لاتغبْ عن الوعي ثانية. ارجوك، لا. واسرعت تبلل منديلها بالحليب وتنشره على الساق المتورمة. فصرخ الفتى، منكمشاً على نفسه:

– آه ، هذا يؤلم ! آه ، لا ، لايؤلم . مريح حقاً .
سألته بوبي :
– ما اسمك ؟
– جيم
– اسمي بوبي .
– لكنك فتاة ، ألست كذلك ؟
– بلى . اسمي الكامل روبرتا
– أقول ، يابوبي .
– نعم ؟
– ألم يكن هنا آخرون قبل قليل ؟
– بلى . بيتر وفيل – اخي وأختي . ذهبا ليأتيا بمن يخرجك من هنا .
– ماأعجب اسماؤكم . كلها اسماء اولاد .
– أجل . كم اتمنى لو أني ولد . الا تتمنى ذلك ؟
– اعتقد انك افضل كما انت .
– ماقصدت هذا . كنت اقصد : الا تتمنى انت لو انك ولد ؟ لكن انت ولد بالطبع ، ولا تحتاج الى التمني .
– أنت لاتقلين شجاعة عن الولد . لماذا تخلفت عن الآخرين ؟
فقالت بوبي :
– كان لابد ان يبقى احدنا الى جنبك .

فقال جيم :
– تدرين ؟ انت فتاة طيبة . فلنتصافح . ومد ذراعاً مغطاة بفانيلة حمراء فضغطت بوبي على كفه ، وقالت موضحة :
– لن اهز يدك مصافحة لأنها ستهزك . وهذا يهز ساقك المسكينة ، وهذا سيؤلمك . عندك منديل ؟
قال ، وهو يبحث في جيبه :
– لااتوقع ان يكون عندي . اجل ، عندي . ماذا تريدين به ؟
أخذته ونقعته بالحليب ووضعته على جبينه . قال :
– هذا لطيف . ماهو ؟
قالت بوبي :
– حليب . ماعندنا ماء .
فقال جيم :
– أنت ممرضة صغيرة لطيفة .
قالت بوبي :
– اعمل هذا لوالدتي أحياناً . ليس بالحليب طبعاً ، بل بعطور منبهة أو بالخل والماء . أقول . . سأطفئ الشمعة الآن ، لأن القطعة الأخرى قد لاتكفي الى ان تخرج من هنا .
قال :

– ياللقديسين ! انت تفكرين بكل شيءْ .

نفخت بوبي على الشمعة وأطفأتها . أنتم لاتتصورون كم كان الظلام اسود كأنّه المخمل ! قال صوت عبر الظلمة :

– أقول بوبي الا تخافين الظلام ؟

– ليس . . . ليس . . . كثيراً ، أعني . .

فقال الفتى :

– هاك ، امسكي يدي .

كانت حركة حلوة حقاً من جانبه ، وذلك لأنه كان ، مثل اغلب الفتيان الذين من جيله ، علامات المودة المادية كالتقبيل ولمس الايدي ، فهو يطلق على هذه الامور «توددات خرقاء» ويستهجنها .

خفّت وحشة الظلام على نفس بوبي بعدما وضعت يدها في يد الفتى الكبيرة الخشنة .

اما هو فقد استغرب لأنه لم ينكمش من وجود يدها الساخنة الناعمة الصغيرة في يده ، كما كان يتوقع . حاولت بوبي ان تكلمه ، ان تسليه و «تصرف انتباهه عن» آلامه ، ولكن ما اصعب ان تكلم انساناً لاتراه بسبب الظلام . وسرعان ماوجدوا نفسيهما يغرقان في صمت تكسره بين حين وآخر بعض كلمات مثل :

انت بخير يابوبي ؟

أو

– أدري ان ساقك تؤلمك جداً ياجيم . كم انا آسفة .

وكان البرد شديداً .

راح بيتر وفيليس يتقدمان في النفق المظلم ببطء نحو ضوء النهار في الخارج . وكان الشمع الذائب يسيل على اصابع بيتر . سارت الأمور بلا متاعب ، باستثناء اشتباك ثوب فيليس بالاسلاك وتمزق جانب منه وتعثرها برباط حذائها المفكوك و وقوعها على يديها وركبتيها وإصابتها بكدمات . قالت فيليس :

– هذا النفق لاينتهي .

والحق انه بدا طويلا طويلا جدا . قال بيتر :

– استمري . كل شيءْ له نهاية ، تصلين اليها إذا استمريت في المشي .

ذلك صحيح تماما عندما يفكر به الانسان . ومفيد عندما يتذكره في اوقات الشدة – عندما يصاب بالحصبة أو يدخل امتحان الحساب او يحمل اعباء ثقيلة ، أو أيام يلاحقه الخزي فيشعر بأن الناس كلهم يكرهونه وأنه لايحب أحدا . قال بيتر فجأة :

– تبارك الله . تلك هي نهاية النفق – تبدو مثل ثقب برأس دبوس في ورقة سوداء . الا تبدو كذلك ؟

بدأ ثقب الدبوس يكبر . واكتست جوانب النفق

بضوء أزرق . وصار بامكان الطفلين ان يريا الطريق الضيق المغطى بالحصى الذي كانا يدبان عليه . وازداد الجو دفئا وطراوة . وما هي الا عشرون خطوة اخرى حتى وجدا نفسيهما تحت ضوء الشمس الجميل والاشجار الخضراء تحيط بهما من الجانبين .

تنفّست فيليس بعمق وقالت :

– لن ادخل النفق ثانية مادمت حيّة . حتى لو كان فيه مئتا الف مليون كلب طراد بفانيلات حمراء سيقانهم مكسورة .

فقال بيتر كالعادة :

– لاتكوني سخيفة يائرثارة . لابد ان تدخلي ثانية .

قالت فيليس :

– اعتقد انها كانت شجاعة مني ولطفا .

فقال بيتر :

– لا ، ابدا . انت لم تدخلي لأنك شجاعة ، بل لأننا – انا وبوبي – لسنا خائفين . اين اقرب بيت ياترى ؟ الواحد لا يستطيع ان يرى شيئا من بين هذه الاشجار .

قالت فيليس ، وهي تشير باتجاه نهاية خط السكة :

– ذاك سقف بناء .

فقال بيتر :

– تلك كابينة اشارات السكك . وأنت تدرين ان

الكلام مع عمال الاشارات ممنوع في اثناء الواجب.

قالت فيليس:

–لست خائفة من ارتكاب هذا الخطأ، كما لم أخف من دخول النفق. تعال معي.

وانطلقت تركض بجانب السكة فركض بيتر لاحقا بها. كان الجو حارا خارج النفق. وكان الطفلان يتصببان عرقا ويلهثان حين وصلا. فوقفا ورفعا رأسيهما الى شباك الكابينة وصاحا بأعلى ماتستطيعه أنفاسهما المتقطعة:

«يامن هناك!» فلم يجب أحد. كانت كابينة الاشارات صامتة مثل دار حضانة خالية (أو مثل حجرة طفل خالية). أحسّ الطفلان بسخونة درابزين (محجّر) السلم المؤدي الى الكابينة، وهما يصعدان بخفة. وأطلا برأسيهما من الباب المفتوح. فوجدا عامل الاشارات جالسا على كرسي، متكئا بظهره الى الجدار، ورأسه مائل الى جنب وفمه مفتوح، يغط في نوم عميق. صرخ بيتر:

–اه، يالهي! أفق من نومك!

صرخ بيتر بصوت مخيف، لأنه يدري أن عامل الاشارات الذي ينام في أثناء الواجب يعرض نفسه للطرد من وظيفته، عدا ماينطوي عليه هذا الاهمال من خطر على القطارات التي تنتظر منه اشارة المرور.

ظل عامل الاشارات مستغرقاً في نومته، فقفز بيتر

نحوه وصار يهزه بقوة. استفاق الرجل ببطء وراح يتثاءب ويتمطى، ولكن ماإن انتبه حتى هب واقفا ووضع يديه على رأسه «مثل مجنون هائج» - كما وصفته فيليس فيما بعد - وصاح:

-اه، يارحمة السماء! كم الساعة؟

فأجاب بيتر:

-الثانية عشرة وثلاث عشرة دقيقة.

وكانت الساعة المدورة ذات الواجهة البيضاء، المعلقة على جدار الكابينة، تشير الى ذلك.

نظر الرجل الى الساعة ثم قفز الى عتلات تحويل السكك وراح يحركها يمينا وشمالا فرن جرس كهربائي وتحركت الاسلاك وأذرع التبديل الالية. ثم ألقى الرجل بنفسه على احد الكراسي، شاحب الوجه والعرق يبلل جبينه «مثل قطرات ندى كبيرة» -كما وصفتها فيليس فيما بعد. راح يرتجف ورأى الطفلان يديه الكبيرتين المكسوّتين بشعر كثيف ترتجفان «رجفات من الحجم الكبير» - على حد تعبير بيتر. أخذ الرجل أنفاسا طويلة ثم بكى فجأة وصار يردد: « حمداً لله. احمد الله على أنكم جئتم في الوقت المناسب. اه، حمداً لله! » وبدأ كتفاه يهتزان بقوة واحمر وجهه ثانية فغطاه بيديه الكبيرتين المكسوّتين بشعر كثيف.

قالت:

-لاتبك. لاتبك أرجوك. كل شئ حسن الآن.

وربّتت على كتفه العريضة القوية، بينما قرصة بيتر بلطف من كتفه الاخرى.

ولكن يبدو أن عامل الاشارات كان في حالة معنوية سيئة للغاية، لان بيتر وفيليس ظلا يخففان عنه مدة طويلة قبل أن يهدأ ويبدأ بالبحث عن منديله - الاحمر ذي النقوش البيضاء والبنفسجية الزاهية - ومسح وجهه. وكان أحد القطارات قد مرّ هادراً في أثناء بكائه وانشغال الطفلين بالتخفيف عنه. قال بعدما كف عن البكاء وان ظل ينشج:

-أنا خجلان جدا من نفسي..

ولكنه اعترض قائلا فجأة:

-ماذا تفعلان هنا، على أية حال؟ تعرفان أن هذا ممنوع.

فقالت فيليس:

-أجل، نعرف أنه خطأ - ولكني لم أخف من القيام بعمل مغلوط تبين أنه صحيح. أأنت غير راض عن مجيئنا؟

-باركما الرب. لو لم تأتيا!

توقف ثم تابع كلامه:

-ياللعار!... كل العار. إنسان ينام في أثناء الواجب...ياللخزي، لو عرف الناس... ولو أن المسألة مرّت بسلام.

فقال بيتر:

-لن يعرف أحد. لسنا وشاة. مع ذلك يجب أن لاتنام في أثناء الواجب. هذا خطر.

فقال الرجل:

-حدثاني عن شيء لاأعرفه. لم استطع التحمل. أعرف جيدا ماهي العواقب، ولكني لااستطيع التخلص. الايقدرون على إرسال من يحل محلي! صدقني أني لم أنم عشر دقائق طوال الايام الخمسة الماضية. طفلي مصاب بالتهاب القصبات الحاد، الطبيب يقول.. ولا أحد له في هذه الدنيا سواي وأخته الصغيرة. هذه هي المشكلة...الطفلة تحتاج الى النوم. خطر؟

نعم، أصدقك. الان، إذهبا وأخبرا عني إذا شئتما.

فقال بيتر باستياء:

-لن نفعل هذا بالطبع.

أما فيليس فقد تجاهلت كل ماقله عامل الاشارات، سوى الكلمات الست الاولى. قالت:

-طلبت أن نحدثك عن شيء لاتعرفه. حسنا، إذن. سأحدثك أنا. هناك ولد في النفق، يلبس فانيلة قطنية

حمراء، ساقه مكسورة.

فسأل الرجل:

-ماذا أراد من ذهابه الى النفق اللعين ياترى؟

فقالت فيليس بلطف:

-لاتغضب. نحن لم نرتكب خطأ، بل جئنا وايقظناك من نومك وكان ذلك عملا صحيحا. هكذا المسألة.

ثم قص بيتر على عامل الاشارات كيف وصل الفتى ذو الفانيلة الحمراء الى النفق. قال الرجل أخيرا:

-حسن. لاأراني أستطيع أن أفعل شيئا. أنالا أقدر على ترك الكابينة.

فقالت فيليس:

-إذن أرشدنا الى واحد ماعنده كابينة.

فقال الرجل – بلهجة فيها كثير من المسكنة كما لاحظت فيليس:

-هناك مزرعة ﴿بريغدن﴾. تلك التي ترون دخانها من وراء الاشجار.

فقال بيتر:

-حسنا إذن مع السلامة.

لكن الرجل قال:

-انتظرا لحظة.

مدّ يده في جيبه واستخرج حفنة من القطع النقدية

الصغيرة – عدد غير قليل من البنسات وشلن أو شلنان ونصف شلن ونصف كراون . التقط منها الشلنين ودفع بهما الى الطفلين قائلا:

–هاكما. أنا أعطيكما هذه حتى تسكتا عما حدث اليوم.

ساد صمت مزعج برهة. ثم قالت فيليس:

–أنت رجل بغيض، إذن. ألست كذلك؟

وخطا بيتر نحو الرجل وضرب كفه الممدودة من أسفل فطار الشلنان منها وتدحرجا على أرضية الكابينة، وقال:

–ان كان هناك مايمكن أن يجعلني واشيا فهو تصرفك هذا! تعالي يافيل.

ومضى خارجا من كابينة الاشارات وهو يشتعل غضبا. تأخرت فيليس عنه وأخذت يد الرجل التي ظلت ممدودة بذهول وقالت:

–أنا اغفر لك. حتى لو لم يغفر بيتر لك ذلك.

انت لست بكامل وعيك . اعرف ان الحاجة الى النوم تخبّل الناس . ماما قالت لي . ارجو أن يتعافى طفلك قريباً و . . .

فصاح بيتر بحدة :

– فيل ، تعالي .

قالت فيليس للرجل :

– اعطيك كلمة شرف مقدسة بأننا لن نخبر أحداً . فلنتبادل قبلة ولنكن اصدقاء .

فانحنى الرجل وقبلها ، وقال :

– اعتقد اني جننت قليلا يا آنستي الصغيرة . والآن اركضي الى البيت ، إلى أُمّك . ماقصدت ان اكدر خاطرك . . . هيّا .

وهكذا غادرت فيليس كابينة الاشارات الحارة وتبعت بيتر الذي انطلق عبر الحقول الى المزرعة .

عندما وصل عمال المزرعة ، حاملين نقالة موقتة ملفوفة بأغطية الخيل ، يتقدمهم بيتر وفيليس ، الى الفجوة الجدارية داخل النفق وجدوا بوبي وجيم مستغرقين في النوم . وقال الطبيب ان جيم نام بعدما انهك الالم اعصابه . سأل ناظر المزرعة بعدما وضعوا جيم في النقالة :

– أين يسكن ؟

اجابت بوبي :

– في نورثمبرلند .

قال جيم :

– مدرستي في ميدبريدج . لابد لي من العودة الى هناك .

قال ناظر المزرعة :

–ارى ان لابد من عرضه على الطبيب

فقالت بوبي :

– آه ، احملوه الى بيتنا . ليس بعيدا . انا واثقة بأن ماما ستقول الشيء نفسه .

– هل ترضى امك بأن تحملي الى البيت غرباء مكسوري الأرجل ؟

فقالت بوبي :

– هي نفسها جاءت بالروسي المسكين الى البيت . ادري انها ستوافق .

فقال الناظر :

– حسنا إذن . أنت اعرف بما تريده امك . انا ماكنت لأحمله الى المزرعة من دون ان آخذ موافقة «السيدة» أولا . ويسمونني ، بعد هذا ، «رب العمل» .

همس جيم :

– انت متأكدة بأن امك لاتمانع ؟

فقالت بوبي :

– بالتأكيد .

فقال الناظر :

– إذن ، فلنذهب به الى بيت المدخنات الثلاث ؟

قال بيتر :

– بالطبع .

– إذن سأبعث بإبني على الدراجة الهوائية الى الطبيب

ليطلب منه الذهاب الى هناك . والآن ياأولاد احملوه بهدوء وثبات . واحد ، اثنان ، ثلاثة !

كانت الأم مستغرقة بكتابة قصة من القصص التي تبيعها للصحف ، تتحدث عن «دوقة» ورجل شرير يخطط للاستيلاء على ثروتها ووصية ضائعة ، حين انفتح باب مكتبها بقوة . فألقت بالقلم والتفتت لترى ماحدث ، فاذا بوبي داخلة عليها بلا قبعة ووجهها احمر من الركض . وصاحت :

– آه ، ياماما . قومي انزلي ارجوك . لقد عثرنا على كلب طراد بفانيلة حمراء في النفق ، ساقه مكسورة وقد جاؤوا به الى البيت .

قالت الأم عابسة باستياء :

– ليأخذوه الى البيطري . الحقيقة انا لااستطيع ان آوي كلبا اعرج هنا .

فقالت بوبي ، وهي بين الضحك واللهاث :

– ليس كلبا حقا . إنه ولد .

– اذن فليأخذوه إلى أمّه .

قالت بوبي :

– أمّه ميتة . وابوه في نورثمبرلند . آه ، ياماما ، عامليه بلطف . انا اخبرته بأنك تريدين ان نأتي به الى البيت . انت دائما تريدين مساعدة الناس . ابتسمت الأم ،

لكنها تنهدت ايضا . جميل ان يعتقد اطفالك بأنك مستعدة لفتح باب بيتك وقلبك لأي من يحتاج مساعدةً . ولكن المسألة تنقلب الى ازعاج ، احيانا ، عندما يتصرف الاطفال بحسب اعتقادهم .

قالت الأم :

– آه ، حسنا إذن فلنبذل اقصى جهدنا . حين حملوا الفتى جيم الى الداخل لاحظت الأم أنه كان شاحب الوجه شحوبا شديدا وحمرة شفتيه قد تحوّلت الى زرقة مخيفة ،فقالت :

– انا مسرورة لأنكِ جئت به الى هنا . والآن لنضعك في فراش مريح ياجيم قبل مجيء الطبيب ! وإذ نظر جيم الى عينيها اللتين تنطقان بالطيبة شعر بموجة صغيرة دافئة مريحة من الشجاعة ، وقال :

– سيؤلمني العلاج أيضا ، أليس كذلك ؟ لااقصد ان اكون جبانا . هل تظنوني جبانا إذا أُغمي عليّ ثانية ؟ صدقوني اني لا اتعمد ذلك . واكره ان أسبب لكم كل هذه المتاعب .

قالت الأم :

– لاعليك . انت الذي يواجه المتاعب ، ياعزيزي المسكين ، لانحن .

وقبلته كأنها تقبل ابنها بيتر واضافت :

– نحن نحب ان تكون ضيفنا ، أليس كذلك يابوبي ؟

فقالت بوبي :

– أجل .

واستنتجت من النظر الى وجه أُمّها المشرق انها احسنت صنعا بأن حملت كلب الطراد ذا الفانيلة الحمراء الجريح الى البيت .

الفصل الثالث عشر

جد الكلب

لم تعد الأم الى الكتابة طوال ذلك اليوم، وذلك لأنه كان لابد من اعداد فراش مريح للكلب ذي الفانيلة الحمراء الذي جاء به الاطفال الى بيت المدخنات الثلاث. ثم جاء الطبيب لمعالجته. ورافق العلاج ألم رهيب. وقد لازمته الأم طوال الوقت فخفف ذلك عنه بعض الشيء. ولكن «وجع مرة أفضل من التسكين مئة مرة»، كما قالت السيدة فيني.

كان الاطفال قد نزلوا الى غرفة الاستقبال. ومن هناك كانوا يسمعون وقع اقدام الطبيب قاطعاً أرضية غرفة النوم جيئة وذهاباً وسمعوا صيحة ألم مرة أو مرتين.

قالت بوبي :

–ياللفظاعة! آه، ليت الدكتور فوريست ينتهي بسرعة. أسفي عليك ياجيم المسكين!

قال بيتر :

–شيء فظيع، ولكنه مثير. كم تمنيت لو أن الدكتور

فوريست لم يصر على مسألة من يبقى في الغرفة عند العلاج ومن يخرج. كم أتمنى أن أرى كيف تجبر الساق. أعتقد أن العظام تنسحق مثل أي شيء.

فقالت الفتاتان بصوت واحد :

-كفى، بالله عليك!

فقال بيتر :

-سخف! كيف تنويان أن تصبحا ممرضتين في الصليب الأحمر كما لو أنكما تنويان الخروج الى نزهة، بينما لاتتحملان حتى سماع كلامي عن تكسّر العظام؟ عليكما أن تسمعا صوت العظام وهي تتكسر في ساحة القتال – وتغرقان في الدم الى المرفقين هكذا والا فلا. و....

فصرخت بوبي، وقد غاض الدم من وجهها :

-كفى! أنت لاتدري كم هو ممتع لي كلامك هذا!

وقالت فيليس، متورّدة الوجه :

-ولي أيضاً.

فقال بيتر :

-جبانات!

قالت بوبي :

-لست جبانة. أنا ساعدت ماما في معالجة قدمك التي جرحتها المذراة. وكذاك فيل. أنت تدري بهذا.

فقال بيتر :

-حسناً، إذن! أصغيا اليّ. سيكون مفيداً لكما أن أحكي لمدة نصف ساعة يومياً عن العظام المكسورة وأحشاء الانسان حتى تتعودا عليها.

سُمع صوت تحريك كرسي في غرفة النوم فقال بيتر :

إسمعا. هذا صوت عظام تتكسّر.

فقالت فيليس :

-أقول لكما. أنا لاأدري مااللذي جعل الرجل فظيعاً بهذا الشكل. ربما لأنه كان لطيفاً وطيباً جداً طيلة الساعات الماضية ولابد له من التغيير الآن. هذا يسمونه رد فعل. الانسان يلاحظه في نفسه بين حين وآخر. في بعض الاحيان، عندما يكون الإنسان طيباً أكثر من اللازم لفترة أطول من المعتاد تنتابه فجأة موجة عنيفة من عدم الطيبة.

قال بيتر :

-سأقول لكما ماذا يفعلون. يكتّفون المصاب حتى لايقدر على المقاومة أو التدخل في خططهم الطبية الشيطانية. ثم يمسك به واحد من رأسه وآخر من ساقه – الساق المكسورة – ويسحبها الى أن تأخذ العظام وضعها الصحيح – وتسمع لها طقطقة. إنتبها! ثم يربطون الساق كلها باللفافات والسيور – هيّا بنا نلعب لعبة التجبير!

فقالت فيليس :

—آه، لا!

لكن بوبي قالت فجأة :

—حسن. فلنلعب! أنا سأكون الطبيب وفيليس يمكن أن تكون الممرضة. وأنت يمكن أن تكون صاحب الساق المكسورة. يمكن معالجة ساقك بصورة أسهل لأنك لاتلبس تنورات داخلية.

قال بيتر :

—سآتي بألواح التجبير واللفافات. وأنتما حضّرا سرير المعالجة.

كانت الحبال، التي شدوا بها صناديق الحاجيات واللوازم البيتية يوم انتقلوا الى هذا البيت، موضوعة في صندوق خشبي في قبو المنزل. وعندما عاد بيتر بربطتين من تلك الحبال وبعض ألواح خشبية صغيرة للتجبير، صارت فيليس تقهقه بعصبية. قال بيتر :

—الآن، إبدأا

ثم تمدد على الاريكة وراح يئن ويتوجع. فقالت بوبي، وهي تبدأ بشدّه الى الاريكة بالحبال :

—لاتصرخ بصوت عالٍ. فيل شدي الحبل بقوة.

فتألم بيتر فعلاً وقال :

—على مهلك. ستكسرين ساقي الأخرى.

راحت بوبي تعمل بصمت ولفت الحبل حوله عدة

مرات.

قال بيتر :

—هذا يكفي. صرت لاأقدر على الحركة أبداً.

ثم عاد يئن ممثلاً دور المصاب :

—آه، ياساقي المسكينة!

سألته بوبي بنبرة غريبة :

—أمتأكد أنك لاتستطيع الحركة؟

فأجاب بيتر :

—متأكد تماماً.

ثم تساءل بمرح :

—هل نلعب لعبة استخراج الدم الفاسد أم لا؟

فقالت بوبي بلهجة صارمة :

—يمكنك أن تلعب مايحلو لك.

شبكت ذراعيها على صدرها ووقفت تنظر اليه وهو مربوط الى الأريكة بالحبال، وأضافت :

—ستذهب أنا وفيل. ولن نفك وثاقك حتى تعطينا وعداً بأن لاتحدثنا أبداً، أبداً، عن الدماء والجروح الا اذا طلبنا منك ذلك.تعالي يافيل!

قال بيتر غاضباً وهو يتلوى تحت الحبال :

—يامتوحشة! لن أعطيك وعداً. لن أفعل سأصرخ وستأتي ماما.

فقالت بوبي :
-هيّا اصرخ، وقل لها لماذا ربطناك بالحبال! هيّا بنا يافيل. لا، أنا لست متوحشة يابيتر. لكنك لم تهتم بشعورنا ولم تتوقف عن ذلك الكلام لما طلبنا منك و...
قال بيتر بلهجة السخرية :
-ياه! حتى الفكرة ليست فكرتك. أخذتها من مجلة «ستوكي»!
وعندما انسحبت بوبيّ وفيليس بوقار التقيا بالطبيب عند الباب. جاء يفرك يديه بادٍ علية الارتياح. قال :
-حسناً. لقد تم ذلك العمل. كسر لطيف سيشفى تماماً. مامن شك. الولد شجاع أيضاً. ها! ماهذا الذي أرى؟
فقد وقعت أنظاره على بيتر الساكن مثل الجرذ تحت الحبال وتساءل :
-لعبة الشرطة والحرامية، ها؟.
لكنه استغرب ذلك بعض الشيء. فلم يكن ليصدق أن تقضي بوبي الوقت باللعب بينما تجري في الغرفة العليا عملية تجبير ساق مكسورة لأحد الناس. قالت بوبي :
-أوه، كلا. ليست لعبة الشرطة والحرامية.
كنا نلعب لعبة تجبير الكسور. بيتر يمثل الولد مكسور الساق وأنا الطبيب.
وقالت فيليس بابتهاج :

-وأنا الممرضة.
عبّس الطبيب وقال بلهجة أقرب الى الشدة :
-اذن، يلزم أن أقول إنها لعبة خالية من الرحمة. هل عدمتم الخيال الى الحد الذي تعجزون فيه عن تكوين فكرة عما كان يجري فوق؟ ذاك الفتى المسكين وقطرات العرق تنضح من جبينه، ويعض على شفته حتى لا يصرخ من الألم، وكل لمسة من ساقه تعني ألماً رهيباً و...
فقالت فيليس :
-أنت الذي يجب أن نشده بالحبال. أنت لاتقل سوءاً عن...
قالت بوبي :
-صه. أنا آسفة، لكننا لسنا عديمي الرحمة حقاً.
فقال بيتر باستياء :
- أنا كنت. أفترض. حسناً، يابوبي، كفى نبلاً ولاتتستري عليّ فأنا أرفض ذلك. كل ماهنالك أني الححت عليهما بالحديث عن الدم والجروح. أردت إعدادهما لتكونا ممرضتين في الصليب الأحمر ولم أكف عن الحديث عندما طلبتا مني ذلك.
جلس الدكتور فوريست وقال :
-حسناً، وبعد؟
-طيّب. ثم قلت «تعالوا نلعب لعبة تجبير الكسور» كانت

تلك سخافة مني، أدري أن بوبي لا تحب هذه اللعبة. أردت أن أغيظها فقط. ثم لما قالت «نعم» اضطررت، بالطبع، الى الاستمرار باللعبة. فقامتا بشدي بالحبال. أخذنا الفكرة من «ستوكي». أعتقد أن هذه وحشية مخجلة.

استطاع أن ينقلب جانباً، بالرغم من الحبال، ويخفي وجهه في ظهر الاريكة.

قالت بوبي ترد بكبرياء على توبيخ بيتر الصامت لها :

-ما ظننت أن أحداً غيرنا سيعرف. لم يخطر على بالي أنك ستأتي. الحقيقة أن الحديث عن الدماء والجروح يجعلني أشعر بغثيان فظيع.

كنا نتمازح فقط عندما شددناه بالحبال. اسمح لي بفك وثاقك يابيتر.

فقال بيتر :

-لايهمني أن تفكي وثاقي أو لا تفكيه أبداً، ولا يهمني إن كنت تفهمين المزاح على هذه الصورة.

قال الدكتور، ولو أنه لم يكن يدري مايريد أن يقوله :

-لوكنت بمكانك لأسرعت بالخروج من الحبال قبل نزول والدتك. لاأظنك تريد أن تسبب لها القلق في مثل هذا الوقت، أليس كذلك؟

قال بيتر بمنتهى الخشونة، إذ راحت بوبي وفيليس تفكان الحبال عنه :

-أنا لاأَعِدُ بشيء عن عدم الحديث عن الجروح. تذكرا ذلك.

همست بوبي عندما انحنت لتفك عقدة الحبل الكبيرة تحت الاريكة :

-أنا آسفة جداً يابيت. لكن، ليتك تعلم كم جعلني حديثك ذاك أشعر بالقرف.

فردّ عليها بيتر :

-أستطيع أن أقول لك:… إنك جعلتني أشعر بمنتهى القرف.

قال الدكتور فوريست :

-جئت لأرى إن كان أحدكم يريد الذهاب معي الى العيادة. هناك بعض الأشياء التي تحتاجها أمكم في الحال. أعطيت الفراش إجازة، اليوم ليذهب الى السيرك. أتأتي معي يابيتر؟

فذهب معه بيتر دون أن ينطق بكلمة أو ينظر الى أختيه. سار الإثنان بصمت نحو بوابة الحديقة المؤدية الى الدرب. ثم قال بيتر :

-دعني أحمل عنك حقيبتك. إنها ثقيلة. ماذا بداخلها؟

-آه، مشارط ومباضع وأدوات أخرى مختلفة لإيذاء

الناس. وقنينة غاز التخدير. كان لابد أن اعطيه بعض المخدر، كما تعلم – كان يتألم بدرجة لاتطاق.

لزم بيتر الصمت. قال الدكتور فوريست :

–إحكِ لي بالتفصيل كيف وجدتم هذا الولد.

فقصَّ عليه بيتر القصة كلها. وحكى له الدكتور فوريست قصصاً عن عمليات إنقاذ بطولية، وكان حديثه ممتعاً للغاية يجعل الانسان يحب الاستماع اليه، كما قال بيتر مراراً.

ثم أتيحت لبيتر، في العيادة، فرصة أفضل من أي وقت سابق لاختبار ميزان الطبيب والمجهر ومعدات التحليلات و أوعية المختبر الزجاجية. وعندما انتهى من جمع وتحضير المواد التي سيأخذها بيتر الى البيت قال الطبيب فجأة :

–أنت تعذرني على تدخلي، أليس كذلك؟ لكني أود أن أقول لك شيئاً.

وقال بيتر في نفسه «الآن جاء التوبيخ» وكان مستغرباً كيف حصل أن نجا منه. أضاف الطبيب قائلاً :

–شيئاً علمياً.

قال بيتر، وهو يعبث بحجارة من العصر «الآموني» يستعملها الطبيب ثقالة للأوراق :

–نعم.

قال الطبيب :

–حسن. أنت تدري أن مهمة الرجال القيام بعظائم الأعمال بلا خوف من أي شيء. ولذلك يجب أن يكونوا شجعاناً جسورين. أما النساء فعليهن واجب العناية بالاطفال وارضاعهم والسهر على راحتهم. ولذلك يجب أن يتحلّين بالصبر والرقة.

قال بيتر، وهو يسائل نفسه عما بعد هذا :

–نعم.

–طيب، إذن. فأنت ترى أن الأولاد والبنات هم رجال ونساء. ونحن أصلب وأكثر جرأة من النساء بكثير. (اعجبت كلمة «نحن» بيتر. ربما يعرف تأثيرها على الصبي) وأقوى بكثير. والاشياء التي تؤذيهن لاتؤذينا نحن. تدري أنك لايصحّ أن تضرب فتاة...

فغمغم بيتر باستياء :

– يجب الاّ افعل ذلك ، حقا .

– حتى لو كانت اختك . وذلك لان البنات ارق واضعف منا بكثير . لانه اذا لم يكنَّ رقيقات يتأذى الاطفال . ولذلك نرى كل الحيوانات تعامل امهاتها بلطف ، ولاتتعارك معها ، كما تعلم .

قال بيتر وقد بدأ يستمتع بالحديث :

– اعرف . ارنبان يمكن ان يتعاركا طوال اليوم لكنهما

لايؤذيان انثى ارنب .

– كلا . حتى الحيوانات المتوحشة – الاسود ، الفيلة – رقيقة جدا مع اناثها . علينا ، نحن ايضا ، ان نكون هكذا .

قال بيتر :

– فهمت .

مضى الطبيب في كلامه :

– قلوب الاناث رقيقة ايضا . حتى الاشياء التي نتصورها بسيطة تؤذيهن بدرجة مخيفة . لذلك يجب على الرجل ان لايسيء استعمال يديه ولا كلماته . ثم انت تدري ان البنات لاتنقصهن الشجاعة . تذكر كيف بقيت بوبي وحدها في النفق الى جانب الولد المسكين . الشيء الغريب ان المرأة التي يمكن ان يجرح شعورها اي شيء بسيط هي التي تبادر ، اسرع من غيرها وافضل ، الى القيام بما يجب القيام به من عمل . رأيت في حياتي نساء باسلات .

وختم حديثه فجأة بعبارة : «امك واحدة منهن»

فقال بيتر :

– اجل .

– حسن . هذا كل ماأردت قوله .

اسمح لي ان اشير الى ذلك . اذ لااحد يعرف كل شيء . تفهم مااقصد ، أليس كذلك ؟

فقال بيتر :

– اجل . انا آسف . لاحظ !

– الاحظ ذلك ! الناس دائما يعترفون بخطئهم – يفهمون ذلك مباشرة . على كل واحد ان يتعلم هذه الحقائق العلمية . الى اللقاء !

وتصافحا بحرارة . حين عاد بيتر الى البيت نظرت اليه اخته بارتياب . فقال بيتر ، وهو يضع سلة الحاجيات ، التي جلبها ، على الطاولة :

– لنتصالح . الدكتور فوريست حدثني بكلام علمي . لا ، لافائدة من اطلاعكما على ماقال . لن تفهما . لكن كل ما هنالك انكن ، اعني البنات ، مسكينات ، رخوات ، ضعيفات ، مذعورات مثل الارنب .

ولذا يجب علينا ، نحن الرجال ، ان نتحمل هذه الحالة . قال انكن اناث حيوان . هل احمل هذه السلة للوالدة ام تحملانها انتما ؟

قالت فيليس ، محمّرة الخدّين غضبا :

– انا اعرف ماهم الاولاد . انهم اشد الناس سماجة وصفاقة .

قالت بوبي :

– وفي منتهى الشجاعة احيانا .

– ها ، تقصدين الولد النائم فوق ؟ هكذا اذن !

استمري يافيل – سأتجاوز عن كل ما تقولينه لانك . . . . مسكينة ، ضعيفة ، مذعورة ، رخوة . . .

قالت فيليس ، وهي تهجم عليه :

– لن تتكلم هكذا عندما اقلع شعرك من رأسك .

فقالت وهي تجرها عنه :

– قال «لنتصالح» . الا تلاحظين ؟

وهمست في اذن اختها لما حمل بيتر السلة وتحرك للذهاب :

– هو متأسف حقا ، انما هو لايقول ذلك صراحة . فلنعترف كلنا بأننا اخطأنا .

قالت فيليس بارتياب :

– هذه طيبة زائدة على الحد . قال عنا اننا اناث حيوان ورخوات ومذعورات و . . .

فقالت بوبي :

–اذن فلنجعله يفهم اننا لانخشى ان يتصورنا طيبات اكثر من اللازم . ثم نحن لسنا اكثر حيوانية منه .

وحين عاد بيتر كان مايزال شامخا بأنفه ، فقالت بوبي :

– نحن متأسفتان لاننا قيدناك بالحبال ، يابيت .

فقال بيتر بمنتهى التكبر والعظمة :

– كان لابد ان تعتذرا .

شيئ لايطاق ، ولكن . . . .

قالت بوبي :

– طيب . ها نحن قد اعتذرنا . فليحترم كل منا كلمته .

قال بيتر بنبرة الكبرياء المجروح :

– انا قلت مصالحة .

فقالت بوبي :

– اذن فلتكن هذه مصالحة . هيا ، يافيل ، نعدّ الشاي . وانت ، يابيتر ، يمكنك وضع شرشف على المائدة .

قالت فيليس ، وهم يغسلون اكواب الشاي ، بعدما عادت المياه الى مجاريها :

– اقول – الدكتور فوريست لم يقل حقا اننا اناث حيوان ، أليس كذلك ؟

فأجاب بيتر باصرار :

– بلى ، قال . ولكن اعتقد انه قصد من ذلك اننا ، الرجال ، حيوانات متوحشة ايضا .

قالت فيليس :

– ياللطف !

وسقط من يدها احد الاكواب وانكسر .

قال بيتر من على باب غرفة كتابة الوالدة :

– هل استطيع الدخول ياأماه .

كانت امه جالسة الى طاولة الكتابة التي كانت عليها شمعتان يتلألأ ضوؤهما البرتقالي البنفسجي فتبدو من ورائه السماء زرقاء رمادية صافية بدأت تظهر فيها النجوم . قالت الأم ، وهي مشغولة عنه :

– نعم ، ياعزيزي . هل حدث شيء ؟

واضافت بضع كلمات الى الورقة التي امامها ثم وضعت القلم جانبا وبدأت تطوي الورقة ، وقالت :

– كنت اكتب رسالة الى جد جيم . يعيش بالقرب من هنا ، كما تعلم .

– اجل . قلت لنا هذا عندما كنا نشرب الشاي . كنت اريد ان أسأل : هل يجب ان تكتبي له ياماما ؟ الا يمكننا ابقاء جيم هنا الى ان يتعافى دون ان نخبر اهله بذلك ؟ ستكون هذه مفاجأة كبيرة لهم .

فضحكت الام وقالت :

– اجل . . اظنها ستكون مفاجأة .

مضى بيتر قائلا :

– اردت ان اقول ان البنات لطيفات بالطبع ، من كل الوجوه ، ولا اعتراض لدي عليها . ولكن كم اتمنى ان يكون معي ولد آخر اتحدث معه احيانا .

قالت الأم :

– اجل . ادري انك غير مرتاح ياعزيزي . ولكن ماذا

بوسعي ان افعل ؟ ربما استطيع ، في السنة القادمة ان ارسلك الى المدرسة – تعجبك هذه الفكرة ، اليس كذلك ؟

فاعترف بيتر قائلا :

– انا اشتاق الى الاولاد الآخرين لاريب . ولكن لو امكن ان يبقى جيم معنا بعد شفائه فسوف نلهو ونمرح كثيرا .

قالت الام :

– لاشك في ذلك . حسنا ، ربما امكن ذلك . ولكنك تعلم ، ياعزيزي ، اننا لسنا اغنياء . انا لااستطيع توفير كل مايريد . وهو يحتاج ايضا الى ممرضة .

–ألا تقدرين على ذلك يأماه؟ أنت بارعة بالتمريض.

–شكراً على المجاملة يابيت. ولكني لا أستطيع القيام بواجب التمريض والكتابة في آن واحد. هذه هي المشكلة.

–اذن فلابد من ارسال الرسالة الى جده؟

–بالطبع. والى مدير مدرسته أيضاً. أبرقنا لهما. لكن لابد من الكتابة اليهما أيضاً. سيقلقان قلقاً شديداً إن لم أفعل.

فاقترح بيتر :

–مارأيك ياماما في أن يدفع جده أجور الممرضة؟ فكرة مدهشة. يراودني شعور بأن الولد يسبح بالفلوس.

الأجداد دائماً هكذا في الكتب.

فقالت الأم :

-لكن هذا الجد ليس ممن تحكي عنهم الكتب ولذلك لا أتوقع أنه يسبح بالفوس.

قال بيتر، بعد تفكير :

-أقول.. أليست فكرة جميلة أن نكون كلنا في قصة من القصص التي تكتبينها؟ عندئذ تستطيعين أن تجعلي كل شيء يحصل، كما تحبين. فتجعلين ساق جيم تشفى حالاً ويمشي عليها غداً ويعود أبي الى البيت سريعاً و...

فسألته أمه بلهجة شعر بأنها باردة :

-هل تشتاق الى الوالد كثيراً؟

فأجاب بيتر باختصار :

-كل الاشتياق.

انشغلت الأم بوضع الرسالة في مظروف وكتابة العنوان عليه. ومضى بيتر يتكلم ببطء :

-لاحظي... لاحظي. المسألة ليست لكونه والداً فقط بل، ولأنه غائب الآن، لايوجد رجل في البيت سواي – لهذا السبب أريد بكل رغبة أن يبقى جيم معنا. ألا يعجبك أن تكتبي رواية تذكريننا كلنا وتجعلين بابا يعود فيها إلينا بسرعة، ياماما؟

أحاطته أمه بذراعها فجأة وشدته اليها بصمت لمدة

دقيقة ثم قالت :

-ألا تعتقد كم هو جميل أن نتصورأنفسنا في قصة يكتبها الله؟ لو كتبت أنا قصة فقد أخطىء، لكن الله يعرف كيف يضع النهاية الصحيحة للقصة – النهاية التي تعود بالخير علينا جميعاً.

فسألها بيتر بهدوء :

-أتعتقدين بذلك حقاً ياأماه؟

فقالت :

-نعم، أعتقد بذلك – دائماً تقريباً – إلاّ عندما يشتد عليّ الحزن فلا أقدر على الايمان بشيء.
ولكن حتى في ساعات الحزن تلك أعرف أن ذلك صحيح، وأحاول أن أؤمن به. أنت لاتعرف كيف أحاول يابيتر. والآن خذ هذه الرسائل الى صندوق البريد ولا تجعلنا نحزن أكثر من ذلك. الشجاعة، الشجاعة! إنها أحسن الفضائل! يمكنني القول بأن جيم سيمكث هنا اسبوعين أو ثلاثة. راح بيتر، طوال المساء، يتصرف بطريقة ملائكية حتى ان بوبي خشيت ان يكون مريضا. ولم يفارقها القلق عليه الا صباح اليوم التالي حين رأته يشد شعر فيليس من الخلف بالكرسي الذي تجلس عليه، على عادته القديمة.

وما ان انتهوا من تناول الفطور حتى سمعوا الباب

يدق . فأسرع الأطفال الى تلميع الشمعدانات النحاسية تكريما لزائر جيم . قالت الأم :

– هذا هو الطبيب . سأذهب لافتح له الباب . اغلقوا باب المطبخ . لايليق ظهوركم امامه بهذه الملابس . لكنه لم يكن الطبيب . عرفوا ذلك من صوته ومن وقع اقدامه وهو يصعد السلم . لم يعرفوا الرجل من خطواته ، لكنهم كانوا متأكدين من سماع ذلك الصوت من قبل .

مرت فترة صمت طويلة . لم ينزل الصوت ولاوقع الاقدام من فوق . وراح الاطفال يسائل الواحد الآخر :

– من يكون ياترى ؟

قال بيتر اخيرا :

– ربما هاجم قطاع الطرق الدكتور فوريست وقتلوه وهذا هو الرجل الذي طلبوا منه ان يحل محل الطبيب . السيدة فيني قالت ان احد ابناء القرية يقوم بأعمال الطبيب في اثناء غيابه . ألم تقولي ذلك ياسيدة فيني ؟

فجاء صوت السيدة فيني من داخل المطبخ :

– نعم ، قلت ياعزيزي .

قالت فيليس :

– لقد اصيب بنوبة ، على الارجح . لم تنفع كل الاسعافات وهذا الرجل جاء بالخبر الى امي .

فقال بيتر بحدّة :

– هراء ! ماما لاتأخذ الرجل الى غرفة جيم ، عندئذ . ماالذي يدعوها لذلك ؟ إصغي . الباب انفتح . سينزلان الآن . سأفتح بابنا قليلا .

وفتح الباب قليلا . ثم ردّ بجفاء على ملاحظة احتجاج بوبي قائلا :

– من قال إنني استرق السمع ! لااحد عاقل يحكي اسرارا لسائس الدكتور فوريست – انت قلت إنه السائس .

جاء صوت الام تنادي :

– بوبي

فتح الاطفال باب المطبخ واطلت الام من اعلى السلم وقالت :

– جاء جد جيم . إغسلوا وجوهكم وايديكم حتى تستطيعوا ان تقابلوه . يريد ان يراكم !

ثم اغلق باب الغرفة ثانية . قال بيتر :

– هاكم الآن ! تصوّروا أننا لم نفكر حتى بهذا ! اعطينا بعض الماء الحار ياسيدة فيني . انا اسود من الوسخ بلون قبعتك .

والحق ان الثلاثة كانوا في غاية الوساخة ، وذلك لان مادة التلميع التي كانوا ينظفون الشمعدانات النحاسية بها لاتسمح لمن يستعملها بالبقاء نظيفا .

كانوا مايزالون يغتسلون حين سمعوا صوت الرجل ووقع اقدامه على الدرج ثم مضى الى غرفة الطعام . عندما اتموا الاغتسال – لم يجففوا ايديهم جيدا ، لان ذلك يستغرق وقتا طويلا وكانوا متلهفين جدا لرؤية الجد – توجهوا الى غرفة الطعام .

كانت امهم جالسة على الكرسي المجاور للنافذة ، اما المقعد الجلدي ذو المساند ، الذي كان الوالد يستعمله دائما في بيتهم القديم ، فقد جلس عليه :

صديقهم السيد العجوز !

قال بيتر ، حتى قبل ان يلتقي بالتحية :

– آه لم يخطر ببالي قط .

فقد استولت عليه الدهشة ، كما قال فيما بعد ، حتى انه نسي ان هناك شيئا يسمى ادبا ولياقة ، فكيف به يتصرف بطريقة مهذبة !

قالت فيليس :

– سيدنا العجوز !

وقالت بوبي :

– آه ، هذا انت !

ثم انتبه الثلاثة الى أنفسهم وتذكروا واجبات اللياقة والادب فسلموا على الرجل بمنتهى اللطف . قالت الام :

– هذا هو جد جيم ، المستر. . . . .

وذكرت اسم السيد العجوز . فهتف بيتر :

– ياللروعة ! تماما كما في الروايات . أليس كذلك ياأماه ؟

فأجابت الأم باسمة :

–إنها لكذلك. تحدث في الحياة، أحيانا، أمور هي أقرب الى الخيال.

قالت فيليس:

–أنا في غاية السعادة لانك أنت جد جيم. عندما تفكر بأن العالم مليئ بالسادة الشيوخ..كان يمكن أن يكون أي رجل غيرك.

قال بيتر:

–أقول، مع ذلك، هل تنوي أن تأخذ جيم معك؟

فأجاب السيد العجوز:

–ليس الان. والدتك تفضلت بمنتهى الكرم فوافقت على بقائه هنا. فكرت بارسال ممرضة، لكن والدتك تلطفت فقالت إنها ستتولى العناية به بنفسها.

فبادر بيتر يسأل قبل أن تسنح الفرصة لأحد لاسكاته:

–ولكن ماذا عن الكتابة؟ لن يجد طعاما يأكله اذا لم تكتب ماما.

فأسرعت الام تقول:

-لاتشغل بالك.
نظر السيد العجوز الى الأم بمنتهى العطف، وقال:
-أرى أنك تثقين بأطفالك وتصارحينهم بكل شيءٌ.
فقالت الام:
-بالطبع.
قال:
-إذن يجوز لي أن أخبرهم بالترتيبات الصغيرة التي وضعناها. أمكم، ياأعزائي، وافقت على ترك الكتابة لفترة من الوقت لتصبح مشرفة في مستشفاي.
سألت فيليس بسذاجة:
-اه، يعني أننا سنترك بيت المدخنات الثلاث ومحطة القطار والسكة وكل شيءٌ؟
فبادرت الام تقول:
-لا، لا، ياعزيزتي.
قال السيد العجوز:
-المستشفى يدعى « مستشفى المدخنات الثلاث»، وحفيدي جيم السيءُ الحظ هو المريض الوحيد، وآمل أن يستمر هكذا. والدتكم ستكون المشرفة وسيكون هناك كادر طبي يتألف من خادمة المنزل والطباخة. الى أن يتماثل جيم للشفاء.
فسأله بيتر:

-عندئذ تعود ماما الى الكتابة؟
فقال السيد العجوز، وهو يرمق بوبي بنظرة سريعة:
-هذا متروك للمستقبل. قد تحدث بعض الامور الحلوة ولاتعود أمكم بحاجة الى الكتابة.
فأسرعت الام تقول:
-أنا أحب الكتابة.
فقال السيد العجوز:
-أعرف ذلك. لاتخافي، أنا لن أحاول التدخل. ولكن من يدري؟ تحدث احيانا أمور مدهشة وجميلة للغاية، اليس كذلك؟ ونحن نقضي أغلب عمرنا في انتظار حدوثها. هل يمكنني ان أجيءُ ثانية لرؤية الولد؟
أجابت الام:
-بالتأكيد. ولاأدري كيف أشكرك على إتاحة الفرصة لي للعناية به. ولد حبيب!
قالت فيليس:
-ظل ينادي: ماما، ماما طوال الليل. أنا أفقت من نومي مرتين وسمعته.
قالت الام للسيد العجوز بصوت خفيض:
-لم يكن يقصدني انا. لهذا السبب أردت ابقاءه هنا لاعتني به.
نهض السيد العجوز. قال بيتر:

-أنا فرحان جدا لانك ستبقين جيم معنا.

قال السيد العجوز:

-اعتنوا بأمكم، ياأعزائي. إنها امرأة لانظير لها الا بين كل مليون إمرأة.

فهمست بوبي:

-نعم، هي كذلك.

قال السيد العجوز، وهو يتناول يدي الام براحتيه:

-ليباركها الله. ليباركها الله! أجل.. وستنعم ببركة الله. معذرة، أين قبعتي؟ هل لك أن ترافقيني الى البوابة يابوبي؟

وعندما وصلا الى البوابة توقف وقال:

-أنت طفلة طيبة ياعزيزتي - وصلتني رسالتك، ولكن ماكنت بحاجة اليها. عندما قرأت عن قضية والدك في الصحف انذاك، راودني الشك. ومنذ أن عرفتكم وانا أحاول أن أتبين حقيقة القضية لم أبذل كل جهدي بعد. ولكن عندي أمل، ياعزيزتي... عندي أمل.

قالت بوبي، وهي تكاد تخنقها العبرة:

-آه!

-أجل. بل يمكنني القول ان أملي قوي. ولكن احتفظي بهذا السر بعض الوقت. ليس مناسبا أن تزعجي أمك بأمل كاذب، أليس كذلك؟

فقالت بوبي:

-اه، ولكنه ليس كاذبا! أدري أنك تقدر على تحقيقه. كنت على ثقة من ذلك حين كتبت لك. أهو أمل كاذب؟ قل لي..

فأجاب:

-كلا. لاأعتقد أنه أمل كاذب، والا ماكنت حدثتك عنه . وأعتقد بأنك تستحقين أن أخبرك بأن هناك أملا حقا.

-وأنت لاتعتقد بان والدي هو الفاعل. هل تعتقد؟ قل لي انك لاتعتقد بذلك.

فقال:

-ياعزيزتي، أنا متأكد تماما بانه لم يفعل.

حتى لوكان املا كاذبا فقد كان من الاشراق بما جعل قلب بوبي يمتلئ بدفء الفرح وظل وجهها الصغير، خلال الايام التي تلت ذلك، متوهجا مثل فانوس ياباني تنيره شمعة.

الفصل الرابع عشر

الخاتمة

لم تعد الحياة في بيت المدخنات الثلاث كما كانت عليه بعد مجيء السيد العجوز لرؤية حفيده. صحيح أن الاطفال عرفوا اسمه الآن، لكنهم ماكانوا يذكرون الاسم قط حين يتحدثون عنه فيما بينهم. فقد كان بالنسبة لهم أبداً «السيد العجوز». وأعتقد أن الأفضل أن يبقى «السيد العجوز» بالنسبة لنا نحن ايضاً. ماأظنه سيبدو حقيقياً في نظركم لو أني أخبرتكم بأن أسمه هو (سنوكز) أو (جينكنز) – وهذا غير صحيح. ثم لابد لي أنا من الاحتفاظ بسر. إنه سري الوحيد. لقد اخبرتكم بكل شيء. عدا ماسأخبركم به في هذا الفصل، وهو آخر شيء. على الأقل لم أخبركم بكل شيء حتى الآن. لوكنت فعلت هذا لما كانت للقصة نهاية. وهذا شيء مؤسف لو أنه حصل. أليس كذلك؟

حسناً. قلت لكم إن الحياة في بيت المدخنات الثلاث لم تعد كما كانت في السابق. كانت الطباخة

وخادمة البيت أمرأتين طيبتين جداً (لامانع عندي من إخباركم بأسميهما كلارا وإيثلوين). لكنهما أخبرتا الأم بأنهما لاتريدان السيدة فيني تأتي معها لأنها عجوز مثيرة للفتن والمشاكل. فصارت السيدة فيني تأتي مرتين في الأسبوع لتغسل الثياب وتكويها. ثم قالت كلارا وايثلوين انهما تستطيعان القيام بكل الاعمال خير قيام اذا لم يتدخل أحد. وكان ذلك يعني حرمان الاطفال من متعة حمل الأواني والصحون الى المطبخ، بعد تناول الشاي، وغسلها وكذلك كنس غرفهم وتهويتها.

كان عدم العمل هذا سيترك فراغاً في حياتهم. ولو أنهم كانوا يتظاهرون، أمام أنفسهم وأمام أحدهم الآخر، بأنهم يكرهون الأعمال البيتية. ولكن توقف الأم عن الكتابة وعدم قيامها بأي من أشغال البيت أتاح لها الوقت الكافي لتعطي الأطفال دروساً. وصار على الأطفال أن يدرسوا. مهما يكن المعلم لطيفاً فالدرس درس في جميع أنحاء العالم، وهو في أحسن حالاته أقل متعة من تقشير البطاطا أو إشعال النار.

ولكن اذا كان لدى الأم وقت لتعطي أطفالها دروساً، فقد كان لديها أيضاً متسع من الوقت لتلعب معهم وتكتب لهم اشعاراً كما كانت تفعل لهم من قبل. فهي لم تكتب بيتاً من الشعر مذ جاءوا الى بيت المدخنات

الثلاث.

والغريب في أمر هذه الدروس أن أياً من الأطفال كان يود أن يأخذ دروساً أُخر غير درسه. فحين يكون بيتر ملزماً بتحضير درس اللغة اللاتينية، يتمنى لو أنه يدرس التاريخ مثل بوبي. وتفضل بوبي على التاريخ درس الحساب الذي هو من حصة فيليس التي تفضل عليه درس اللغة اللاتينية... وهكذا.

لذلك، حين جلس الاطفال الى طاولة الدرس في أحد الأيام، وجد كل منهم قصيدة صغيرة أمامه. لقد وضعت أمامهم المقطوعات الشعرية لأبين لهم أن أمهم تفهم الى حدما شعورهم نحو مختلف الأمور والكلمات التي يستعملونها للتعبير عن شعورهم، وهو اهتمام لانجده الا عند القليل من البالغين. فالظاهر أن أغلب البالغين ينسون كيف كانوا يشعرون وهم صغار. المفروض ان هذه الأشعار قيلت على لسان الأطفال بالطبع :

بيتر

يوماً ظننت أن قيصر أحمق
فحين ينهالون عليه طعناً   لايكاد يعرف ماذا سيعني ذلك.
لكم كنت ناقص العقل حينذاك!
آه، إن الكلمات أشياء غبية سخيفة.

يحسن بي أن أدرس تواريخ الملوك!

* * *

بوبي

أسوأ شيء في جميع دروسي
أن أتعلم من يخلف من
في كل طوابير الملكات والملوك
وتواريخ كل شيء فعلوه
تواريخ من الكثرة بما يملأ نفسك بالسأم
أتمنى لو أدرس الحساب!

* * *

فيليس

كذا كيلو وكذا كيلو من التفاح..
أرقام تملأ سبورتي.
فكم ستدفعون ثمناً!
وتروحين تخربشين بالأرقام
الى حد البكاء
كنت سأكسر السبورة واصرخ فرحاً
لو أني درست اللاتينية مثل الأولاد!

* * *

هذه الاشياء جعلت الدروس ألطف بكثير. أشياء تدل على أن الشخص الذي يعلمك يفهم أن الدرس

باستمرار غير صحيح وأن عدم تعلمك الدرس بسرعة لايعني فقط أنك غبي!

ثم لما أخذت ساق جيم بالشفاء صار الاطفال يفرحون كثيراً بالصعود الى غرفته والجلوس معه ليحكي لهم عن حياته المدرسية وغيره من الاولاد. وهناك ولد يدعى (بار) يحمل جيم عنه فكرة سيئه. وآخر اسمه (ويغزبي ماينور) ينظر جيم الى آرائه باحترام كبير. وهناك ايضاً أخوة ثلاثة اسمهم (بيلي)، كان أصغرهم الذي يدعى (بيلي تيرتز)، ولداً محبّاً للشجار.

كان بيتر يصغي الى الحكايات ويحفظها بفرح شديد. ويبدو أن الأم أصغت باهتمام الى بعض هذه الحكايات. فقد أعطت جيم، في أحد الأيام، ورقة كتبت فيها قصيدة عن (بار) ذاكرة فيها بيلي وبيغزبي بطريقة رائعة والأسباب التي جعلت جيم لايحب بار ورأي بيغزبي العاقل في هذا الموضوع. وقد سر جيم بالقصيدة خاصة. وراح يقرأها ويعيد قراءتها حتى حفظها عن ظهر قلب، ثم بعث بها الى بيغزبي، الذي أعجب بها مثل إعجاب جيم. وربما تعجبكم أنتم أيضاً:

الولد الجديد

إسمه بار. يقول إنّه
يعطى خبزاً ولبناً مع الشاي

يقول إن أباه قتل خنزيراً برّياً
يقول إن أمه تقصّ له شعره.

* * *

يلبس كالوشاً إذا أمطرت السماء
أهله ينادونه : يا«بيت»!(*)
ماعنده شعور بالحياء.
يحكي لأصدقائه عن كل أسراره

* * *

لايقدر على حراسة مرمى الكريكيت أبداً
لأن كرة الكريكيت تصيبه بالذعر
يدرس داخل البيت ساعات وساعات
ويعرف اسماء الزهور الكريهة.

* * *

يقول إن لغته الفرنسية تشبه لغة «موسو»
شيء نافر كريه
لايفي بالتزاماته ويتهرب من الواجب
ويقول إنه جاء الى المدرسة ليتعلم!
لايلعب كرة قدم . يقول إنّها تؤذي
ولايتعارك مع «بيلي تيرتز»
ولايستطيع ان يصفر لو حاول

(*) بيت (PET) بالانكليزية تعني الحيوان المدلل.

وعندما نضحك عليه يروح يبكي !

* * *

والآن . . . يقول بيغزبي ماينور عن بار
إنه لايختلف عن جميع الطلاب الجدد الصغار
ادري اني دخلت المدرسة لاوّل مرّة
ماكنت بهذه الدرجة من الحماقة !

*****

لم يستطع جيم ان يفهم كيف يمكن ان تكون الام على هذه الدرجة من النباهة . اما الآخرون فقد كان الامر طبيعيا بالنسبة لهم والقصيدة ظريفة . لاتنسوا انهم تعودوا دائما على وجود ام تكتب الشعر بالسهولة نفسها التي يتكلم بها الناس ، حتى مع الوصف المدهش في البيت الاخير الذي ينطبق على جيم تماما .

علّمَ جيم بيتر لعبة الشطرنج والداما (الطاولة) والدومينو وقضينا معا وقتا هادئا لطيفا .

مع تحسن حالة جيم بدأ شعور ينمو لدى بوبي وبيتر وفيليس بوجوب عمل شيءٌ ما لتسليته ، لامجرد لعبة شطرنج او طاولة او ماشاكل ، بل شيءٌ اكبر من هذه حقا . ولكن كان من الصعب جدا التفكير بشيءٌ ، أي شيءٌ . قال بيتر بعدما فكروا طويلا وتعبت رؤوسهم من التفكير :

– لافائدة . مادمنا لانستطيع التفكير بشيءٍ يسليه ، فمعنى هذا اننا لانستطيع وكفى . ربما يحدث شيءٌ من تلقاء نفسه قد يعجبه .

قالت فيليس ، وكأن كل مايحدث في العالم يجري بأمر منها :

– الاشياء تحدث من تلقاء نفسها احيانا .

فقالت بوبي بصوت حالم :

– ليت شيئا يحدث . شيءٌ مدهش .

وبالفعل حدث شيءٌ مدهش بعد اربعة بالضبط . كان بودي ان اقول ثلاثة ايام لان فترة تحقق المراد في الحكايات الخرافية هي ثلاثة ايام بعد التمّني دائما . لكن هذه ليست حكاية خرافية ، ثم هي في الواقع اربعة ايام لاثلاثة وانا لااستحق الاحترام ان لم التزم الصدق .

لم يعودوا اطفال محطة في تلك الايام . وبمرور الايام صار هذا الشعور يقلقهم . وقد عبرت فيليس عن هذا الشعور في احد الايام قائلة بحزن :

– ترى هل تحنّ المحطة الينا . لم نعد نذهب لرؤيتها .

فقالت بوبي :

– هذا هو نكران الجميل . كنا نحبها يوم لم يكن معنا احد نلهو معه .

قال بيتر :

– بيركس يأتي دائما للسؤال عن جيم ، وصحة إبن عامل الاشارات احسن من السابق . هو اخبرني .

فقالت فيليس موضحة :

– انا لااقصد الناس . اقصد المحطة الحبيبة نفسها .

قالت بوبي ، في هذا اليوم الرابع بعد التمّني ، وكان يوم ثلاثاء :

– الشيءُ الذي لايعجبني هو اننا توقفنا عن التلويح لقطار التاسعة والربع وارسال تمنياتنا للوالد .

قالت فيليس :

– فلنبدأ ثانية .

وبدأوا بالفعل .

ان التغيّر طرأ على كل شيءٌ صار في البيت خادمات وتوقفت الام عن الكتابة ، جعل الوقت يبدو طويلا للغاية في نظر الاطفال ، منذ ذلك الصباح الغريب حين استيقظوا في الفجر الباكر من اليوم التالي لوصولهم واكلوا فطيرة تفاح في الفطور ورأوا سكة القطار لاول مرة .

حلّ شهر ايلول وبدأت الحشائش ، التي تغطي المنحدر المؤدي الى المحطة ، تجف وتقترب من شكل الاشواك . وانتصبت عيدان العشب الطويلة كأنها قطع من اسلاك ذهبية فيما راحت زهور «اجراس الارنب» البرية تتمايل على سيقانها الرفيعة القوية . ونشرت «ورود

الفجر» اوراقها الارجوانية العريضة المسطحة . وراحت زهور النجمة الذهبية لعشبة القديس يوحنا تتلألأ حول البركة التي في منتصف الطريق الى المحطة . جمعت بوبي كمية كبيرة من الزهور ، وهي تتخيل كم سيكون منظرها جميلا حين تنثرها على البطانية الخفيفة ، ذات اللونين الاخضر والوردي ، التي تغطي ساق جيم المكسورة المسكينة .

قال بيتر :

– اسرعا ، والاّ فاتنا قطار التاسعة والربع !

قالت فيليس :

– لااستطيع الاسراع اكثر من هذا . اللعنة عليه ! رباط حذائي انحل ثانية !

قال بيتر :

– عندما تتزوجين ، سينحل رباط حذائك وانت تمشين الى مذبح الكنيسة وسوف يتعثر به الرجل الذي سيصبح زوجك ويسقط على وجهه ويكسر أنفه ، فتقولين إنك لن تقبلي الزواج منه وتستمر الحال على هذا المنوال الى ان تصبحي عانسا عجوزا .

فقالت فيليس :

– لن اكون هكذا . عندئذ سأفضل الزواج من رجل مكسور الانف على البقاء بدون زواج .

فقالت بوبي :

– ماابشع الزواج من رجل مكسور الانف . لن يقدر على شم الزهور عند الزفاف . أليس هذا فظيعا !

فصاح بيتر :

– اللعنة على زهور الزفاف ! انظرا ! الاشارة الى الاسفل . يجب ان نركض !

وركضوا . ومرة ثانية راحوا يلوّحون بمناديلهم لقطار التاسعة والربع دون الالتفات الى ان المناديل نظيفة او وسخة . صرخت بوبي :

– سلّم على بابا !

وصاح الآخران :

– سلّم على بابا !

ولوّح السيد العجوز من نافذة عربة الدرجة الاولى . لوّح لهم بمنتهى الشدة . ولم تكن في ذلك اية غرابة . لكن الشيء الرائع المثير حقا ، هذه المرة ، ان ظهرت من كل النوافذ مناديل وصحف وايدي تلوّح لهم بحماس كبير . ومضى القطار يدوي ويزأر والحصيات الصغيرة تتقافز من تحته ، تاركا الاطفال ينظرون الواحد للآخر . قال بيتر :

– حسنا !

قالت بوبي :

– حسنا !

قالت فيليس :

– حـ . . . سـ . . . نا !

سأل بيتر ، دون ان ينتظر جوابا :

– مامعنى هذا بالله عليكم ؟

قالت بوبي :

– لاادري . ربما يكون السيد العجوز طلب من الركاب الوقوف عند النوافذ والتلويح لنا . يعرف ان الفكرة تعجبنا !

الغريب في الامر ان هذا هو ماحصل بالفعل . فالسيد العجوز ، الذي يعرفه ابناء المنطقة جيدا ويحترمونه الى حد كبير ، جاء الى المحطة مبكرا ووقف قرب الموظف الشاب الذي يؤشر تذاكر السفر عند باب الدخول وراح يقول بضع كلمات لكل مسافر يمر من الباب . وكان الناس يومئون برؤوسهم لكلمات السيد العجوز ايماءات تعبر عن مشاعر مختلفة – الدهشة او الاهتمام او الارتياب او الفرح الغامر او الموافقة المصحوبة بالعبوس – ثم يذهبون الى رصيف المحطة ليروح كل منهم يقرأ الصفحة التي تعجبه من الجريدة في انتظار مجيء القطار . وعندما صعد هؤلاء الى القطار أخبروا المسافرين القادمين من محطات اخرى بما قاله السيد العجوز . أولئك ايضا عادوا الى قراءة جرائدهم ، وهم بين الاستغراب والسرور . ولما

مر القطار من امام السياج الذي وقف عنده الاطفال الثلاثة راحت الجرائد والايدي والمناديل تلوح بحماس حتى صار ذلك الجانب من القطار يموج بالاشارات البيض ، مثل صور احتفالات التتويج المنشورة في دليل (مامكلين وكوك) . اما الاطفال فقد بدا لهم القطار كأنه كائن حي استجاب اخيرا لما اعطوه من حب بلا مقابل زمنا طويلا .

قال بيتر :

– هذا اعجب العجب !

فردّدت فيليس قوله :

– اعجب العجب !

لكن بوبي قالت :

– الا تعتقدان بأن تلويحات السيد العجوز فيها دلالة غير اعتيادية ؟

اجاب الاثنان :

– لا .

قالت :

– انا اعتقد . اظنّه كان يحاول ان يوضح لنا شيئا بتحريك الجريدة .

فسألها بيتر بتصنّع :

– ماذا يوضح ؟

اجابت بوبي :

– لاادري ، لكني اشعر بحيرة غريبة جدا . اشعر بالضبط كأن شيئا سيحصل .

قال بيتر :

– الذي سيحصل ان جوارب فيليس ستنزل .

وصح ماقاله بيتر تماما . فقد انفكت حمالة الجوارب من شدة الحركة في اثناء التلويح لقطار التاسعة والربع . ولعب منديل بوبي دور الاسعافات الاولية لربط الحمالة المصابة وعاد الثلاثة الى البيت .

كانت الدروس اصعب من المعتاد بنظر بوبي في ذلك اليوم . ولكم عابت على نفسها حيرتها امام عمليات حسابية بسيطة مثل (٤٨) باونا من اللحم و (٣٦) باونا من الخبز على (١٤٤) طفلا جائعا ، حتى ان أمّها راحت تنظر اليها بقلق واستغراب . وسألتها :

– ألا تشعرين بالارتياح ياعزيزتي ؟

فجاء جواب بوبي غير متوقّع :

– لاادري . لاادري كيف اشعر . انا لست كسلانة ماما ، هل يمكن ان تعفيني من الدروس ، اليوم ؟ اشعر بحاجة لأن اخلو الى نفسي .

فقالت الأم:

– نعم، طبعاً سأعفيك اليوم. لكن... ألقت بوبي بلوح

الاردواز (السبورة) فوقعت على النقطة الخضراء التي تتوسطها وتستعمل لرسم الدوائر، ولم تعدّ سبورة بعد ذلك. ولم تنتظر بوبي لتلتقط السبورة التالفة، بل انطلقت. فلحقت بها أمها الى الصالون لتجدها تبحث بجنون عن قبعتها الخضراء بين المعاطف المطرية والمظلات. فسألتها:

– مابك ياحبيبتي؟ هل أنت مريضة؟

فأجابت، وهي تلهث قليلاً:

– لا أدري. لكن أريد أن اخلو لنفسي لأرى إن كان رأسي فارغاً حقاً ونفسي مضطربة.

فراحت الأم تمسح على شعر ابنتها من الجبهة الى الوراء وقالت:

– ألم يكن الأفضل أن تنامي؟

فقالت بوبي:

– أكون اكثر شعوراً بالحيوية لو خرجت الى الحديقة. أعتقد

لكنها لم تستطع البقاء في الحديقة. بدت كل الأزاهير والورود تنتظر حدوث شيء. كان ذلك اليوم واحداً من أيام الخريف الساكنة الرائقة التي يبدو فيها كل شيء في حالة انتظار. لكن بوبي لم تقدر على الأنتظار. قالت:

– سأنزل الى المحطة واتحدث مع بيركس وأسأله عن طفل

عامل الاشارات.

مضت الى المحطة. فرت، في طريقها، على السيدة العجوز التي تدير مكتب البريد التي عانقتها وقبّلتها ولكنها، لدهشة بوبي، لم تقل لها سوى:

– رعاك الله ياحبيبتي. أركضي... هيا.

حتى صانع البزاز (بائع الاقمشة)، الذي لم يتصرف يوماً بطريقة لائقة وكان ينظر اليها بغطرسة، لمس قبّعته تحية وغمغم بهذه العبارة المدهشة:

– صباح الخير، آنسة. أنا واثق...

وكان الحداد، الذي جاء حاملاً جريدة مفتوحة بكلتا يديه، أكثر إثارة للاستغراب. فقد ابتسم لبوبي ابتسامة عريضة وهو الرجل المعروف ببعده عن الابتسام وصار يلوح لها بالجريدة من بعيد ولما مر بالقرب منها رد على تحيتها الصباحية قائلاً:

– طاب صباحك يا آنستي الصغيرة وطابت صباحاتك كلها! اتمنى لك كل الفرح. من كل قلبي! قالت بوبي في نفسها: «آه! شيء سيحدث! أعرف ذلك... كل شيء غريب. كالناس الذين نراهم في الاحلام». وراح قلبها يخفق بشدة.

شد ناظر المحطة على يدها بحرارة. والحق أنه هزّ ذراعها الصغيرة صعوداً ونزولاً بقوة كأنه مكبس مضخة

لكنه لم يعطها أي سبب لهذا الإستقبال الحماسي غير الاعتيادي، وانما اكتفى بالقول:

– قطار الثانية عشرة الا ست دقائق تأخر قليلاً يا آنسة... الحقائب والامتعة كثيرة في أيام العطلة هذه. وانطلق الرجل مسرعا الى صومعته الداخلية فلم تجرؤ بوبي على اللحاق به.

ولم يكن من أثر لبيركس. ولبثت بوبي واقفة وحدها تشاركها «قطة المحطة» الرصيف المقفر. فهذه السيدة السمينة المكورة مثل سلحفاة، من فرط الأكل والكسل عادة، جاءت اليوم لتحك شعرها بجوارب بوبي ذات اللون البني، مقوسة الظهر تهز ذيلها وتموء مواء منغماً. فنزلت بوبي بيدها على القطة وراحت تمسّد على شعرها وقالت:

– واعجبي! ما أطيب الجميع؛ اليوم – حتى أنت ياقطيطة!

لم يظهر بيركس حتى أعلنت الاشارة مجيء قطار الثانية عشرة الا ست دقائق. وكان يحمل جريدة بيده، مثل الجميع في ذلك الصباح قال:

– هلو! (أو مرحباً) أنت هنا. حسن. شيء جميل اذا كان هذا هو القطار! حسناً، باركك الله ياعزيزتي! أقرأه في الجريدة، ولا أظنني فرحت بهذه الدرجة طوال الأيام

التي عشتها!

ونظر الى بوبي برهة ثم قال:

– لابد أن آخذ واحدة يا آنسة، وبدون زعل، أدري... في يوم كهذا!

وقبّل خدها، ثم خدها الأخر. و سألها قلقاً:

– لم تزعلي، أليس كذلك. هل رفعت الكلفة بيننا اكثر من اللازم؟ في مثل هذا اليوم... تعرفين.. فقالت بوبي:

– لا، لا. بالطبع لم ترفع الكلفة ياعزيزي المستر بيركس. نحن نحبك كثيراً كما لو كنت عمّنا، ولكن في مثل ماذا؟

فأجاب بيركس:

– مثل هذا اليوم! ألا أقول لك اني أراه في الجريدة؟

فسألته بوبي:

– ماذا رأيت في الجريدة؟

لكن القطار كان قد وصل المحطة في تلك اللحظة وهو ينفث البخار، فيما راح الناظر يبحث بعينيه عن بيركس على امتداد الرصيف.

بقيت بوبي واقفة وحدها، وراحت «قطة المحطة»، التي اختبأت تحت احدى المصاطب، تنظر اليها بعينين ذهبيتين ودودتين.

أنتم تعرفون بالضبط، طبعاً، ماذا كان سيحدث. بوبي لم تكن بهذه الدرجة من الفطنة، انما كان قد تملكها



حسّ التوقع المبهم المضطرب الذي يملأ قلب الانسان في اثناء الاحلام. أما ماذا كان قلبها يتوقع، فلا أدري – ربما هو الشيء نفسه الذي نعرف كلنا، انتم وأنا، انه سيحدث. لكن عقلها لم يسعفها. فكان خالياً الا من الشعور بالتعب وتبلد الذهن والفراغ كمن سار مسافة طويلة جداً وتأخر عن موعد عشائه الاعتيادي.

ثلاثة أشخاص فقط نزلوا من القطار. أولهم امرأة ريفية تحمل قفصين مملوءين دجاجاً، وكانت الدجاجات تمد رؤوسها ذات الأعراف الحمر قلقة من بين عيدان الاقفاص. نزلت بعدها السيدة بيكيت، ابنة عم زوجة البقال، حاملة صفيحة معدنية وثلاث رزم ملفوفة بورق اسمر. والثالث...

– آه! أبي، أبي!

نفذت الصرخة مثل سكين الى قلب كل من في القطار، فمد الناس رؤوسهم من النوافذ ليروا رجلاً طويل القامة شاحب اللون، دقيق الشفتين مزمومهما وبنيّة صغيرة تتعلق به بذراعيها وساقيها وهو يطوقها بذراعيه بقوة

قالت بولي، حين أخذا طريقهما الى البيت:

– عرفت أن شيئاً رائعاً سيحدث، ولكن لم يخطر هذا ببالي. آه يابابا، يابابا! فسألها أبوها:

– اذن ماما لم تتسلّم رسالتي؟

– لم تصل اية رسالة هذا الصباح. آه! بابا! هذا أنت حقاً أليس كذلك؟ فجاءت ضغطة اليد التي كادت أن تنساها لتؤكد لها أنه والدها.

– عليك أن تذهبي بنفسك يابولي وتخبري والدتك بهدوء بأن كل شيء على ما يرام. لقد ألقوا القبض على الرجل الذي ارتكب تلك الفعلة. الكل يعرفون الآن أن المجرم لم يكن والدك.

فقالت بولي:

– كنت أعرف دائماً انك لم تفعل ذلك. أنا وماما وسيدنا العجوز.

قال الوالد:

– نعم. كل هذا من أفضاله. ماما كتبت لي واخبرتني بأنك عرفت السر. وأخبرتني ماذا كنت بالنسبة لها. يابنيتي الصغيرة!

عندئذٍ توقفا لمدة دقيقة.

ها أنا أراهما، الآن يقطعان الحقل. وتدخل بولي البيت، محاولة أن تمنع عينيها عن الكلام قبل أن يجد لسانها الكلمات المناسبة «ليخبر الأم بمنتهى الهدوء» بأن الحزن والمعاناة والفراق قد ذهبوا الى غير رجعه وأن الوالد قد عاد الى البيت.

وأرى الوالد يروح ويجيء في الحديقة منتظراً وينتظر. إنه ينظر الى الزهور. فكل زهرة هي نعمة وسحر للعين بعد كل تلك الشهور، من ربيع وصيف، التي لا ترى فيها سوى حجارة تعبيد الطرق والحصى ونتف الأعشاب المتناثرة. لكن عينيه تلتفتان كل حين صوب البيت. وفجأة يغادر الحديقة ليمضي فيقف عند أقرب باب. إنه الباب الخلفي. وهاهي العصافير تتطاير فوق الساحة، تهيء نفسها لتحلّق مبتعدة عن الرياح الباردة والصقيع الى بلاد الصيف الدائم. تلك هي العصافير نفسها التي بنى لها الأطفال أعشاشاً من الطين.

ينفتح الباب الآن، صوت بوبي ينادي:

– ادخل، يابابا أدخل!

يدخل ويغلق الباب. لا أظن أننا سنفتح الباب ونتبعه. وأعتقد أننا، حتى الآن، غير مرغوب بنا هنا، وأعتقد بأن الافضل لنا أن نذهب بسرعة وهدوء. وهناك من عند طرف الحقل، بين سيقان العشب اليابسة الذهبية النحيلة واجهات زهور «أجراس الارنب» و «ورود الغجر» و «عشبة القديس يوحنا»، قد نلتفت نصف التفاتة لنلقي نظرة أخيرة على البيت الذي لا مكان لنا أو لغيرنا فيه الآن.

سلسلة روايات عالمية .

صدر منها :

بينوكيو «الصبي الخشبي».
رغد والسحابة.
البيضة الهائلة.
مغامرات الكابتن رنجل.
الحديقة السرية.
بيتر بان.
عائلة روبنسن السويسرية.
اطفال القطار.
المدينة من ذهب ورصاص.
القرعة السحرية.

يصدر قريباً :

مغامرات فوق الجزيرة.

الباحثون عن الكنز.

الخنفساء الذهبية.

نساء صغيرات «الجزء الاول».

نساء صغيرات «الجزء الثاني».

مذكرات حمار.

جزيرة الكنز.

الكنار المسحور.

الرجل الحديدي.

يسر دار ثقافة الاطفال ان تعلن عن قرب صدور

سلسلة جديدة بعنوان «المغامرات»

يصدر منها قريباً :

١ ـ صائد الاشباح.
٢ ـ سحر الفرس وحيد القرن.
٣ ـ خطر في منجم الذهب.
٤ ـ المغامر السري.
٥ ـ العودة الى كهف الزمن.
٦ ـ الرعب الكبير.
٧ ـ ساكن النجوم.

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٢٤٧ لسنة ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة

السعر دينار واحد